الحروب الموجهة

إعلامياً

مفارقة القوة، والمعضلة الاستراتيجية لدى الجيش الإسرائيلي

يورام بيري

ترجمة وتحقيق

أبوبكر خلاف

زاد للدراسات الإسرائيلية
Zad for Israeli Studies

الحروب الموجهة إعلاميًا

مفارقة القوة، والمعضلة الاستراتيجية لدى الجيش الإسرائيلي

الحروب الموجهة إعلاميًا

مفارقة القوة، والمعضلة
الاستراتيجية لدى الجيش الإسرائيلي

يورام بيري

ترجمة وتحقيق:
أبو بكر خلاف

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

زاد للدراسات الإسرائيلية
Zad for Israeli Studies

www.zadpost.com

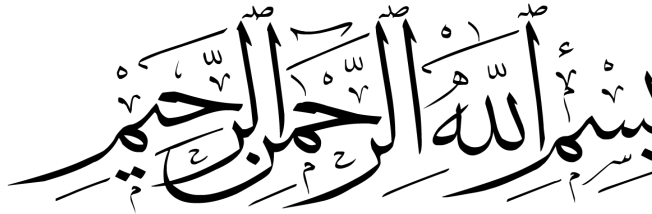
بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

إهداء..... ٩

مقدمة المترجم..... ١١

الحرب الموجهة إعلاميًا..... ١٥

الإعلام وتغطية النزاعات..... ٢٥

التحول البصري ومركزية الصورة «image»..... ٣١

بين النص والصورة..... ٣٧

مرحلة جديدة في تاريخ الإعلام الحديث..... ٣٩

ثقافة الصورة..... ٤٣

وسائل الإعلام في الحرب الحديثة..... ٥٩

الإعلام في المقاومة والمواجهة المحدودة..... ٧٥

مفارقة القوة في الحروب الموجهة إعلاميًا..... ٩٣

١٩١٤ - حرب لبنان ٢٠٠٦م..... ١٠٥

الرصاص المصبوب.....١١٩

عملية أسطول مرمرة ١٣٥

عامود السحاب.....١٤٥

الجرف الصامد.....١٧٩

فصل الأسماك عن البحر.....١٩٧

الخاتمة.....٢٢٩

تراجم الشخصيات الواردة بالكتاب ٢٣٩

إهداء

إلى أرواح الشهداء في عملية «طوفان الأقصى»

رحمهم الله جميعًا وأسكنهم فسيح جناته آمين.

مقدمة المترجم

هـذا الكتـاب «الحـروب الموجهـة إعلاميًـا» هـو نتـاج دراسـة معمقـة ومبتكـرة، تظهـر كيـف أنـه ومنـذ حـرب لبنـان الثانيـة عـام ٢٠٠٦م، تغلغلـت وسـائل الإعـلام - بمنطقهـا ومبـادئ عملهـا - في عـالم الحـرب التقليديـة وغيرتـه جذريـاً. ففـي الحـروب الحديثـة، يسـعى كلا الطرفـين إلى التأثـير عـلى وعـي المحاربـين وكذلـك المجتمعـات المتداخلـة في الـصراع والـرأي العـام الـدولي. ويـدور الـصراع عـلى سرد الروايـات مـن خـلال الصـور المعروضـة عـلى شاشـات التلفـاز وأجهـزة الحاسـوب والهواتـف الذكيـة. هـذه الصـور لا تقـل في أثرهـا وأهميتهـا عـن التحـركات العمليـاتيـة التـي تقـوم بهـا أطـراف الـصراع عـلى الأرض، بـل إنهـا في الحـروب الموجهـة إعلاميًـا تكـون أكـثر أهميـة منهـا.

يعـرض الكتـاب أولا مبـادئ لغـة الإعـلام الجديـدة ومنطقهـا. وبعـد مناقشـة مبدئيـة للثـورة الاجتماعيـة التـي حدثـت في أعقاب التغـيرات التكنولوجيـة في وسـائل الإعـلام - التغـيرات التـي خلقـت «المجتمـع الريزومـاتي» - يتنـاول الباحث حـروب الجيش الإسرائيلي ضـد حـزب اللـه وحركـة المقاومـة الإسـلامية «حـماس» منـذ عـام ٢٠٠٦م ويصـف كيـف تمـت إدارة هـذه الحـروب الموجهـة إعلاميًـا.

يوضح التحليل الصعوبة التي واجهتها إسرائيل في فهم جوهر هذه الحروب وعملية التكيف الطويلة والمؤلمة التي مر بها الجيش الإسرائيلي حتى فهم طبيعتها. ويشرح لماذا لا تزال إسرائيل، حتى بعد تشكل مثل هذا الفهم، تواجه عقبة استراتيجية: الحروب الموجهة إعلاميًا في جوهرها تخلق ضرراً للجانب الأقوى في الصراع وتعطي ميزة على وجه التحديد للجانب الأضعف، لأن الضعيف قادر على الاستفادة من منطق وسائل الإعلام بشكل أفضل. فحرب الصور، على سبيل المثال، تخلق تعاطفا مع الطرف الذي يعاني وتجعل منه الطرف المحق أيضا.

التعريف بالكاتب:

البروفيسور يورام بيري هو عضو في القسم الأكاديمي لكلية كي للتربية ورئيس معهد جيلدنهورن للدراسات الإسرائيلية في جامعة ماريلاند وأحد كبار الباحثين المشاركين في معهد دراسات الأمن القومي بتل أبيب.

هو عالم اجتماع سياسي مختص في مجالات علاقات المجتمع بالجيش والسياسة والإعلام. وقد نشر عشرات المقالات إضافة إلى خمسة كتب في هذه المواضيع، ومنها: Generals in the Cabinet Room: How the Military Shapes Israeli Policy؛ Tele populism: Media and Politics in Israel. وكذلك يد

الرجـل في أخيـه: اغتيـال رابـين وحـرب الثقافـة في إسرائيـل.

البروفيسـور بـيري هو نائـب رئيس الجمعيـة الدولية للدراسـات الإسرائيليـة ومحـرر المجلـة الخاصـة بهـا Israel Studies Review. وقـد شـغل سـابقا منصـب المستشـار السـياسي لرئيـس الحكومـة إسـحاق رابـين ورئيـس تحريـر صحيفـة دافـار.

حصـل بـيري عـلى العديـد مـن الجوائـز عـن أعمالـه، ومنهـا جائـزة التقديريـة باسـم رئاسـة الدولـة ورئاسـة الـوزراء، وجائـزة الجمعيـة الإسرائيليـة للعلـوم السياسـية، وجائـزة تشتشـيك لـلأدب العسـكري، إضافـة إلى جائـزة The best of the best المرموقـة عـام ١٩٩٧م مـن رابطـة الناشريـن والأكاديميـين في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة.

أبو بكر خلاف

إسطنبول / ٧ أكتوبر ٢٠٢٣

الحرب الموجهة إعلاميًا

أعلمة المجتمع المعاصر (سيطرة وسائل الإعلام على المجتمع المعاصر)

في أوائل يناير/كانون الثاني عام ٢٠١٦م، ظهر مقال متواضع في العديد من الصحف بالولايات المتحدة، جاء فيه أن رؤساء الأجهزة الأمنية الأمريكية قد غادروا واشنطن العاصمة في رحلة خاصة إلى الساحل الغربي للقارة الأمريكية لمقابلة رؤساء شركات الاتصالات من مدراء فيسبوك وتويتر وأبل وجوجل وغيرهم في وادي السيليكون. وكان الغرض من الاجتماع هو صياغة استراتيجية مشتركة للحرب ضد ما يعرف بتنظيم الدولة الإسلامية «داعش».

من الصعب العثور على حدث هام آخر يعبر بمثل هذه القوة عن طبيعة الحرب التي تخوضها أمريكا ضد التنظيمات المسلحة والإرهابية في «الفضاء المعلوماتي»، والبُعد المعرفي في هذه المواجهة لا يقل أهمية عن المكون العملياتي، بل وربما يتجاوزه. هذه الحرب لكي تنتصر فيها لابد أن تدرك وتفهم وتعرف كيف تستفيد من السلاح التكنولوجي الحديث وهو «وسائل الإعلام الحديثة» وعلى رأسها منصات التواصل الاجتماعي.

وعلى ضوء هذا، فليس من المستغرب أنه تجد مفردة MEDIA أو إعلام أكثر من ٨ مرات في تقرير مكون من ٥٧ صفحة لأحدث وثيقة صادرة عن وزارة الدفاع الأمريكية، حيث يصف التقرير الخطوط العريضة للحروب على مدار العشرين عاما القادمة Joint Operating Environment 2035.

حتى قبل ذلك، وتحت تأثير حرب الخليج عام ١٩٩١م والبث المباشر من ساحة المعركة، تنبأت ورقة تقدير موقف أعدها معهد شورنشتاين للسياسة والإعلام في جامعة هارفارد بأن «الحرب التالية» سيتم بثها على الهواء مباشرة. كما تم الإعراب عن رأي مماثل من قبل باري ديسامور، مراسل الشؤون الدبلوماسية السابق في شبكة ABC حيث جادل بأن التصغير "Miniaturization" والرقمنة "Digitization" وغيرها من الابتكارات التكنولوجية ستؤدي إلى حقيقة أنه في الحروب التي تلي حرب الخليج سيقوم المراسلون بوصف سير المعارك، لأول مرة في تاريخ الحروب، على الهواء مباشرة من ساحات القتال. وبالفعل، عندما انتهت «الحرب التالية» - وقد كانت هي حرب لبنان الثانية التي اندلعت في صيف عام ٢٠٠٦م - ذكرت ورقة موقف أخرى نشرت في نفس المعهد: «لقد تحققت النبوءة".

على الرغم من أنه في كل من حرب الخليج الأولى (عام ١٩٩١م) وحرب الخليج الثانية (٢٠٠٣م) كانت هناك شبكات

تقوم ببث مباشر، إلا أنه حتى حرب لبنان الثانية (عام ٢٠٠٦م) لم تقم أي شبكة ببث صور مباشرة للواقع الكئيب لساحة المعركة: بيوت وقرى دمرت في الغارات الجوية، شيوخ يتنقلون بين الأنقاض بلا هدف، أطفال يحتضنون دُماهم الممزقة، صواريخ حزب الله تسقط على شمال إسرائيل وتجبر آلاف الأشخاص على الفرار من منازلهم أو الاختباء في الملاجئ، لقد كانت الحرب بين إسرائيل وحزب الله في ذلك الصيف هي أول حرب تبث على الهواء مباشرة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

ربما كان مارفين كالب[1] وشريكه، اللذان صاغا التقييم القائل بأن «الحرب القادمة سيتم بثها على الهواء مباشرة»، على حق، لكنهما قللا من أهمية التغيير الثوري الذي عبرت عنه حرب لبنان الثانية. حيث قادني البحث الذي أجريته حول تلك الحرب إلى استنتاج مفاده أنها كانت نوعا جديدًا من الحروب. لقد أخطأ الباحثون في معهد هارفارد، مثل كثيرين غيرهم، في تعريفها بأنها «حرب وسائط" (mediated war). لقد كانت «حربا موجهة إعلاميًا" (mediatized war). هذان مفهومان مختلفان تمامًا، وهما يعبران عن ظاهرتين

(١) مارفين كالب Marvin Kalb (ولد عام ١٩٣٠م): هو أكاديمي وصحفي أمريكي، ومؤسس مركز شورنشتاين للإعلام والسياسة والسياسة العامة، مع «إدوارد آر مورو» أستاذ الصحافة والسياسة العامة. وهو حاليًا زميل كلية جيمس كلارك ويلينج التابعة لجامعة جورج واشنطن، كما أنه عضو في الهيئة الاستشارية لمشروع المجتمع الأطلسي.

اجتماعيتين يوجد بينهما فرق كبير.

إن الاعتراف بأهمية وسائل الإعلام في المجتمع المعاصر وبالتغييرات التي أحدثتها في طريقة التنظيم الاجتماعي مستمر بالفعل منذ سنوات عديدة. فمنذ النصف الثاني من القرن الماضي، قام باحثون في العلوم الاجتماعية في كثير من الأحيان بوصف الطريقة التي أصبح بها الإعلام مؤسسة مهمة، عاملا وسيطاً، تؤثر على طريقة الحياة وتغير طريقة التفاعل الاجتماعي بين الناس وكذلك بين المؤسسات الاجتماعية المختلفة وداخلها. وقد كان هذا صحيحا في جميع المجالات الاجتماعية، وكذلك أيضا في مجال الحرب: حرب فيتنام - وخاصة منذ الهجوم المشترك الذي شنه الفيت كونغ[1] ضد قوات جمهورية فيتنام وضد جيش الولايات المتحدة في عام ١٩٦٨م (هجوم تيت)[2] والذي كان بمثابة نقطة التحول في الحرب - وهو يوضح معنى مفهوم «مجتمع وسيط» في المجال العسكري أيضا.

بدأ باحثو الإعلام في استخدام مصطلح «موجهة إعلاميًا"

(١) فيت كونغ Viet Cong (الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام): حركة مقاومة مسلحة فيتنامية نشطت بين عامي ١٩٥٤ - ١٩٧٦م.

(٢) هجوم تيت Tet Offensive: هجوم شنه الثوار الفيتناميون «الفيت كونج» بتخطيط من الجنرال جياب وقيادته فيما بين ٢٩ يناير/كانون الثاني و٢٥ فبراير/شباط عام ١٩٦٨م، واستمد اسمه من الاحتفالات الفيتنامية ببداية السنة القمرية حسب التوقيت المحلي. وقد اكتسح فيه المهاجمون أكثر من ٩٠ موقعا ومركز قيادة للقوات الأمريكية وكبدوها خسائر كبيرة في المعدات والأفراد، كما تكبدوا خسائر أكثر، ولكن الأمر دفع القيادة الأمريكية إلى إعادة النظر في استراتيجيتها حول الحرب و «فتنمت» الحرب (أي ترك الحرب لأصحابها الأصليين من الفيتناميين)، الأمر الذي كان له الأثر البالغ في نتيجة الحرب عند نهايتها.

(mediatized) وتخلو عن مصطلح «وسيطة" (mediated)، عندما أدركوا أن الإعلام لم يعد مجرد عامل وسيط وقد أحدث بالفعل تغييراً أكثر جوهرية وعمقا في طبيعة المجتمع الحديث. أما أفضل من وصف ذلك فكان بيير بورديو[1]، الذي استخدم مصطلح «هيتيرونوميا Heteronomy" (الحكم الغيري) لهذا الغرض. ووفقًا له، فإن ما حدث في المجتمع المعاصر هو أن وسائل الإعلام قد اخترقت جميع المجالات الاجتماعية وألغت استقلالية كل منها. لقد غيرتها جذرياً وتسببت في جعلها لا تعمل بعد الآن وفقا للمبادئ الفريدة لكل منها، وإنما وفقا لأساليب إنتاجها أو أنماط نشاطها أو قواعد عملها. وزعم الفيلسوف الفرنسي أن وسائل الإعلام، وخاصة التلفزيون، قد سيطرت على جميع الإنتاج الثقافي.

في المجتمع الوسي (mediated)، يتم التعامل مع وسائل الإعلام ككيان محايد يقف على مسافة متساوية من الأحداث التي يغطيها ومن الجمهور الذي يشاهدها أو يقرأها أو يسمع عنها. في هذا المفهوم يمكن الافتراض بأن وسائل الإعلام تلعب دور الناقل والموصل وكذلك المُحَكِم في المجتمع الموجه إعلاميا، (mediatized) من ناحية أخرى، تسببت وسائل الإعلام في

(١) بيير بورديو Pierre Bourdieu (١٩٣٠ - ٢٠٠٢م): عالم اجتماع فرنسي، أحد الفاعلين الأساسيين بالحياة الثقافية والفكرية بفرنسا، وأحد أبرز المراجع العالمية في علم الاجتماع المعاصر، بل إن فكره أحدث تأثيراً بالغا في العلوم الإنسانية والاجتماعية منذ منتصف الستينيات من القرن العشرين.

إحداث تغيير ذي مدى أبعد بكثير: حيث أصبحت متشابكة مع أنشطة المؤسسات الاجتماعية المختلفة، وبالتالي فإن التفاعل الاجتماعي - سواء بين الأفراد داخل هذه المؤسسات أو بين المؤسسات نفسها - يتم أولا وقبل كل شيء في وسائل الإعلام نفسها.

لقد أصبح المجتمع معتمداً على وسائل الإعلام، وطريقة عملها، ومنطقها. هذا مجتمع لم يتم فيه توسيع قدرة التواصل البشري فحسب، بل إن الحدود بين الأنشطة التواصلية وغير التواصلية تنهار وتختفي، إنه مجتمع يضطر فيه الناس والمؤسسات إلى ملاءمة وتكييف أنفسهم مع قيود وسائل الإعلام.

اكتسبت فكرة «الأعلمة والتوجيه الإعلامي» مكانة بارزة عندما خصصت لها رئيسة رابطة الاتصالات الدولية (ICA) خطابها الرئيسي في المؤتمر السنوي للمنظمة في عام ٢٠٠٦م، حيث تناولت أيضًا البعد اللغوي لمختلف المفاهيم، media-tion، mediazation، medialization، mediatization، والخلط الذي حدث بينها بسبب استخدامها في لغات مختلفة - الخلط الذي هو ليس لغويا فحسب، بل يعكس أيضًا جدلاً نظريًا مثيرا للاهتمام حول هذا الموضوع.

كان المجال السياسي هو أول مجال يتم فيه تحديد ظاهرة «الأعلمة/التوجيه الإعلامي». في دراسة عن الثورة السياسية التي حدثت في إسرائيل في العقد الأخير من القرن العشرين،

قمت بتحليل «الأعلمة/التوجيه الإعلامي» وشرحت بأنه عملية تغلغلت فيها وسائل الإعلام، وخاصة التلفزيون، في قلب السياسة، وأصبحت الساحة الرئيسية للنشاط السياسي، بل وأصبحت عاملاً مستقلاً في اللعبة السياسية. وقد أحدثت هذه العملية تغييرا جوهريا في معنى مفهوم السياسة؛ حيث تمت إعادة تشكيل العلاقة بين الإعلام والسياسة بصورة مختلفة عما كانت عليه في الماضي: تبنت السياسة منطق الإعلام، وفقدت استقلاليتها وذابت في الفضاء الإعلامي. لقد نشأ تكافل بين السياسة والإعلام، واندمجا معاً، وما تم إنشاؤه هو «السياسة الإعلامية Media policy

ومن الأمثلة المفيدة في إسرائيل على الانتقال من السياسة القديمة إلى السياسة الجديدة، الموجهة إعلاميًا، كانت انتخابات الكنيست التي أجريت في عام ١٩٩٦م. ففي هذه الانتخابات هزَم بنيامين نتنياهو[١] منافسه الأكبر سنا، شمعون بيريز[٢]، لأنه كان أول زعيم إسرائيلي يفهم منطق السياسة الجديدة، السياسة الإعلامية Media policy. وعلى غرار كل من الرئيس

(١) بنيامين نتنياهو **בנימין נתניהו** (ولد عام ١٩٤٩م): سياسي إسرائيلي شغل منصب رئيس الوزراء التاسع لإسرائيل بين عامي ٢٠٠٩ - ٢٠٢١م، وسابقًا بين عامي ١٩٩٦ - ١٩٩٩م. نتنياهو أيضًا رئيس حزب الليكود - الحركة الوطنية الليبرالية. يُعتبر صاحب أطول مدة كرئيس حكومة إسرائيل في التاريخ.

(٢) شمعون بيريز **שמעון פרס** (١٩٢٣ - ٢٠١٦م): كان سياسيًا إسرائيليا، شغل منصب رئيس الدولة (وهو منصب فخري في إسرائيل) بين عامي ٢٠٠٧ - ٢٠١٤م، كما تولّى رئاسة وزراء إسرائيل مرتين، الفترة الأولى بين عامي ١٩٨٤ - ١٩٨٦م، والثانية لسبعة أشهر بين عامي ١٩٩٥ - ١٩٩٦م بعد اغتيال إسحق رابين.

كارلوس منعم[1] في الأرجنتين (١٩٨٩ - ١٩٩٩م)، ورئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو بر لسكوني[2] ثلاث مرات (بين عامي ١٩٩٤م و٢٠١١م)، والرئيس الأمريكي دونالد ترامب[3] صاغ نتنياهو نوعا جديدًا من الشعبوية - تيلي بوبوليزم Tele populism تميل إلى منطق التلفزيون وتتميز بحقيقة أن معظم الأتباع يرون زعيمهم على الشاشة. فحتى المسيرات الشعبية والتجمعات الحزبية تهدف لأن تكون في الواقع بمثابة مسرح لكاميرات التلفزيون. في مثل هذا المجتمع، يطور الجمهور علاقات مع القائد يعرفها باحثو الإعلام على أنها «ما وراء اجتماعية Para social". وهي عبارة عن تقارب عاطفي عميق تجاه نجم، والتماهي معه ودعمه، وكأن الناس يعرفونه شخصيا، لأنه يزور منازلهم بانتظام.

بعد التغييرات الثورية التي حدثت في المجال السياسي منذ العقد الأخير من القرن الماضي (والتي تم التعبير عنها بطريقة

---

(١) كارلوس منعم Carlos Saúl Menem (١٩٣٠ - ٢٠٢١م): هو محامٍ وسياسي أرجنتيني من أصل سوري، شغل منصب الرئيس الرابع والأربعين للأرجنتين بين عامي ١٩٨٩ - ١٩٩٩م.

(٢) سيلفيو برلسكوني Silvio Berlusconi (ولد عام ١٩٣٦م): هو سياسي ورجل أعمال إيطالي كان رئيس وزراء إيطاليا لثلاث مرات، ويُلقب باسم «الفارس» بسبب التكريم الذي حصل عليه في عام ١٩٧٧م من الرئيس جيوفاني ليوني كفارس للعمل والذي تخلى عنه في عام ٢٠١٤م. في عام ١٩٧٥م، قام بإنشاء شركة «فينينفيست Fininvest»، وفي عام ١٩٩٣م أنشأ شركة إنتاج الوسائط المتعددة «ميدياست Mediaset».

(٣) دونالد ترامب Donald Trump (ولد عام ١٩٤٦م): هو سياسي أمريكي شغل منصب الرئيس الخامس والأربعون للولايات المتحدة بين عامي ١٩١٧ - ٢٠٢١م. قبل دخوله السياسة، كان رجل أعمال وشخصيّة تلفزيونية.

رائعة، وإن كانت مثيرة للقلق، في الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام ٢٠١٦م وفي ما يحدث على رأس هرم الإدارة الأمريكية منذ ذلك الحين)، حدد الباحثون الاجتماعيون عملية الأعلمة في مجالات مؤسسية أخرى أيضا، وأصبح المفهوم أكثر وأكثر شمولاً، إلى حد الحديث عن أعلمة الثقافة والمجتمع، ويمكن فهم أهمية عملية الأعلمة من حقيقة أن عددًا غير قليل يرون فيها واحدة من العمليات الفوقية Meta-processes التي تميز الحداثة المتأخرة والتي تسببت، جنبا إلى جنب مع العولمة، في تغيير جوهري في العمل الإنساني وفي الثقافة. وفي أعقاب التطور التكنولوجي في مجال الإعلام في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، تسارعت عملية الأعلمة أيضًا خارج المجال السياسي ووصلت كذلك إلى مجال الجيش والحروب.

في البداية، تناول الباحثون في مجال الإرهاب هذه القضية، فالإرهاب الحديث يقوم على الإعلام، حيث إن جوهره هو التخويف، ووسائل الإعلام تساعد في نشر الخوف وتكثيف أبعاده، وبدون الإعلام، لا يمكن للإرهاب أن يحقق هدفه. وقد نوقشت الطبيعة الإعلامية للإرهاب باستفاضة من قبل جابي ويمان، الذي عمل منذ عام ١٩٩٥م على تطوير مفهوم «مسرح الإرهاب». وفي السنوات الأخيرة، نجحت «داعش» في فرض سيطرتها على هذا المجال بشكل دراماتيكي، بالمعنى الحرفي للكلمة، من نشر فيديوهات قطع الرؤوس والاحراق

والتفجيرات وغيرها من الأعمال الوحشية، بهدف إثارة الرعب.

ومن بعد أعلمة «الإرهاب»، انتقلت دراسة الأعلمة أيضًا إلى مجال الحروب، واكتسبت مزيدًا من الأهمية عندما حلت «الحروب الجديدة» -غير المتكافئة أو الثورية أو التخريبية- محل الحروب التقليدية أو القديمة. ومن هناك، توسع البحث حول تأثير الإعلام بشكل أكبر، مما دفع مجموعة من الباحثين في مجال الإعلام إلى تناول العلاقة بين الإعلام والنزاعات بشكل عام. واهتم الأكاديميون بتطوير نظريات اجتماعية جديدة حول هذا الشكل الجديد من الصراع.

الإعلام وتغطية النزاعات

شهد العقد الماضي مناقشة العديد من الأسئلة المثيرة حول إشكالية التغطية الإعلامية للنزاعات: لماذا تحظى بعض النزاعات بتغطية واسعة النطاق، في حين أن نزاعات أخرى تعاني من «إخفاء رمزي»، بمعنى أنها لا يتم ذكرها، والجمهور عملياً يكاد يجهل وجودها؟

ما هي الصراعات التي تحظى بتركيز وسائل الإعلام وأي منها لا يتم ذكرها؟ ماهي آلية التغطية للنزاعات بالمنصات الإعلامية المختلفة؟ طريقة التناول الدرامي للأحداث والسرد للقصص داخل الصراع وإضفاء الطابع الأسطوري عليها؟ إلى أي مدى تؤثر علاقات الإعلاميين كأفراد أو مؤسسات من مختلف أطراف النزاع على طريقة التغطية؟ كيف يستجيب مستهلكو وسائل الإعلام للنزاعات الإعلامية، وكيف يتم الصراع من أجل التغطية الإعلامية؟ إضافة إلى أسئلة أخرى تتعلق بالنزاعات الإعلامية / الإعلامية.

الحروب الجديدة

على الرغم من التطور النظري في مجال البحوث التجريبية المتعلقة بالتوجيه الإعلامي للمجتمعات، فإن البحث عن

الحـروب الجديـدة ووسـائل الإعـلام لا يـزال في خطواتـه الأولى. هـذا ويسـتخدم الكثـيرون مصطلـح الأعلمـة (mediatization) – المصمـم لوصـف التغيـيرات التـي حدثـت في طبيعـة الحـرب – قاصديـن في الواقـع وظائـف مختلفـة للإعـلام أو الطريقـة التـي يديـر بهـا الجيـش وسـائل الإعـلام (media management). هكـذا، عـلى سـبيل المثـال، اسـتخدمت سـارة مالتبـي Sarah Maltby مصطلـح الأعلمـة، لكنهـا في الواقـع وصفـت الطريقة التي يديـر بهـا الجيـش وسـائل الإعـلام لتحقيـق أهدافـه بـين الأفـراد العسـكريين وبيئتهـم الاجتماعيـة المبـاشرة (بشـكل أسـاسي للحفاظ عـلى الـروح المعنويـة العاليـة) وبـين السياسـيين (للحفـاظ عـلى الاسـتقلال المؤسسـاتي والحصـول عـلى مـوارد) وبـين عامـة النـاس (لتعبئـة الشرعيـة للنشـاط العسـكري). ويسـتمر نـشر الكثـير مـن الكتـب والمقـالات سـواء مـن قبـل العسـكريين والصحفيـين أو الباحثـين الإعلاميـين، وهـي تتنـاول موضوعـات مثـيرة في مجـال العلاقـات العسـكرية–الإعلامية وخاصـة الطريقـة التـي يتـم بهـا تغطيـة الحـروب. وهكـذا، عـلى سـبيل المثـال، حظيـت اسـتراتيجية التغطيـة الصحفيـة المدمجة/المُضَمَنـة (Embedded journalism) باهتـمام واسـع النطـاق.

وقـد وصـف رافي مـان[1] جيـدًا التغيـير الـذي حصـل عـلى مـر

(١) رافي مـان **רפי מן** (ولـد عـام ١٩٥٢م): هـو أديـب إسرائيـلي وأسـتاذ مشـارك في مدرسـة الإعـلام بجامعـة أرئيـل، وباحـث في الإعـلام والصحافـة، ومـؤرخ. لـه كتـاب ومقـالات في مجـالات الإعـلام والتاريـخ.

السنين في العلاقة بين الإعلام ومجال الأمن في إسرائيل وحقيقة أنه يلعب اليوم دورا أكثر فاعلية وأهمية في الخطاب الأمني مما كان عليه في الماضي.

كانت هناك مناقشات عديدة في الولايات المتحدة وبريطانيا حول كيفية تمكن وسائل الإعلام من حشد الدعم للحرب ضد العراق التي بدأها الرئيس جورج بوش الابن[1] في عام ٢٠٠٣م. وفي إسرائيل، كان هناك نقاش مستفيض حول سياسة الدعاية وحول الدبلوماسية الجماهيرية أثناء الحروب - وهو النقاش الذي وصفه نحمان شاي[2] جيدًا في كتابه «مِلْحَمِيدْيَا מלחמידיה". لكن معظم الدراسات، حتى تلك التي استخدم محرروها مصطلح الأعلمة، تركت مجالاً لتطوير أعمق بكثير للمفهوم.

يجب على الباحث في الحروب الموجهة إعلاميًا أن يدرس التغيرات العميقة التي أحدثها الإعلام في طبيعة الحرب نفسها، والتحولات التي أحدثها في كل ما يتعلق بأهداف

(١) جورج والكر (دبليو) بوش George W. Bush (ولد عام ١٩٤٦م): أو جورج بوش الابن، هو سياسي ورجل أعمال أمريكي ينتمي إلى الحزب الجمهوري، شغل منصب الرئيس الثالث والأربعين للولايات المتحدة في الفترة بين عامي ٢٠٠١ - ٢٠٠٩م.

(٢) نحمان شاي נחמן שי (ولد عام ١٩٤٦م): إعلامي وسياسي إسرائيلي، يشغل منصب وزير الإعلام والشتات. وهو عضو كنيست سابق ثلاث مرات، كما شغل قبل ذلك مناصب: مدير إذاعة الجيش الإسرائيلي، والمتحدث باسم الجيش الإسرائيلي، ومدير عام الهيئة الثانية للإذاعة والتلفزيون، ومستشار إعلامي، ورئيس شركة الأخبار على القناة الثانية، ورئيس هيئة البث، ومدير عام الاتحادات اليهودية في أمريكا الشمالية UJC. وهو حاصل على درجة الدكتوراه في الإعلام وفي العلوم السياسية.

الحرب وطبيعة العمل العسكري وإدارة الحرب. والأسئلة التي يجب طرحها هي: كيف يؤثر منطق الإعلام على التفكير والممارسة العسكرية؛ وما هو التغيير الجوهري الذي حدث في فن الحرب منذ أن خضعت المؤسسة العسكرية لعملية «الهيتيرونوميا/Heteronomy" (الحكم الغيري)، أي فقدان استقلاليتها مع تغلغل وسائل الإعلام فيها؛ وكيف يؤثر وجود وسائل الإعلام على مسار الحرب؛ وما هو التأثير التفاضلي لمختلف وسائل الإعلام – من التلفزيون، مروراً بالإنترنت وحتى وسائل التواصل الاجتماعي والصحافة المدنية. إن البحث الذي يهدف إلى الإجابة على السؤال الأخير هو فقط في مراحله الأولى، وكتابنا هذا يركز على هذا السؤال.

من هنا يمكن أيضًا استنتاج ما لن يتناوله البحث: المجال الواسع للعلاقات الإعلامية العسكرية، التي تعد أحد المكونات المهمة في العلاقة الشاملة بين الجيش والمجتمع. حيث يرى «ياجيل ليفي»، وهو أحد أهم الباحثين الإسرائيليين في العلاقات العسكرية الاجتماعية، أن المؤسسات الإعلامية هي جزء من منظمات الرقابة غير المؤسساتية على الجيش، وهو محق في ذلك. ففي كتابه «من يسيطر على الجيش؟ بين الرقابة على الجيش والسيطرة على النزعة العسكرية»، يوضح ليفي كيف أن تأثير وسائل الإعلام في مجال الرقابة المدنية على الجيش أصبح أقوى في العصر الحالي. لكنه يسلط الضوء أيضًا على

نقـاط الضعـف الأساسـية لهـذه الرقابـة في إسرائيـل: حقيقـة أنهـا تركـز عـلى الجوانـب الإجرائيـة للمنظمة العسـكرية، وعـلى القضايا الجزئيـة وليـس عـلى القضايـا الكليـة، وعـلى التغطيـة العرضيـة بـدلا مـن تغطيـة وتحليـل العمليـات.

لقـد تـم بالفعـل تشـديد الرقابـة عـلى الجيـش الإسرائيـلي في العقـود الأخـيرة، ولكـن في الميـزان العـام يتبـين أن وسـائل الإعـلام لم تتعامـل مـع القضايـا الأكـثر أهميـة: فهـي تحافـظ عـلى رقابـة ماديـة آليـة بـدلاً مـن الرقابـة الموضوعيـة الجوهريـة. ووفقًـا لتمييـز آخـر – هـي تتعامـل مـع نقـد تأكيـدي وليـس نقـدا صعبـاً. وعـلى حـد تعبـير ليفـي: «نـأت وسـائل الإعـلام بنفسـها عـن التعامـل مـع قضيـة النزعـة العسـكرية، أي مـع القضايـا الأساسـية، المبدئيـة، لهيمنـة التفكـير العسـكري وممارسـة القـوة العسـكرية. هـذا البعـد مـن الرقابـة المدنيـة عـلى الجيـش مـن قبـل الإعـلام يسـتحق دراسـة شـاملة في حـد ذاتهـا، لأنـه تكمـن فيـه نقطـة الضعـف الرئيسـية لوسـائل الإعـلام في علاقاتهـا مـع قطـاع الأمـن في إسرائيـل. وعـلى الرغـم مـن أهميـة هـذه الدراسـة، فهـي خـارج نطـاق البحـث المقـدم هنـا ويتنـاول التحـولات التـي طـرأت عـلى الحـرب بعـد تعزيـز تأثـير وسـائل الإعـلام عليهـا.

التحول البصري ومركزية الصورة «image»

قبل التركيز على مناقشة «الحروب الموجهة إعلاميًا» وتحليل سلسلة الحروب الإعلامية التي شنتها إسرائيل على مدى العقد الذي بدأ في عام ٢٠٠٦م، يجب أن نمر بمعلمين حاسمين سابقين في تاريخ الإعلام: الأول هو التحول البصري الذي حدث مع ظهور التلفزيون بعد الحرب العالمية الثانية، والثاني هو تشكيل نظام الاتصالات الجذرية (الريزوماتية) قبل عقدين من الزمن وتبعه تشكيل المجتمع الجذري (الريزوماتي). وهو النظام الشبكي الذي لم يتم بناؤه بشكل هرمي، ولا يوجد فيه مرسلون ومستقبلون، ويكون فيه التدفق من أي نقطة إلى أي نقطة.

أحدث التلفزيون تغيرات اجتماعية عميقة لا يمكن الاستهانة بها، كما أشار باحثا الإعلام الكلاسيكيين هارولد إينيس[1]

(١) هارولد آدم إينيس Harold Innis (١٨٩٤ - ١٩٥٢م): أستاذ كندي في علم الاقتصاد السياسي في جامعة تورونتو ومؤلف أعمال أساسية عدة في الإعلام ونظرية الاتصال والتاريخ الاقتصادي الكندي. سُميت الكلية التابعة لجامعة تورنتو «إينيس» تيمناً به. على الرغم من صعوبة وكثافة نثره، إلا أن الدارسين يعتبرونه واحدا من أكثر مفكرين كندا أصالة. ولقد ساعد في تطوير فرضية المواد الغذائية والتي تفترض أن ثقافة كندا وتاريخها السياسي والاقتصادي قد تأثروا بصورة حاسمة باستثمار وتصدير مجموعة من السلع الرئيسية مثل الفرو والسمك والخشب والقمح والمعادن المنجمية والوقود الأحفوري.

ومارشال ماكلوهان[1] أهمها هو التحول البصري: حيث أدت الوسيلة الجديدة إلى استبدال ثقافة الكتابة بثقافة جديدة، حجر الزاوية فيها هو الصورة «إميج» (في النص العبري الأصلي، أشار المؤلف إلى أنه يستخدم الكلمة الأجنبية «إميج» لأنها تصف المفهوم بشكل أفضل، حيث إنها تتضمن عدة مفاهيم في نفس الوقت: التشبيه والمظهر والصورة والشكل).

إن الصورة «إميج» التي تظهر على الشاشة ليست مجرد صورة عادية أو فوتوغرافية، ولكنها قنبلة تحتوي على ضوء وصورة وصوت ونص، لا يتلقى المستهلك سوى جزءًا منها. والباقي عليه إكماله بمساعدة خياله. حيث يحتاج المشاهد إلى ملء الفراغ الذي بين الصور «أميجيز»، وبالتالي فهو يشارك بنشاط في عملية المشاهدة. يتم في المجال المرئي إنشاء الصور المهمة في المجتمع، حيث يتم فك رموزها، ويحصلون بها على تفسيرات، وهي التي تشكل النظام الرمزي للمجتمع. فالمجال المرئي هو الساحة التي يتم فيها الصراع على الصور وتفسيرها والتحكم فيها وإنتاجها. ومن هنا يتضح مدى أهمية قوة وسائل الإعلام "The media". والتي هي في الأساس قوة رمزية، لأن الإعلام يقوم بهيكلة الواقع من خلال الرموز

(١) مارشال ماكلوهان Herbert Marshall McLuhan (١٩١١ - ١٩٨٠م): أستاذ وفيلسوف وكاتب كندي أحدثت نظرياته في وسائل الاتصال الجماهيري جدلاً كبيرًا، فهو يرى أن أجهزة الاتصال الإلكترونية - خاصة التلفاز - تُسيطر على حياة الشعوب وتؤثر على أفكارها ومؤسساتها.

(الأشكال، الصور). ولهذا السبب، في حالة الصراع يصبح النضال من أجل التمثيل جزءًا من النزاع نفسه. فالمجال المرئي هو ساحة معركة تكون فيها الصور في نفس الوقت هي الأهداف والوسائل لتحقيق الأهداف.

كيف غيرت وسائل الإعلام المرئية الجديدة من طبيعة المجتمع؟

في «مجرة جوتنبرج»[1]، إذا استخدمنا الصورة الجميلة لمانويل كاستليس[2]، كان لدى الناس دماغ تيبوغرافي وترتيب صوتي ألفبائي. ولذلك فإن طريقة تفكيرهم قد رعت ونمت تحليلا منطقيا، سببيًا، مستمرا. ومن ناحية أخرى، فإن مجرة ماكلوهان - وإن كانت هذه استعارة من كاستليس - قد خلقت ثقافة إلكترونية عالمية، حيث تختلف العملية المعرفية السلوكية للبشر: فبدلاً من التحليل العقلاني للنص المكتوب تأتي أيضًا ردود الفعل العاطفية، مع قدر أكبر من التركيز على المتعة والترفيه، وعلى السلبية أيضًا.

خلقت الوسيلة التلفزيونية مجتمعا جديدًا - المجتمع الجماهيري. وعلى الرغم من أنه بدأ يتشكل مع اختراع

(١) مجرة جوتنبرج «The Gutenberg Galaxy: The Making of Typographic Man»: هو كتاب صدر عام ١٩٦٢م للكاتب مارشال ماكلوهان، حيث يحلل المؤلف آثار وسائل الإعلام، وخاصة الصحافة المطبوعة، على الثقافة الأوروبية والوعي البشري.

(٢) مانويل كاستليس أوليفان Manuel Castells Oliván (ولد عام ١٩٤٢م): عالم اجتماع إسباني مرتبط بشكل خاص بالبحث في مجتمع المعلومات والتواصل والعولمة. في يناير/كانون الثاني عام ٢٠٢٠م، تم تعيينه وزيرًا للجامعات في حكومة سانشيز الثانية بإسبانيا.

الراديو في عشرينيات القرن الماضي، إلا أن تحول التلفزيون إلى الوسيلة المهيمنة أدى إلى تسريع تطوره بشكل كبير. «في هذه الثقافة، تعد وسائل الإعلام السمعية البصرية هي المادة الأساسية لعمليات الاتصال. نحن نعيش في بيئة إعلامية، ومعظم المحفزات الرمزية تأتي من وسائل الإعلام. في هذه الثقافة، تنسب معظم الأشياء، وخاصة الرموز، إلى التلفزيون... التلفزيون يؤطر لغة وسائل التواصل الاجتماعي".

يوفر التلفزيون المادة الخام التي يعالجها الدماغ البشري. وهناك عملية دائرية (تكرارية) هنا: فالإعلام هو التعبير عن ثقافتنا، وهذه الثقافة تعمل مع المواد التي تزودها بها وسائل الإعلام. تؤثر وسائل الإعلام على الإدراك المعرفي والسلوك مثلما تؤثر التجارب الحقيقية على الأحلام. ويؤثر التلفزيون على تصوراتنا للواقع لأننا لا نرى الواقع كما هو، وإنما كما تسمح لنا اللغة بفهمه. ولغتنا هي لغة الإعلام. أما وسائل الإعلام فهي التي تزودنا بالاستعارات، والاستعارات هي التي تخلق الثقافة.

على عكس الصحافة القديمة، التي كانت تعمل لأسباب أيديولوجية، وعلى عكس التلفزيون الحكومي، الذي كانت له أهداف وطنية، فإن التلفزيون الخاص، التجاري، هو صناعة تهدف إلى تحقيق أقصى قدر من الأرباح. وطريقة القيام بذلك هي اللجوء إلى القاسم المشترك الأوسع، الحصول على أكبر قدر

ممكن من عدد المشاهدين، من التقييمات. وبما أن الجمهور يحب الترفيه، فقد أصبح الترفيه الوسيلة الرئيسية لجذب المشاهدين إلى الشاشة، حتى عندما يكون الجانب الترفيهي غير مرتبط بموضوع البث، وحتى عندما يتعلق الأمر بالأخبار الحزينة، الثقيلة، ذات الأهمية المصيرية. فلغة التلفزيون تنسج المعلومات والترفيه معا لتحولها إلى infotainment وتحول السياسة إلى politainment (ترفيه سياسي). ولذلك فإن من لا يعرف منطق الإعلام ولا يتبعه سيجد صعوبة في النجاح في اللعبة السياسية الجديدة.

يعد عنصر الترفيه أساسيًا جدا للتلفزيون، لدرجة أنه يخترق حتى المناطق التي يفترض أنها لم يكن ينبغي أن تتأثر به على الإطلاق، مثل الحرب. وبالفعل، لاحظ باحثو الإعلام والحروب التقارب بين تمثيل الحروب وصناعة الترفيه، لدرجة أنه في وقت مبكر من عام ٢٠٠١م، كتب جيمس دير دريان[١] عن «التركيب العسكري الصناعي الإعلامي الترفيهي»، وأن الخيط الذي يربط بينهم هو الصورة «إميج». لقد فعل ذلك حتى قبل أن تصبح ألعاب الحاسوب (ومعظمها ألعاب حربية) الفرع الأكثر استثمارا في مجال الأعمال في صناعة الترفيه. وقد أوضح جيمس دير دريان أن الحروب الجديدة تدار بالطريقة

(١) جيمس دير دريان James Der Derian: هو مدير مركز دراسات الأمن الدولي في جامعة سيدني، حيث تولى منصبه في يناير/كانون الثاني عام ٢٠١٣م. تتركز اهتماماته البحثية والتدريسية في الأمن الدولي وتكنولوجيا المعلومات والنظرية الدولية والأفلام الوثائقية.

نفسها التي يتم تمثيلها بها، وبالتالي تنهار الحدود بين الحرب نفسها وتمثيلها. كما يؤدي هذا الوضع أيضًا إلى انهيار المسافة التي تفصل المشاهد عن الحرب نفسها.

لا يمكن المبالغة في أهمية التأثير الذي كان للتلفزيون، لأن ما لم يظهر عليه كما لو أنه لم يكن موجودًا. والرسائل المنقولة خارجه تقتصر على الأطر الشخصية فقط وبالتالي ستختفي من الذاكرة الجمعية. ففي المجتمع الجماهيري الذي أنشأته وسائل الإعلام الجماهيرية، يعد الظهور على شاشة التلفزيون أمرا بالغ الأهمية. حيث إنها هي التي تحدد ما سيتم حفره في الذاكرة الجمعية وما سيختفي منها. في هذا المجتمع، يتم تحقيق اختلاف في مقولة ديكارت[1] ما هو موجود، هو فقط ما يُرى على الشاشة...

(١) رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠م): فيلسوف وعالم رياضي وفيزيائي فرنسي، يلقب بـ«أبو الفلسفة الحديثة»، وكثير من الأطروحات الفلسفية الغربية التي جاءت بعده هي انعكاسات لأطروحاته، والتي ما زالت تدرس حتى اليوم، خصوصًا كتاب (تأملات في الفلسفة الأولى-١٦٤١م) الذي ما زال يشكل النص القياسي لمعظم كليات الفلسفة. كما أن لديكارت تأثير واضح في علم الرياضيات، فقد اخترع نظامًا رياضيًا سمي باسمه وهو (نظام الإحداثيات الديكارتية)، الذي شكل النواة الأولى لـ (الهندسة التحليلية)، فكان بذلك من الشخصيات الرئيسية في تاريخ الثورة العلمية.

بين النص والصورة

إن الفرق بين لغة الكتابة ولغة الصور هو من حيث المبدأ. وحتى أولئك الذين ليسوا من أنصار نظرية الحتمية التكنولوجية (التي بموجبها يكون للتغيرات التكنولوجية التأثير الأكبر على طبيعة وطريقة تنظيم وأنماط عمل المجتمع البشري) يجب أن يتفقوا مع تحليل والد الاتصالات الحديثة، مارشال ماكلوهان، والذي وفقًا له فقد أدى انتشار التلفزيون إلى خلق وسائل إعلام من نوع جديد، وسائل الإعلام الجماهيرية. والتي لها سمات هيكلية مميزة: فهي منظومة هرمية تتدفق فيها المعلومات من أعلى إلى أسفل، وهي مركزية، وعالمية، ولها تأثير التجانس: حيث إنها تحول مستخدميها إلى مستهلكي تلفزيون ذوي قاسم مشترك واسع.

كان للانتقال من الصحافة المكتوبة إلى التلفزيون تأثير كبير أيضًا على مهنة الصحافة. حيث أن بيئة العمل الجديدة، التي حلت فيها الصورة والصوت والحركة في الوقت المناسب محل الكلمة المكتوبة، هي أولا وقبل كل شيء بيئة من الصور وليس من الحروف، من القصص وليس من القضايا، من الأشخاص والعواطف والأكشن وليس من التحليل المعرفي. وقد كان تأثير

التغيـير قويـا لدرجـة أن نمـط عمـل الصحفيـين تغـير أيضًـا، وتـم إنشـاء نـوع صحفـي جديـد. فـإلى جانـب النوعـين القديمـين - النمـوذج التقليـدي للصحفـي مسـير الجلسـة facilitator، وهـو الـذي يسـمح بالمناقشـة لكنـه يقـف عـلى الهامـش، ونمـوذج الصحفـي المدافـع (المرافـع) الـذي ينحـاز إلى أحـد الجانبـين - تـم إضافـة نـوع ثالـث هـو الصحفـي المشـارك، الممثـل، والـذي هـو جـزء مـن الحـدث لحظـة وقوعـه. ولذلـك ليـس مـن المسـتغرب أن شـعبية مثـل هـؤلاء الصحفيـين دفعـت عـددًا غـير قليـل منهـم إلى اسـتبدال شاشـة التلفزيـون بالسـاحة البرلمانيـة.

مرحلة جديدة في تاريخ الإعلام الحديث

في عام ٢٠٠٤م بدأت مرحلة أخرى مهمة في تاريخ الإعلام الحديث، مع قفزة إلى الأمام في تطور الإنترنت وتحسين عمليات الرقمنة والتقدم المتسارع في وسائل الإعلام الجديدة، وخاصة منصات التواصل الاجتماعي. هذه التغيرات التكنولوجية خلقت وسائل الإعلام الجذرية (الريزوماتية)، والتي، كما سبق ذكره، تختلف اختلافا جوهريا عن نظام وسائل الإعلام الجماهيرية. فالنظام الشبكي الجديد ليس مبنيا بطريقة هرمية، وإنما هو نظام غير مركزي، لا يوجد فيه مرسلون ومستقبلون، ويكون التدفق فيه من أي نقطة (node) إلى أي نقطة، ولا يمكن التحكم به.

تم تبني هذه الفكرة من ثلاثة بارزين هم عالم الأنثروبولوجيا أرجون أبادوراي[١] والفيلسوف جيل دولوز[٢]

(١) أرجون أبادوراي Arjun Appadurai (ولد عام ١٩٤٩م): عالم أنثروبولوجيا هندي أمريكي معترف به كمنظر رئيسي في دراسات العولمة. يناقش في عمله الأنثروبولوجي أهمية حداثة الدول القومية والعولمة. وهو أستاذ سابق في الأنثروبولوجيا ولغات وحضارات جنوب آسيا في جامعة شيكاغو، وعميد العلوم الإنسانية في جامعة شيكاغو، ومدير مركز المدينة والعولمة في جامعة ييل، وأستاذ دراسات التعليم والتنمية البشرية في جامعة نيويورك شتاينهاردت.

(٢) جيل دولوز Gilles Deleuze (١٩٢٥ - ١٩٩٥م): هو فيلسوف فرنسي كتب في الفلسفة والأدب والأفلام والفنون الجميلة من أوائل الخمسينيات حتى وفاته، وكان أكثر أعماله شعبية مجلدَين عن الرأسمالية والانفصام: مكافحة العقد النفسية عام ١٩٧٢م وألف هضبة

والفيلسوف فيليكس غوتاري[1]، الذين أشاروا إلى الطريقة التي تنتشر فيها الدرنات في عالم النباتات أو النمل في عالم الحيوان: ليس من خلال النمو الرأسي، الهرمي، ولكن من خلال إرسال أذرع وامتدادات وعن طريق إنشاء روابط أفقية جديدة. هكذا، على سبيل المثال، «عندما تنفصل عقدة واحدة (node) عن الشبكة، لا يتم قطع الاتصال تمامًا. بل تطور العقدة اتصالا جديدًا مع مكون نشط آخر في السلسلة، وبالتالي تستمر الشبكة في الوجود». وبصيغة أخرى: «إن قدرة أنظمة وسائل التواصل الاجتماعي على التداوي الذاتي تضعف فاعلية الهجوم عليها. فعندما يتم مهاجمة مثل هذا النظام في مكان ما، فإنه يعيد تشكيل نفسه على الفور ويظهر في مكان آخر".

مثلما أنتج نظام وسائل الإعلام الجماهيرية المجتمع الجماهيري، كذلك أنتج نظام وسائل الإعلام الجذرية

عام ١٩٨٠م، تشارك في كتابة كليهما مع المحلل النفسي فيليكس غوتاري. يعتبر العديد من العلماء أطروحته الميتافيزيقية الفرق والتكرار (١٩٦٨م) أنها من إبداعاته العظيمة. يصنفه الفيلسوف أدريان وليام مور من بين «أعظم الفلاسفة» مستشهدًا بمعايير برنارد ويليامز للمفكر العظيم. رغم أنه وصف نفسه في الماضي بأنه «الميتافيزيقي النقي»، فإن عمله قد أثر على مجموعة متنوعة من التخصصات عبر الفلسفة والفن، بما في ذلك النظرية الأدبية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة.

(١) يوهان غوتنبرغ Johannes Gutenberg (١٣٩٨ – ١٤٦٨م): مخترع ألماني، قام في سنة ١٤٤٧م بتطوير قوالب الحروف التي توضع بجوار بعضها البعض، ثم يوضع فوقها الورق ثم يضغط عليه فتكون المطبوعة. مطوراً بذلك علم الطباعة الذي اخترع قبل ذلك في كوريا في سنة ١٢٣٤م، ويعتبر مخترع الطباعة الحديثة.

(الريزوماتية) الجديد مجتمعا من نوع جديد، المجتمع الجذري (الريزوماتي). وهو مجتمع تعتمد العلاقات بين أعضائه على الإنترنت، وتتأثر طبيعته بالطبيعة الجذرية (الريزوماتية) لهذه الشبكة: فهو متنوع، غير متجانس، لا يمكن التنبؤ به، يتوسع بصورة مستمرة والأهم من ذلك – بصورة لا يمكن السيطرة عليها.

أصبح المفهوم الشبكي شائعا في السنوات الأخيرة في المجال التكنولوجي، وكذلك في المجال العسكري أيضًا. ومثال على نجد مشروعا قائما على النظام الشبكي في الجيش الإسرائيلي هو «جيش بري رقمي (צי"ד)". وهو ليس مجرد مشروع تكنولوجي لدمج جميع منظومات الاتصال العسكرية، ولكنه ثورة في الطريقة التي يتم بها الحفاظ على «القيادة والسيطرة» على قوات الجيش، كما أنه من المحتمل أن تؤثر هذه الثورة في المستقبل أيضًا على طريقة بناء الجيش. هذا ويعد مفهوم ساحة المعركة الجديدة وتطور الحرب السيبرانية في السنوات الأخيرة مثالا مثيرا للاهتمام على كيفية دخول الجيش الإسرائيلي العصر الجذري (الريزوماتي). لكن التغير العميق الذي أحدثه نظام الاتصالات الجديد في بنية وطبيعة التنظيم البشري هو ظاهرة جديدة لا يزال فهمها في مراحله الأولية فقط.

احتلت الصورة «إميج» مكانة مركزية في الثقافة الحديثة منذ المرحلة الأولى من «الأعلمة/التوجيه الإعلامي»، وازدادت

أهميتها مع الانتقال إلى المرحلة الثانية، الجذرية (الريزوماتية)، من هذه العملية. فالمجتمع المعاصر غني بالصور. وهي، كما ذكرنا، تشكل الوعي وتحدد أفكارنا وتبني النظام الرمزي وتؤثر على الطريقة التي نتصرف بها. وقد توسع الانشغال بالصورة «إميج» منذ أن تسبب التلفزيون في التحول البصري وبداية العصر الثاني للثقافة المرئية (بعد العصر الأول للثقافة الشفهية في العصور القديمة وعصر ثقافة الطباعة الذي بدأ مع ثورة غوتنبرغ[1] والإصلاح). ثم توسع هذا الانشغال بالصورة «إميج» أكثر بعد الدخول في المرحلة الجذرية (الريزوماتية). ويكفي أن نذكر، على سبيل المثال، أن معدل نمو استخدام إنستغرام، الذي يتم فيه مشاركة الصور، يتجاوز معدل نمو كل من الشبكات الاجتماعية الأخرى.

(١) ريتشارد رورتي Richard Rorty (١٩٣١ – ٢٠٠٧م): فيلسوف أمريكي. يُعدّ، إلى جانب هيلاري پوتنام، من أبرز مُمثِّلي العملانية. كان له مسار طويل في أقسام التدريس المتنوعة: الآداب، والفلسفة، والأدب المقارن. انتمى في البداية إلى تيار الفلسفة التحليلية، ثم نبذه فيما بعد.

ثقافة الصورة

مفهوم آخر يعبر عن هذه الفكرة هو «التحول التصويري». ويقصد به أيضًا التأكيد على حقيقة أننا نعيش اليوم في عالم من الصور، «عالم لا يوجد فيه شيء خارج الصورة». وبصيغة رنانة أكثر: سواء ركزنا على الاستعارة «مرآة الطبيعة» في فلسفة ريتشارد رورتي[١] أو تطرقنا إلى فكرة المراقبة التي لا يمكن تجنبها لميشال فوكو[٢] أو تأسفنا على المجتمع المشهدي لغي ديبور[٣] فإننا في جميع الحالات نواجه مرارا وتكرارا هيمنة حاسة البصر التي تمثل الحاسة المركزية للعصر الحديث.

---

(١) ميشال فوكو Michel Foucault (١٩٢٦ - ١٩٨٤م): فيلسوف فرنسي، يعتبر من أهم فلاسفة النصف الأخير من القرن العشرين، تأثر بالبنيويين ودرس وحلل تاريخ الجنون في كتابه «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي»، وعالج مواضيع مثل الإجرام والعقوبات والممارسات الاجتماعية في السجون. ابتكر مصطلح «أركيولوجية المعرفة». أرّخ للجنس أيضاً من «حب الغلمان عند اليونان» وصولاً إلى معالجاته الجدلية المعاصرة كما في «تاريخ الجنسانية».

(٢) غي إرنست ديبور Guy Debord (١٩٢٨ - ١٩٩٤م): شاعر وكاتب وسينمائي فرنسي شهير، كان من أشهر كتاب فرنسا الماركسيين ومن المتأثرين بالخصوص بفكر فيورباخ، وترجمت أعماله إلى عشرات اللغات. كما أنه كان من أبرز المعارضين للحرب الفرنسية في الجزائر.

(٣) ريتشارد ميل هاوس نيكسون Richard Nixon (١٩١٣ - ١٩٩٤م): هو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابع والثلاثون (١٩٦٩ - ١٩٧٤م) ونائب الرئيس الأمريكي السادس والثلاثون (١٩٥٣ - ١٩٦١م). اضطر للتنحي من منصبه عام ١٩٧٤م خوفًا من أن توجه إليه تهمة التستر على نشاطات غير قانونية لأعضاء حزبه في فضيحة ووترغيت تحت وطأة تهديد الكونغرس بإدانته.

إن التوضيح التاريخي - والذي أصبح كلاسيكيا - لهذا التحول في المجال السياسي قد تم تقديمه بالفعل في أول مناظرة تلفزيونية (من أصل أربع مناظرات) في عام ١٩٦٠م بين ريتشارد نيكسون[١] وجون كينيدي[٢]. حيث إن كينيدي، صاحب الصورة الآسرة، قد فاز بين المشاهدين. بينما كان نيكسون هو الفائز بين أولئك الذين استمعوا إلى المناظرة عبر الراديو. لكن في العصر الحديث، أصبح عدد المستمعين أقل من عدد المشاهدين. ومنذ المناظرات بين نيكسون وكينيدي، يعرف كل تلميذ في السياسة أن السياسة العامة هي بيع الصور.

سعى باحثون في العلوم الاجتماعية والسلوكية وكذلك في مجال العلوم الطبيعية إلى فهم أسباب أهمية المرئيات في العلوم الحديثة: لماذا الصور مؤثرة للغاية على الفرد والمجتمع اليوم. وقد وجدوا الجواب في دراسات نفسية في مجال المعرفة "Cognition" وفي مجال علم الأعصاب. حيث يكمن التفسير في بداية عصر التنمية البشرية: فالقدرة على البقاء تتطلب تمييزا حادا وسريعا بين العدو والصديق، والمعلومات المرئية

(١) جون فيتزجيرالد «جاك» كينيدي John F. Kennedy (١٩١٧ - ١٩٦٣م): هو سياسي أمريكي تولّى منصب الرئيس الخامس والثلاثين للولايات المتحدة من ٢٠ يناير/كانون الثاني عام ١٩٦١م حتى اغتياله في ٢٢ نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٦٣م. خدم كينيدي كرئيس في ذروة الحرب الباردة، وركز في جُلّ فترة رئاسته على إدارة العلاقات مع الاتحاد السوفيتي.

(٢) جون فيتزجيرالد «جاك» كينيدي John F. Kennedy (١٩١٧ - ١٩٦٣م): هو سياسي أمريكي تولّى منصب الرئيس الخامس والثلاثين للولايات المتحدة من ٢٠ يناير/كانون الثاني عام ١٩٦١م حتى اغتياله في ٢٢ نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٦٣م. خدم كينيدي كرئيس في ذروة الحرب الباردة، وركز في جُلّ فترة رئاسته على إدارة العلاقات مع الاتحاد السوفيتي.

القادمة من العالم الخارجي - لا سيما التغيرات التي تحدث فيه - تتدفق عبر الجهاز العصبي إلى الدماغ بشكل أسرع من أي منبه حسي آخر. وترجع الاستجابة البشرية السريعة للتنبيه البصري، على عكس الاستجابة الأبطأ للتنبيه اللفظي، إلى حقيقة أن الاتصال غير اللفظي قد تطور لدى الإنسان قبل مئات آلاف السنين من تطور قدرته اللفظية.

أحد الاكتشافات الرائعة لعلماء الأعصاب هو أن تنبيه العين يثير استجابة عاطفية (تنشط نظام الدفاع عن النفس) دون المرور في مسار كيميائي-كهربائي عبر منطقة الدماغ التي تحدث فيها العملية المعرفية الإدراكية، أي قبل أن تبدأ المنطقة المسؤولة عن التفكير العقلاني في العمل واستنباط استجابة عقلانية. حيث تتم العملية العصبية لفك رموز المعلومات البصرية بصورة تلقائية وبسرعة أكبر ودون إشراف معرفي. فالتفاعل مع البيئة التي تنشط اعتبارات معرفية يستغرق ثوان، بينما تستمر العملية العقلانية الموازية لدقائق وأكثر.

تظهر الدراسات أيضًا أن الاستجابة في الدماغ لتنبيه وسيط، أي تنبيه تم إنشاؤه بواسطة صورة تلفزيونية، مطابقة للاستجابة لتنبيه يأتي من مصدر خارجي واقعي. ففي كلتا الحالتين، يقوم الدماغ بإعداد الجسم لحالة من التجنب/الاستجابة كما لو كانت الإشارات حقيقية. وتوضح هذه الحقيقة قوة الرسائل التي تأتي من وسائل الإعلام: فهي ليست أقل أهمية مقارنة

بالرسائل التي تأتي من العالم الحقيقي.

سبب آخر لسرعة فك رموز الإشارات الخارجية هو أن الصورة «إميج» أسهل في الفهم. فالمستند أقرب إلى المشار إليه من الكلمة. والاختلاف في طريقة معالجة البشر للصور والكلمات ينبع من حقيقة أن الصور تعرض بشكل قياسي الأشياء والأحداث التي تجري في البيئة المباشرة؛ بينما تعتبر الكلمات، من ناحية أخرى، رموزا مجردة لا تشبه ماديا ما تشير إليه. فصورة مشوشة لنصف وجه قطة تشير إلى قطة أكثر بكثير من الكلمة المكتوبة «قطة». وفي حين أن الكلمة المكتوبة لا تعكس الواقع الذي من المفترض أن تمثله – الكلمة هي علامة اعتباطية واضحة تتطلب تعلما مسبقًا لفهم معناها – فإن الصورة التي يتم عرضها على التلفزيون أو الويب تعتبر هي الواقع الحقيقي وليس الواقع الوسيط.

لا يقتصر الأمر على كون عملية فك رموز الإشارات أسرع، بل إن فهم الصور أسهل أيضًا. فالبشر يتذكرون الصور بشكل أفضل من النصوص، وعندما يكون هناك تباين بين الصورة والنص المكتوب أو المنطوق، فإنهم سيتذكرون الصورة بشكل أفضل. كما أن الدماغ ليس مخلوقا للقراءة، ولأن قراءة اللغة المنطوقة وفهمها يتطلب جهدا معرفيا أكبر من إنتاج معنى من الصورة وتذكرها، فإن فرصة تذكر أخبار شفهية أقل بكثير من فرصة تذكر صورة – خاصة عندما يتعلق الأمر بصورة

درامية. هذا صحيح ليس فقط فيما يتعلق بالصور المتحركة، وإنما أيضًا فيما يتعلق بالصورة الثابتة. ووفقًا لتقدير سوزان سونتاج[1]، فإن صورة واحدة هي في الواقع قابلة للتذكر بشكل أكبر، وذلك لأنها «قطعة محددة من الزمن وليست دفقا. التلفزيون عبارة عن دفق من الصور كل منها تلغي سابقتها، في حين أن كل لقطة ثابتة هي وحدة زمنية منفردة، يمكن للمشاهد إعادة النظر إليها".

لكن هل تعكس الصورة الواقع تمامًا؟ وهل الشعار الذي صاغه الإعلامي الأمريكي فريد برنارد في عام ١٩٢٧م أن «صورة واحدة تساوي ألف كلمة» صحيح؟ (باستخدام هذا الشعار، حاول الترويج لدمج الصور في الإعلانات. وكانت نسخة سابقة من هذا الشعار - صاغها أيضًا فريد برنارد - هي أن «نظرة واحدة تساوي ألف كلمة»). وبلغة أكثر أكاديمية، يتم صياغة السؤال على النحو التالي: هل يمكن أن تكون المعلومات المرئية مصدراً موثوقاً للمعرفة والحقيقة؟ من الواضح اليوم أن الإجابة على هذا السؤال هي بالنفي. «يمكن للصور وغيرها من أشكال الوسائط المرئية أن تشوه الواقع الخارجي أيضًا".

(١) سوزان سونتاج Susan Sontag (١٩٣٣ - ٢٠٠٤م): ناقدة ومخرجة وروائية أمريكية، من أعمالها الروائية «Against Interpretation» عام ١٩٦٦م، و«The benefactor» عام ١٩٦٣م، و«styles of radical will» عام ١٩٦٩م، ومن أفلامها كمخرجة «Brother carl» عام ١٩٧٤م. وصل مجموع إنتاجها الكتابي إلى ١٧ كتابا، ما بين القصص والمسرحيات وروايتين ومجموعة من الأعمال النقدية، والتي ترجمت إلى ٣٢ لغة حول العالم.

إن استخدام العبارة الشائعة «رأيته على التلفزيون» بمعنى «هذا دليل على صدق ادعاءاتي»، ينبع من حقيقة أن عامة الناس ليسوا على دراية بقواعد عمل وسائل الإعلام المرئية – مثل: الانتقائية في اختيار الصور، وتأثير زاوية التصوير أو المسافة بين الكاميرا والشيء الذي يتم تصويره، وتقنيات ضغط الوقت في التحرير، وغيرها من المبادئ – وبالتالي، فهم غير مدركين لتأثير كل ذلك على العرض المرئي.

قدم دانييل ليفي مثالا على ذلك في بحثه العلمي حول طريقة تغطية التلفزيون الإسرائيلي للانتفاضة الأولى (١٩٨٧ – ١٩٩٣م). حيث سعى إلى فحص الادعاء بأن وسائل الإعلام يسارية وأن نشرات «نظرة على الأخبار» منحازة لصالح المتمردين وتشوه سمعة إسرائيل بشكل كبير في جميع أنحاء العالم. فاختار ليفي عينة تمثيلية لإذاعة حوادث وقعت في أراضي ال ٦٧ وقام بتحليل طريقة تقديمها في نشرات الأخبار. وقد كانت النتائج مذهلة. ومن بين الأمور التي درسها ليفي كانت تقنية عمل كل من الصحفيين والمصورين والمحررين. لقد تصرفوا بالفعل كما علموهم وعرضوا في كل حالة موقف كلا الطرفين، الإسرائيلي والفلسطيني على حد سواء.

ولكن كيف فعلوا ذلك؟ كانت زاوية تصوير الإسرائيلي، الذي عادة ما يكون ضابطًا، لكن في بعض الأحيان مدنيين أيضًا، من الأسفل إلى الأعلى. بينما تم تصوير الفلسطيني

الـذي يتـم إجـراء مقابلـة معـه مـن الأعـلى إلى الأسـفل. وكانـت تتـم الإشـارة إلى المتحـدث الإسرائيـلي باسـمه الكامـل ورتبتـه، في حـين كان الفلسـطيني غالبًـا مجهـول الاسـم، أو يتـم تعريفـه بشـكل عـام للغايـة، عـلى سـبيل المثـال مـن خـلال التسـمية التوضيحيـة «فلسـطيني مـن سـكان القريـة». وعـلاوة عـلى ذلـك، تمتعـت الشـخصيات المؤسسـاتية بهويـة عامـة معـترف بهـا، مـا منحهـم القـدرة للتحـدث «باسـم الأمـة». وكان كبـار المتحدثـين الإسرائيليـين غالبًـا شـخصيات مؤسسـاتية، في حـين لم يتـم عـرض موقـف الفلسـطينيين إلا بصـوت المراسـل فقـط أو مـن خـلال مقابـلات في الشـارع مـع أشـخاص لا يتمتعـون بمكانـة عامـة – مـما يضعـف شرعيـة تصريحاتهـم. وهكـذا، ربمـا يكـون قـد تـم التعبـير عـن موقـف الفلسـطينيين، إلا أنـه تـم إضعافـه مقارنـة بالتعبـير عـن موقـف الإسرائيليـين اليهـود.

درس ليفـي سلسـلة طويلـة مـن تقنيـات عمـل المراسـلين، بمـا في ذلـك اسـتخدام النصـوص. وهكـذا، عـلى سـبيل المثـال، كان يتـم وصـف أنشـطة قـوات الأمـن الإسرائيليـة بصيغـة المبنـي للمجهول، بينـما يتـم وصـف أنشـطة الفلسـطينيين بصيغـة المبنـي المعلـوم. وهـذا يعـزز الانطبـاع بـأن الحديـث يـدور عـن عنـف فلسـطيني ينتهـك النظـام العـام والرغبـة الإسرائيليـة في اسـتعادته، دون أن يتلقـى المشـاهد معلومـات عـن سـبب سـلوك الفلسـطينيين. فالدراسـة تظهـر إذا أن المقـالات عـلى مـا يبـدو كانـت متوازنـة،

وبالتأكيد لم تكن متحيزة ضد إسرائيل، لكن الاختلافات في طريقة العرض خلقت مستوى أعلى من المصداقية للمعلومات الصادرة عن إسرائيل. وهكذا عززت تغطية الانتفاضة في الأخبار التلفزيونية الرواية الإسرائيلية بشأن الصراع.

إن التقييم القائل بأن الصورة ليست استنساخا للواقع، أي أنه لا يوجد بالضرورة ارتباط بين الصورة والواقع، قاد بودريار[1]، الذي كثيرًا ما انخرط في تحليل العلاقة بين الدالات الجديدة – الصور المرئية للتلفزيون – ومدلولاتها، إلى إنشاء مفهوم «السيمولاكروم / Simulacrum". حيث قال إنه في المجتمع المعاصر لا يوجد واقع موضوعي على الإطلاق، وكل ما هو موجود هو مجرد تمثيلات. ولذلك، عندما شاهد العالم بأسره في حرب الخليج الأولى على شاشة التلفزيون لقطات شبكة CNN – ليست لقطات للجرحى والقتلى، للدماء والمعاناة الإنسانية، للألم وللموت، ولكن مقاطع فيديو غير إبداعية من كاميرات الصواريخ الدقيقة قبل ثوان من ضربها لأهدافها، والتي بدت وكأنها مأخوذة من ألعاب الحاسوب –

(١) جان بودريار Jean Baudrillard (١٩٢٩ – ٢٠٠٧م): هو فيلسوف فرنسي وعالم اجتماع وعالم اجتماع ثقافي. يُشتهر بتحليلاته المتعلقة بوسائط الاتصال والثقافة المعاصرة والاتصالات التكنولوجية، بالإضافة إلى استنباطه مبادئ مثل المحاكاة والواقع المفرط. كتب بودريار عن مواضيع متنوعة، الاستهلاكية والأدوار الجندرية والاقتصاد والتاريخ الاجتماعي والفن والسياسة الخارجية الغربية والثقافة الشعبية. من أكثر أعماله شهرة نجد الإغراء (١٩٨٧م) وأمريكا (١٩٨٦م) وحرب الخليج لم تحصل (١٩٩١م). غالبًا ما تُربط أعماله بفلسفة ما بعد الحداثة وتحديدًا ما بعد البنيوية.

ادعى بودريار أنها كانت «حربا بلا محاربين» وأعطى كتابه عنوان «حرب الخليج لم تحصل".

جذبت فكرة بودريار الأصلية اهتمام الكثيرين في الوقت الذي كانت فيه المدارس الفكرية ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة تحظى بشعبية كبيرة، على الرغم من أنها، بالطبع، فكرة غير منطقية. ومع ذلك، عبرت عن الأهمية المتزايدة للصورة «إميج» في الحروب الحديثة. الأمر الذي لا جدال فيه اليوم. وهذا، على سبيل المثال، ما أعرب عنه الرئيس السابق لهيئة الأركان المشتركة للولايات المتحدة الأمريكية الأدميرال مايكل مولن[1]، حيث قال: «الصور ومقاطع الفيديو التي يتم تحميلها على الإنترنت، حتى مع العلم بأنها قد يتم عرضها هناك، يمكن أن يكون لها تأثير، بل وغالبا ما تؤثر حقا، على اتخاذ القرارات في مجال الأمن القومي".

ما هو صحيح بالتأكيد هو أن الأعلمة قد أدت إلى تعقيد وطمس الفروق بين الواقع وتمثيل الواقع، بين الحقائق والخيال (facts and fiction)، بين الحقيقة والباطل. فالخيالي، والمتخيل، والزائف يكتسبون أهمية نظرا لكون الصورة «إميج» تتمتع بقدرة إنجازية. حيث إن نشرها في حد ذاته هو بمثابة القيام بعمل وإحداث تغيير ميداني: فهي تخلق صورة للواقع

(١) مايك مولن Mike Mullen (ولد عام ١٩٤٦م): ضابط أمريكي، كان رئيس هيئة الأركان المشتركة الأمريكية السابع عشر، والرئيس الثامن والعشرين للقيادة البحرية الأمريكية.

وبالتالي تعزز السرد الذي يؤدي إلى الفعل.

يمكن لأي شخص يبحث عن أدلة على هذا الادعاء أن يجدها بوفرة في الانتخابات الرئاسية التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠١٦م، والتي لعب فيها تويتر وفيسبوك دورا رئيسيًا: كل ما عليه فعله هو مراقبة الاستخدام المكثف للأكاذيب في هذه الانتخابات عن سبق إصرار وترصد وتأثير العالم الخيالي على سلوك الناخبين. حيث توضح الأدلة التي لا يزال يتم الكشف عنها حول ما حدث في تلك الانتخابات والسلوك الإعلامي للرئيس ترامب في السنة الأولى من ولايته قوة هذا العالم الخيالي الذي ولد مفاهيم جديدة مثل حقائق بديلة (alternative facts) وأخبار كاذبة (fake news) وسياسة تجاوز الحقائق (post facts politics).

يمكن توضيح الفرق بين الحروب القديمة والحروب الجديدة والأهمية المتزايدة للصور في الحروب الإعلامية من خلال فحص صور الأعلام في الحروب. في الماضي، كان رفع العلم بمثابة دليل مرئي على النصر في الميدان المادي: أي تأكيد على أن السيادة على الأراضي التي كان يسيطر عليها العدو انتقلت إلى أيدي الجيش المنتصر. كان هذا، على سبيل المثال، معنى رفع العلم السوفيتي على مبنى الرايخستاغ ببرلين في مايو/أيار عام ١٩٤٥م في نهاية الحرب العالمية الثانية أو رفع «علم الحبر»[1] على

(١) علم الحبر أو العلم المحبرّ **דגל הדיו**: هو علم إسرائيلي مصنوع باليد، رُفع في حرب ٤٨

شـاطئ إيـلات في نهايـة حـرب الاسـتقلال (حـرب فلسـطين ٤٨) عـام ١٩٤٩م. كـما أن اللقطـة الشـهيرة لرفـع العلـم في إيـو جيـما خـلال الحـرب العالميـة الثانيـة كانـت حقـا تمثيليـة (تـم رفعـه وفقًا لتعليـمات المصـور لأن حـدث الرفـع الأصـلي لم يكـن دراميـا بدرجة كافيـة في رأيـه)، لكنهـا عـلى أي حـال عكسـت واقعـا حقيقيًـا.

لم يكـن هـذا مـا حـدث في ٢٩ أكتوبر/تشريـن الأول عـام ١٩٩٤م في موقـع «دلاعـت» التابـع للجيـش الإسرائيـلي في جنـوب لبنـان. حيـث يمكـن للمـرء مـن خـلال الأحـداث هنـاك أن يـرى نذيـر طبيعـة الحـرب القادمـة. هكـذا يصفهـا إلعـاد بوبوفيتـش، قائـلًا: «بعـد أسـبوعين مـن الهـدوء في القطـاع، أطلـق حـزب اللـه نيرانـا كثيفـة عـلى الموقـع.

وتسـببت عـدة صواريـخ م.د أطلقـت عـلى نقطـة المراقبـة بالموقـع في فـرار عنـصر المراقبـة الـذي كان يشـغلها، رغـم أن النقطـة لم يتـم اختراقهـا. ثـم قـام اثنـان مـن مقاتـلي حـزب اللـه بالاقـتراب مـن سـياج الموقـع وتسـلقا السـاتر الـترابي، وألقيـا قنابـل يدويـة داخـل النقطـة المهجـورة وفي خنـادق الاتصـال. وبعـد ذلـك سـحبا علـم حـزب اللـه الأصفـر وزرعـاه في أرض الموقـع وهـما يهتفـان ‹اللـه أكـبر... اللـه أكـبر...›"

"لم يتـم خـوض معركـة في الموقـع، ولم يتـم احتلالـه، بـل وحتـى لم يصـب أي جنـدي إسرائيـلي بـأذى. لم تكـن أهـداف العمليـة

للإشارة إلى الاستيلاء على أم الرشراش حيث بنيت لاحقا مدينة إيلات.

ملموسة على الإطلاق. لقد تم تنفيذها من أجل شخص واحد – مصور شبكة تلفزيون المنار التابعة لحزب الله. وبالفعل، بعد بضعة أيام من العملية، نشرت شبكة المنار شريط فيديو ممنتج مدته ثلاث دقائق يعرض الهجوم والمعركة المزعومة والنصر: علم حزب الله يرفرف فوق موقع ‹دلاعت›، التابع للجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان. تم بث المقطع في جميع أنحاء العالم، وتحدثت وسائل إعلام أجنبية عن ‹كسر الروح القتالية للجيش الإسرائيلي›".

كان هذا على ما يبدو أول هجوم موجه إعلاميًا في الشرق الأوسط، وربما في العالم بأسره. لقد كانت لقطة موقع «دلاعت» المحتل عبارة عن «سيمولاكروم / Simulacrum"، واقع متخيل، صورة لحدث لم يحدث. ثم في السنوات التي تلت ذلك، وحتى انسحاب الجيش الإسرائيلي من جنوب لبنان في عام ٢٠٠٠م، كرر حزب الله هذا التكتيك مرارا وتكرارا. كما نفذت المنظمة أيضًا عمليات حقيقية، غير ملفقة إطلاقا، لكنها قامت بتصميمها أيضًا بحيث تنتج مواد مصورة بشكل جيد. وأصبحت الصور الثابتة ومقاطع الفيديو والأفلام محورية للغاية في الأنشطة العسكرية للمنظمة، لدرجة أنها أملت الاستراتيجية الشاملة والعمليات اليومية. ويمكن تلخيص شعار المنظمة بالكلمات التالية: إن لم تلتقط صورا – فأنت لم تقاتل.

حاول الجيش الإسرائيلي الرد على سلسلة الهجمات الإعلامية

لحـزب اللـه بعمليـة مماثلـة – احتـلال موقـع لحـزب اللـه ورفـع العلـم الإسرائيـلي عليـه. ففـي ٥ أغسـطس/آب عـام ٢٠٠٦م، هاجمـت قـوة تابعـة للجيـش الإسرائيـلي بقيـادة قائـد كتيبـة مـن اللـواء ٣٠٠ موقـع «سـحلب» (عـين قطمـون) في جنـوب لبنـان، الـذي كان تحـت سـيطرة الجيـش الإسرائيـلي في الحـزام الأمنـي قبـل أن يصبـح بعـد الانسـحاب منـه موقعـا لحـزب اللـه. كان هـذا أيضًـا هجومًـا موجهًـا إعلاميًـا. فقـد كان الهـدف مـن العمليـة هـو تصويـر العلـم الإسرائيـلي وهـو يرفـرف عـلى الموقـع، لتقديـم «صـورة انتصـار» للحـرب التـي كان مـن المقـرر أن يطلـق عليهـا اسـم «حـرب لبنـان الثانيـة".

وبالفعـل، في نفـس اليـوم، تـم نـشر مثـل هـذه الصـورة عـلى موقـع المتحـدث باسـم الجيـش الإسرائيـلي عـلى الإنترنـت تحـت عنـوان «رفـع العلـم الإسرائيـلي في موقـع سـحلب». وفي اليـوم التـالي، ٦ أغسـطس/آب، نـشر المتحـدث باسـم الجيـش الإسرائيـلي أيضًـا شريـط فيديـو للحـدث. حيـث يظهـر الفيديـو القـوة وهـي تتسـلق تلـة سـحلب بوضعيـة الانحنـاء بينـما يراقـب قائـد الكتيبة الهـدف. وعـلى التلـة نفسـها، نصـب جنديـان وتـدا في الأرض مـن أجـل العلـم، حيـث انضـم إليهـما قائـد الكتيبـة لإنهـاء العمـل. وأخـيرًا، لـوح قائـد الكتيبـة وجنـوده بفخـر بالعلـم الإسرائيـلي.

لكـن بقيـة مقطـع الفيديـو توضـح إلى أي مـدى كانـت صـورة النـصر واقعـا اسـتباقيا تـم تدبـيره مـن بدايتـه وحتـى النهايـة.

حيث اكتشف بوبوفيتش، الذي درس مذكرات الحملة، مدى اختلاف الواقع عن محاولة التلاعب بالوعي. حيث إنه مباشرة بعد رفع العلم، أمر قائد الكتيبة جنوده بالتراجع والاحتماء، ثم قال: «ممتاز، هيا يا مصور». فاصطف الجنود على سفوح التل وأطلقوا النار باتجاه لبنان ثم انسحبوا إلى ما وراء الخط البنفسجي.

لم يصور الفيديو احتلال موقع سحلب، الذي يبعد حوالي ٢٥٠ مترا عن الحدود الإسرائيلية وعن مقر قيادة الفرقة ٩١ في بيرانيت. فمن احتل الموقع - قبل يومين من تصوير الفيديو - هي سرية من لواء المدرعات ٨٤٧ (مركبات الفولاذ) بالتعاون مع قوات هندسة. حيث سيطروا على الموقع بعد أن دخلوه وخرجوا منه عدة مرات دون قتال يذكر. وبعد يومين، وصل ممثلون عن المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي برفقة قوة من اللواء ٣٠٠ وطلبوا من مقاتلي اللواء ٨٤٧ إخلاء المكان من أجل التصوير.

إن جميع الحروب الإسرائيلية مصحوبة بصور يتم استخدامها لأغراض الدعاية، أو الإعلان، أو الروح المعنوية، أو الحرب النفسية. لكن في كل هذه الحالات، وثقت اللقطات المصورة واقعا ملموسا حدث في ساحة المعركة. هكذا كانت، على سبيل المثال، صورة المظليين متمركزين عند ممر متلا في عملية سيناء (العدوان الثلاثي) عام ١٩٥٦م، أو صورة المظليين

المتأثرين بالقرب من الحائط الغربي في القدس خلال حرب الأيام الستة (نكسة حزيران) عام ١٩٦٧م، أو صورة الضابط الشاب يوسي بن حنان[١] وهو مغمور بملابسه في مياه قناة السويس وبيده كلاشينكوف - غنيمة سوفيتية - خلال حرب الأيام الستة (نكسة حزيران ٦٧)، أو صورة أرئيل (إريك) شارون[٢] مع ضمادة ضخمة على جبهته في حرب يوم الغفران (حرب أكتوبر/تشرين التحريرية)، أو صورة مناحم بيغن[٣] يتكئ على عصا المشي ويتلقى شرحا من وزير الدفاع شارون في أعلى قلعة الشقيف (سؤال: «هل كان معهم رشاشات؟»... جواب: «انتهت المعركة دون خسائر في الجانب الإسرائيلي») خلال حرب لبنان الأولى.

لكن ماذا يحدث عندما يتعلق الأمر بحرب موجهة إعلاميًا؟

---

(١) يوسي بن حنان **יוסי בן חנן** (ولد عام ١٩٤٥م): ضابط إسرائيلي، لواء احتياط في الجيش الإسرائيلي، حاصل على وسام الشجاعة. قضى معظم خدمته العسكرية في سلاح المدرعات.

(٢) أرئيل (إريك) شارون **אריאל (אריק) שרון** (١٩٢٨ - ٢٠١٤م): كان رئيس وزراء إسرائيل، والحكومة الإسرائيلية الثلاثون. ولد في قرية كفار ملال بفلسطين أيام الانتداب البريطاني. كان اسم عائلته الأصلي شاينرمان وكان والداه من اليهود الأشكناز الذين هاجروا من شرقي أوروبا. يعدّ شارون من السياسيين والعسكريين المخضرمين على الساحة الإسرائيلية. ورئيس الوزراء الحادي عشر للحكومة الإسرائيلية.

(٣) مناحم بيغن **מנחם בגין** (١٩١٣ - ١٩٩٢م): كان سياسي إسرائيلي ومؤسس حزب الليكود وسادس رؤساء وزراء إسرائيل. وقبل قيام دولة إسرائيل كان قائد المنظمة العسكرية القومية «إرجون»، ولد في روسيا البيضاء ودرس فيها حتى أنهى المرحلة الثانوية ومن ثمة سافر إلى بولندا في عام ١٩٣٨م حيث التحق بجامعة «وارسو» لدراسة القانون. وتعرف بيغن على العمل الصهيوني من خلال منظمة «بيتار» اليهودية البولندية التي ترأسها في عام ١٩٣٩م. حصل على جائزة نوبل للسلام مناصفة مع الرئيس المصري الراحل أنور السادات.

هنـا، لا يجـب أن تعكـس الصـورة الواقـع عـلى الأرض إطلاقـا؛ يجـب أن تخلـق شـبيها لحـدث قـد وقـع وأن تقـدم تفسـيرات مقنعـة لحقائـق مثـيرة للجـدل، كـما يمكنهـا أيضًـا أن تحـل محـل الواقـع الحقيقـي. وكـما سـيتم التأكيـد لاحقـا، في الفصـل الخـاص بحـرب لبنـان الثانيـة، فقـد حـدث ذلـك عـدة مـرات. لكـن مـن أجـل فهـم أفضـل لأهميـة الصـورة في الحـرب الحديثـة، نحتـاج إلى معرفـة المزيـد عـن طبيعـة هـذه الحـرب.

وسائل الإعلام في الحرب الحديثة

في الثلث الأخير من القرن العشرين، أكد باحثو الحروب والإرهاب على الأهمية المتزايدة للتغطية الإعلامية لتحركات الحرب. حيث تم بث لقطات من ساحات المعارك في حرب فيتنام إلى المنازل في الولايات المتحدة الأمريكية وجعلوا منها ما تم تعريفه لاحقا باسم «الحرب التلفزيونية الأولى». على الرغم من أنه لم يكن هناك في ذلك الوقت بث حي ومباشر يتم إرساله

رقميًا من ساحات المعركة، إلا أن اللقطات التي كانت تصل بعد تصوير الأفلام بيوم واحد قد أزالت الغطاء عن شعارات مؤيدي الحرب وكشفت أهوالها وعززت في نهاية المطاف موقف المعارضين لسياسات الإدارة الأمريكية والجيش وأثرت على قرار الإدارة بإنهائها.

كان الأمر يتعلق بتحديثين اثنين. أولهما، السرعة التي وصل بها التقرير من الجبهة، مقارنة بالحروب السابقة، حيث كان إرسال التقارير يستغرق أياما وأسابيع، وحتى شهورا. ففي ٢٤ ديسمبر/كانون الأول عام ١٨١٤م، تم توقيع معاهدة السلام بين كلا الجانبين في الحرب الأمريكية البريطانية، لكن

القوات استمرت في القتال لمدة شهرين آخرين، حتى وصلت المعلومات حول وقف الحرب إلى الوحدات المقاتلة في ساحات القتال. وحتى في حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦م)، التي كانت أول حرب يتم تقديم تقارير إخبارية عنها، مرت عدة أيام قبل وصول الأحداث في ساحات القتال، والتي قام بتغطيتها المراسلون العسكريون لصحيفة «تايمز» اللندنية، إلى مكتب التحرير في لندن. أما التغيير الثاني الذي حدث في حرب فيتنام فكان نقل مركز الثقل من النص المكتوب إلى الصورة. عندها اخترق التحول البصري عالم الحرب أيضًا. حيث تجاوزت قوة الصورة قوة النص المكتوب.

أدى الجمع بين هذين التحديثين إلى حقيقة أنه في عدد غير قليل من الحالات أثر نشر الصورة على مسار الحرب. حدث هذا، على سبيل المثال، في حرب لبنان الأولى عام ١٩٨٢م، عندما طلب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية رونالد ريغان[١] من رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيغن وقف الحرب. ويتذكر دان مريدور [٢]، الذي كان آنذاك سكرتيرا للحكومة، هذه الحادثة جيدًا:

(١) رونالد ريغان Ronald Reagan (١٩١١ - ٢٠٠٤م): سياسي وممثل أمريكي راحل شغل منصب الرئيس الأربعين للولايات المتحدة في الفترة من ١٩٨١م إلى ١٩٨٩م. وقبل رئاسته كان حاكم ولاية كاليفورنيا الثالث والثلاثين بين عامي ١٩٦٧ - ١٩٧٥م، بعد مسيرة كممثل في هوليوود ورئيس نقابة ممثلي الشاشة.

(٢) دان مريدور דן מרידור (ولد عام ١٩٤٧م): هو سياسي إسرائيلي ووزير. وقد أصبح عضواً في حزب الليكود منذ أواخر التسعينات وهو من مؤسسي حزب المركز. ثم عاد إلى الليكود في أوائل العام ٢٠٠٠م، وعاد إلى الكنيست بعد انتخابات عام ٢٠٠٩م. خدم ميريدور سابقاً في الحكومة نائباً لرئيس الوزراء ووزير الاستخبارات والطاقة الذرية في الحكومة

"ما زلت أتذكر حتى يومنا هذا في أغسطس/آب عام ١٩٨٢م - المكالمة الهاتفية التي أجراها الرئيس ريغان مع رئيس الوزراء بيغن، والتي استمعت إليها (بشكل شرعي) في الغرفة الأخرى (قمت بتدوين النقاط الرئيسية للمحادثة). [على مكتب الرئيس كانت هناك] صورة لطفلة قد بترت يداها بقصف إسرائيلي، وأتذكر التعبيرات القاسية التي استخدمها ريغان، الذي كان صديقا حقيقيًا لإسرائيل، أمام بيغن. لقد استخدام تعبير ‹محرقة›. ثم بعد أن حصل ما حصل، اتضح أنها لم تكن طفلة، بل ولد... وأن اليدين لم تقطعا، وإنما كل شيء على ما يرام... وهو في الواقع أصيب بقذيفة مسلمة وليس مسيحية... لكن في الوقت الحقيقي، أثرت هذه الصورة على السياسة الأمريكية.

لذلك، فإن ما قاله بن غوريون[1] ذات مرة: ‹لا يهم ما يقوله غير اليهود، بل المهم ما يفعله اليهود›، لم يعد صحيحًا اليوم. ففي العصر العالمي الذي نحن فيه جزء من العالم، يتأثر اقتصادنا بالعالم، ويرتبط مستوى معيشتنا وقدرتنا على العمل بالصادرات والواردات - لا وجود لنا بدونها. كما أن ثقافتنا تتأثر بالعالم، وتؤثر وسائل الإعلام العالمية على قادة

الإسرائيلية. في عام ٢٠١٤م، خلف ميريدور آفي بريمور كرئيس للمجلس الإسرائيلي للعلاقات الخارجية، وهو معهد للشؤون الدولية يعمل تحت رعاية المؤتمر اليهودي العالمي.

(١) دافيد بن غوريون דוד בן-גוריון (١٨٨٦ - ١٩٧٣م): كان أول رئيس وزراء ووزير دفاع لإسرائيل.

العالم، وهم يؤثرون علينا".

غير الرئيس الأمريكي بيل كلينتون[1] سياسته بشأن قضية الصراع في الصومال، بعد أن أظهرت شبكات تلفزيونية دولية القوات الصومالية وهي تمثل بجثث مقاتلين أمريكيين قتلوا في معركة مقديشو في أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٩٣م. كما أمر رئيس الوزراء شمعون بيريز بوقف عملية «عناقيد الغضب» في لبنان في أبريل/نيسان عام ١٩٩٦م، عقب الصور التي تم تداولها حول العالم والتي تظهر الأضرار الجسيمة التي ألحقها الجيش الإسرائيلي بالمدنيين وبموظفي الأمم المتحدة في قرية قانا. وأدى الحادث أيضًا إلى صدور قرار من مجلس الأمن الدولي تضمن إدانة صريحة لإسرائيل ومطالبتها بوقف أنشطة الجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان.

عدد غير قليل من الأحداث التي كان يمكن اعتبارها نجاحًا كبيرًا تحولت إلى فشل ذريع لمجرد نشر صورة لما حدث بالفعل في ساحة المعركة. وخير مثال على ذلك، قضية الشاباك عام ١٩٨٤م. حيث قام أربعة فدائيين فلسطينيين باختطاف حافلة تابعة لشركة «إيغد» على الخط ٣٠٠ كانت متوجهة من تل أبيب إلى عسقلان، وطالبوا بالإفراج عن مئات الفدائيين مقابل إطلاق سراح ركابها. وفي نهاية الحدث،

(١) بيل كلينتون Bill Clinton (ولد عام ١٩٤٦م): هو سياسي أمريكي والرئيس الثاني والأربعون للولايات المتحدة خلال الفترة ما بين عامي ١٩٩٣ - ٢٠٠١م، ويعد ثالث أصغر الرؤساء في تاريخ البلاد بعد ثيودور روزفلت وجون كينيدي.

تـم الإعـلان عـن مقتـل فدائيـين اثنـين في عمليـة الإنقـاذ، وإلقـاء القبـض عـلى اثنـين، ولكـن بعـد وقـت قصـير تـم تغيـير الروايـة، وزعـم أن جميـع الفدائيـين الأربعـة قـد قتلـوا في عمليـة الإنقـاذ. غـير أن صـورة تظهـر أحـد الفدائيـين ينـزل مـن الحافلـة وهـو عـلى قيـد الحيـاة كشـفت أن اثنـين مـن الفدائيـين قـد اعتقـلا بالفعـل عـلى قيـد الحيـاة وأن عنـاصر الشـاباك قتلوهـما بنـاء عـلى أوامـر مـن رئيـس الشـاباك أفراهـام شـالوم[1]. وقـد أثـارت هـذه القضيـة ضجـة عامـة وتسـببت باضطـراب كبـير في صفـوف الشـاباك، سـواء بسـبب قتـل الأسرى أو بسـبب ثقافـة الكـذب التـي كشـفت فيـه.

أدى وجـود وسـائل إعـلام مرئيـة قـادرة عـلى البـث عـلى مـدار السـاعة طيلـة أيـام الأسـبوع إلى جعـل النظـام الـدولي والمؤسسـات الدوليـة فاعلـين أكـثر أهميـة في الحرب. وقـد بدأت كلتـا الظاهرتين – سرعـة التبليـغ وزيـادة تأثـير البعـد البـصري عـلى صنـاع القـرار في الحـرب – بالفعـل في الحـروب الوسـيطة. لكـن البعـد البـصري اكتسـب أهميـة أكـبر عندمـا بـدأت الحـروب الجديـدة – الحـروب الموجهـة إعلاميًـا. حـدث هـذا التطـور في نهايـة القـرن المـاضي، عندمـا أدركـت المنظـمات التخريبيـة – غـير الحكوميـة أو شـبه الحكوميـة أو الفرعيـة – أنهـا لـن تكـون قـادرة عـلى التغلـب عـلى التفـوق التكنولوجـي للجيـوش الصناعيـة، فطـورت مذاهـب لإدارة التمـرد وحـروب العصابـات في المناطـق الحضريـة والإرهـاب.

(١) أفراهـام شـالوم بـن دور **אברהם שלום בן-דור** (١٩٢٨ – ٢٠١٤م): رئيـس جهـاز الأمـن العـام (الشـاباك) في الفـترة مـا بـين عامـي ١٩٨٠ – ١٩٨٦م.

إن القاسم المشترك بين جميع هذه الأشكال من النشاط والتنظيم، هو التقييم القائل بأن المتمردين لا يملكون القدرة على التغلب على الجيش المحترف الذي يواجههم، وبالتالي ينبغي عليهم تركيز أنشطتهم على إيذاء الحلقة الأضعف للخصم - المدنيين. حيث يجب أن يكون الهدف هو إحداث معاناة كبيرة للمجتمع الذي يواجه المتمردين والحد من استعداده للتضحية بجنوده وكسر معنوياته. وبعبارة أخرى: انتقل مركز ثقل النشاط الحربي إلى مجال الوعي.

في جميع الحروب، بما في ذلك الحروب الصناعية في الماضي، كان الغرض من الحرب في نهاية المطاف هو الوصول إلى وعي الخصم وجعله يدرك أنه لا جدوى من استمرارها. غير أن وسائل تحقيق هذا الهدف كانت أولا وقبل كل شيء هي الأفعال الحركية، وكانت الطريقة النهائية هي سحق تشكيلات جيش الخصم واحتلال أراضي بلاده. حيث كان من المفترض أن تصل هذه الأفعال الجسدية إلى وعي المجتمع وتؤثر فيه. ونظرًا لأن المتمردين اعتبروا هذه الخيارات ميؤوسا منها في الحرب غير المتكافئة، فقد وجدوا طريقة بديلة: الوصول مباشرة إلى وعي المجتمع الخصم. فقط في المجتمع المعاصر، يمكن الوصول مباشرة إلى وعي المجتمع الخصم - من خلال وسائل الإعلام - والصور التي تقدمها هي أكثر الوسائل فعالية، الذخيرة الأكثر كفاءة لهذا الغرض. ولذلك، فإن جميع جوانب

الحـرب الحديثـة - بمـا في ذلـك تخطيطهـا وأهدافهـا ومسـارها ومنطقهـا العمـلي - يجـب أن تأخـذ في الاعتبـار منطـق وسـائل الإعـلام. وهـذا مـا دفـع الجـنرال مولـن للقـول: «سـاحة المعركـة ليسـت ميدانـا، إنهـا موجـودة داخـل نفـوس البـشر... الحـرب لا تخـاض في سـاحة المعركـة، بـل في رؤوس النـاس». لقـد أصبحـت الحـرب الجديـدة حربـا عـلى الوعـي، حـرب روايـات، حـرب أفكار، حربـا عـلى القلـوب والعقـول. أو عـلى حـد تعبـير السـير لورانـس فريدمـان[1]، فـإن هـذه الحـروب «يتـم حسـمها في البعـد المعـرفي وليـس المـادي".

قـادت المذاهـب التخريبيـة الجديـدة الجيـوش الصناعيـة إلى تطويـر مذاهـب ضـد التمـرد - مكافحـة التمـرد (Counterin-surgency "COIN") ومكافحـة الإرهـاب - ولـكي تكـون هـذه المذاهـب فعالـة، كان عليهـا أن تتبنـى منطـق المذاهـب التخريبية، أي إيجـاد طريقـة للجيـوش للوصـول مبـاشرة إلى وعـي المتمردين - سـواء المقاتلـين أو المجتمـع الـذي يوفـر قاعـدة لهـم. وفي حـين كانـت الطريقـة الوحيـدة للتأثـير عـلى الوعـي في المـاضي هـي الفعـل الحـركي (كانـت الحـرب النفسـية ذات أهميـة ثانويـة)، فإنـه في الحـرب الجديـدة لم يعـد مـن الممكـن الاكتفـاء بذلـك. «إن اسـتخدام القـوة لتحقيـق الهـدف الاسـتراتيجي ليـس كافيـا

(١) السـير لورانـس فريمـان Sir Lawrence Freedman (ولـد عـام ١٩٤٨م): أسـتاذ جامعـي بريطـاني. أسـتاذ فخـري في قسـم الحـرب بكليـة الملـك في لنـدن. وقـد وصـف بأنـه «عميـد الدراسـات الاسـتراتيجية البريطانيـة».

في حد ذاته، وإنما يلزم بذل جهد إضافي في بُعد الوعي قبل العملية وأثناءها وبعدها".

غالبًا ما يتناول الباحثون في مجال الحرب الجديدة ثلاث خصائص رئيسية لها، وعلى الرغم من أنهم يذكرون أيضًا وسائل الإعلام، إلا أنهم نادرًا ما يتناولونها. فالسمة الأولى هي أن الحرب غير متكافئة. وقد عولجت هذه المسألة على أوسع نطاق ممكن. والسمة الثانية للحرب الجديدة هي أنها «حرب ليس لها نهاية»، «مستمرة»، «ذات نهاية مفتوحة». وقد كان الجنرال جون أبي زيد[1] هو الذي قام في عام ٢٠٠٤م، بصفته قائدا للقيادة المركزية في الجيش الأمريكي (CENT-COM)، بإدخال مفهوم «الحرب الطويلة» لأول مرة في قاموس المؤسسة العسكرية السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية. وفي عام ٢٠٠٦م، أدرج الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن هذا المفهوم في خطابه إلى الأمة.

تم ترسيخ هذا المصطلح لأول مرة في نصوص المؤسسة الأمنية الأمريكية عندما ظهر ذلك العام في وثيقة QDR، تقرير وزارة الدفاع الذي يصدر كل أربع سنوات. حيث جاء فيه أن «الأمة الأمريكية أصبحت متورطة فيما سيكون حربًا طويلة – سلسلة من النزاعات المستمرة التي تشمل أحداث عنف

(١) جون أبي زيد John Abizaid (ولد عام ١٩٥١م): هو جنرال متقاعد في جيش الولايات المتحدة، وقائد سابق للقيادة المركزية الأمريكية، وعمل سابقًا كسفير للولايات المتحدة في المملكة العربية السعودية.

مسلح قوية، تتخللها فترات من السلام المتوتر أو النزاعات منخفضة الحدة». وبعد عام من ذلك، في عام ٢٠٠٧م، تحدث رئيس أركان الجيش الأمريكي جورج كيسي[١] عن «صراع طويل الأمد» يخوضه الجيش الأمريكي، كما أن قائد البحرية مايكل مولن، الذي أصبح فيما بعد رئيس هيئة الأركان المشتركة، قال في عام ٢٠٠٧م أن الصراع سيستمر «عقدين على الأقل». وقد قارن آخرون الحرب الجديدة بالحرب الباردة، التي، كما نتذكر، استمرت ما لا يقل عن أربعة عقود.

السمة الثالثة للحرب الجديدة هي الساحة التي تخاض فيها: الوسط المدني. فعلى الرغم من أنه كانت هناك في الماضي أيضًا معارك في مناطق مبنية، إلا أن الحروب الجديدة تخاض بشكل أساسي في المناطق الحضرية. وهذه المرة، ليست الجيوش المحترفة فقط هي من تشارك في القتال. حيث إن العديد من الجيوش هجينة وتضم مدنيين أيضًا، كما يشارك السكان المدنيون أيضًا في المعارك - بدءًا من مقاتلي حرب العصابات والإرهابيين، مرورا بالميليشيات والجنود المتنكرين باللباس المدني (كما كان الحال، على سبيل المثال، في أوكرانيا بعد الغزو الروسي عام ٢٠١٤م أو في الحرب الأهلية في سوريا منذ عام ٢٠١١م) وانتهاء بالمدنيين الذين يرعون المقاتلين

(١) جورج ويليام كيسي جونيور George W. Casey Jr. (ولد عام ١٩٤٨م): هو جنرال متقاعد من جيش الولايات المتحدة شغل منصب الرئيس السادس والثلاثون لأركان الجيش الأمريكي من ١٠ أبريل/نيسان عام ٢٠٠٧م إلى ١١ أبريل/نيسان عام ٢٠١١م.

أو يشاركون في الحرب الدائرة على منصات وسائل التواصل الاجتماعي. كما أن حقيقة أن الكثير من المقاتلين في هذه الحروب يخفون وجوههم - وهي ظاهرة لم تكن مألوفة في الحروب السابقة - تدل على مدى المشاركة الكبيرة للمدنيين فيها.

يثير القتال في الوسط المدني معضلات كثيرة لم تكن معروفة في الحروب الماضية. وهذا، على سبيل المثال، ما كتب عن هذه المعضلات في سياق الجيش الإسرائيلي: «في العقود الأخيرة، خضع عمل الجيش الإسرائيلي لمطالب متزايد من قبل البيئة الخارجية له - المجتمع الإسرائيلي والرأي العام الدولي - للعمل عسكريًا مع الامتثال لمبدأين أساسيين: فمن ناحية، يواجه القادة ‹معضلة الثمن› - الخوف من تعرض القوات للأذى. حيث إن سقوط عدد كبير من الضحايا من شأنه أن يقلل من شرعية الجيش للقتال بسبب مطالبة المجتمع بتقليل الخسائر البشرية. ومن ناحية أخرى، هناك ‹معضلة الكفاءة القتالية›. حيث يُنظر إلى الانشغال بالمدنيين في خضم مرحلة الهجوم على أنه من شأنه أن يلحق ضررا بالغا بالقدرة الهجومية. وفي الوقت نفسه، يُتوقع من القادة احترام حقوق الإنسان، أحيانًا حتى على حساب تعريض القوات للخطر، مع بقاء سيف النظام القانوني الدولي مسلطا على رؤوسهم طوال الوقت».

ربما ذكر بعض الباحثين الذين تناولوا كلًا من هذه الخصائص الثلاثة للحرب الجديدة بالفعل البعد الإعلامي لها،

لكـن معالجتـه قـد تأخـرت، سـواء في الوقـت أو في العمـق، بعـد تنـاول الأبعـاد الأخـرى. حيـث يوضـح الفحـص الدقيـق، على سـبيل المثـال للسـمة الثالثـة، «الحـرب بـين النـاس»، الثقـل الحاسـم الذي يتمتـع بـه المكـون الإعلامـي في الحـرب الجديـدة.

عـلى النقيـض مـن الحـروب الصناعيـة، فـإن التكتيـك الهجومـي للمتمردييـن هـو ضرب الجبهـة الداخليـة المدنيـة. وهـذه هـي نقطـة ضعـف المجتمـع الـذي يرسـل الجيـش المنظـم لمواجهتهـم. أمـا التكتيـك الدفاعـي للمتمردين فهـو الاندمـاج بـين مواطنيهـم. وهدفهـم ليـس هزيمـة الجيـش الـذي يواجههـم، بـل إلحـاق الأذى بـه وبالمجتمـع المـدني الـذي يرسـله وتقويـض معنوياتـه وإفقـاده الرغبـة في مواصلـة الحـرب. وفي المقابـل، يحـاول الجيـش أن يثقـل كاهـل حيـاة المدنيـين الذيـن أمامـه حتـى يتوقفـوا عـن دعـم مقاتليهـم. هـذا هـو سـبب الأهميـة الكبـيرة لحـرب الوعـي وسـط الجمهـور المـدني، «الحـرب عـلى القلـوب والعقـول» الخاصـة بهـم.

يتـم تنفيـذ حـرب الوعـي مـن خـلال أفعـال حركيـة مبـاشرة، مثـل القصـف، أو مـن خـلال أسـاليب «الحـرب ذات التأثـيرات الموجهـة»، أي مـن خـلال عمـل حـركي مصمـم لإحـداث ضرر يتجـاوز الـضرر المبـاشر (كـما حـدث، عـلى سـبيل المثـال، في عمليـة «عناقيـد الغضـب» التـي نفذتهـا إسرائيـل في لبنان في أبريل/نيسـان عـام ١٩٩٦م، حيـث كان هدفهـا إرسـال موجـات مـن اللاجئـين مـن جنـوب لبنـان نحـو الشـمال، لـكي يمارسـوا ضغوطـا عـلى الحكومـة

اللبنانية). غير أن أبرز ما يميز الحروب الجديدة بشكل خاص هو استخدام وسائل الإعلام للقتال على سرد القصة، على التفسير.

في الحرب الموجهة إعلاميًا، تتغير العلاقة بين الوسائل العسكرية البحتة والوسائل المدنية المستخدمة. وعلى حد تعبير ديفيد جالولا «في الحرب التقليدية، يعد العمل العسكري، المدعوم بالضغط الدبلوماسي والدعائي والاقتصادي، هو السبيل الرئيسي لتحقيق الهدف... أما في الحرب الثورية، فالصورة مختلفة... يبقى العمل السياسي هو العمل الرائد طوال مسار الحرب... وعلى الرغم من كونه ضروريا، إلا أن العمل العسكري ثانوي بالنسبة للعمل السياسي». وديفيد جالولا هو ضابط يهودي فرنسي (١٩١٩ - ١٩٦٧م) أثرت كتبه بشكل كبير على مؤلفي نظرية القتال الأمريكية في مجال حرب مكافحة التمرد.

في الحرب في الوسط المدني، والتي تسمى أيضًا «الحرب بين الناس war among people"، يزداد تأثير المدنيين على طريقة إدارة الحرب. ففي الماضي، عندما كانت ساحة المعركة بعيدة ومغلقة، كان من الصعب عليهم القيام بذلك، ولكن عندما تدور الحرب على الجبهة المدنية، يصبح الأمر سهلا أكثر. حيث يكون وصول المدنيين إلى القادة والجنود أسرع وأكثر مباشرة وأسهل. كما أن هناك أيضًا تقارب قوي بين المدنيين والعسكريين، وهو قوي بشكل خاص في الجيش الذي يقوم

على جنود الاحتياط الذين يخرجون من داخل المجتمع المدني ويعودون إليه. وحتى أثناء خدمتهم العسكرية، يتمتع جنود الاحتياط بعلاقات وثيقة مع المجتمع المدني - وهي علاقات أقوى بكثير من علاقات الأفراد العسكريين المحترفين (العاملين/الدائمين) مع المجتمع المدني. وينطبق نفس الشيء على المتمردين: فهم يعيشون وسط المجتمع المدني ويندمجون فيه.

في حرب لبنان الثانية، كسر الهاتف الخلوي الحدود المبهمة التي توجد عادة بين القوات المقاتلة في ساحة المعركة والمدنيين في الجبهة الداخلية. حيث لم يكتف المدنيون (وخاصة من أفراد الجيش السابقين والضباط المتقاعدين وضباط الاحتياط) بمجرد إبداء الرأي، بل حاولوا التدخل في إدارة الحرب من خلال مناشدات مباشرة للقادة. وكان أفراد عائلات المقاتلين على اتصال بهم خلال المعارك، كما شارك المدنيون في الحرب التي دارت على الإنترنت. لم ينضم إلى النظام الجذري (الريزوماتي) الإسرائيليون فحسب، بل انضم أيضًا اليهود في الخارج الذين أرادوا مساعدة إسرائيل في نضالها في ساحة وسائل التواصل الاجتماعي. كما كسر الهاتف الخلوي أيضًا الهيكل الهرمي التقليدي للجيش: حيث كان بإمكان العديد من المقاتلين الاتصال بأي جهة دون المرور عبر سلم القيادة التقليدي الإلزامي. وهكذا تم إلغاء احتكار القادة بصفتهم «المعلقين على الواقع» بالنسبة للجنود.

يمكن أيضًا ملاحظة الزيادة في أهمية المدنيين في الحروب الجديدة من خلال تطوير أنماط عمل جديدة في الجيش. حيث يولي الجيش الإسرائيلي أهمية كبيرة للمجتمع المدني في إسرائيل ولذلك يكثر من مراقبة مزاجه العمومي، أكثر مما كان عليه الحال في الماضي، من خلال استطلاعات الرأي العام التي يجريها قسم العلوم السلوكية. ونظرا لأن الحروب الجديدة طويلة الأمل، يدرك الجيش أن قدرة المجتمع المدني على الصمود تكتسب أهمية متزايدة. ومع زيادة ثقل العنصر المدني، تزداد نزعة القيادة العسكرية إلى تطوير مفهوم مفاده أن لها الحق، بل ويجب عليها، أن تعمل داخل المجتمع المدني لكي تكون مستعدة لحرب طويلة الأمد. وفي الماضي، لم تكن هذه مهمة شرعية للجيش.

بالإضافة إلى ذلك، قامت الاستخبارات، التي كانت سابقًا تراقب صناع القرار في العواصم العربية، بتوسيع مجالها البحثي، وبدأت في أعقاب الاضطرابات الاجتماعية والسياسية في الشرق الأوسط (التي اندلعت في أواخر عام ٢٠١٠م) في مراقبة وتحليل الرأي العام والمجتمعات في هذه البلدان. ويشمل «توسيع ساحة المعركة» بشكل أساسي مراقبة الشبكات الاجتماعية في العالم العربي، أي الاستخبارات الاجتماعية (وتسمى أيضًا رسم خرائط التضاريس البشرية – human terrain mapping) وعلى حد تعبير رئيس هيئة الاستخبارات

«أمان» أفيف كوخافي[1]: «الصوت العام هو عامل له وزن في صنع قرار الحكام». كما ينعكس تعزيز البعد المدني للحرب أيضًا في حقيقة أن الاستخبارات العسكرية كان عليها أن تضطلع بأدوار إضافية كانت قد تجنبتها سابقًا، مثل الدعاية وإقناع المسؤولين الدوليين.

وأخيرًا، تم في العصر الحديث إضافة منصب مهم جديد إلى القيادة – ضباط لشؤون السكان. حيث بدأ شغل هذا المنصب في عام ٢٠١١م، عندما تعمق الإدراك بأن الاهتمام بالسكان المحليين أثناء الحرب هو عنصر مهم في إضفاء الشرعية على عمليات الجيش. كما أن سبب آخر لإنشاء هذا المنصب، وهو الخوف من الاضطرار إلى التعامل مع العديد من القضايا القانونية التي تنشأ أثناء القتال في المناطق المدنية. ولهذا السبب، تقرر عدم الاكتفاء بالهيكلية القائمة للإدارة المدنية ومنسق أعمال الحكومة في المناطق، بل تقرر إلحاق «ضباط لشؤون السكان» أيضًا بالمستويات المنخفضة نسبيًا للقوات المقاتلة – الألوية، والكتائب أيضًا. وتتمثل وظيفة هؤلاء الضباط في مساعدة القادة في جميع العمليات المتعلقة بالقتال في الوسط المدني، بما في ذلك إدارة التواصل مع السكان المحليين، ولفت انتباههم إلى المشاكل الإنسانية

(١) أفيف كوخافي **אביב כוכבי** (ولد عام ١٩٦٤م): هو رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي اعتبارًا من ١٥ يناير/كانون الثاني عام ٢٠١٩م. وحتى وقت قريب كان رئيسًا للقيادة الشمالية للجيش الإسرائيلي، وعمل رئيسًا لشعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية «أمان».

التـي تتطلـب اسـتجابة فوريـة، وكذلـك الاهتـمام بالبنـى التحتيـة المدنيــة الهامــة.

بالإضافــة إلى كل ذلــك، توضــح الحــرب القانونيــة أيضًــا مــدى اتسـاع الجانـب المـدني للحـروب الجديـدة. حيـث أن جميـع هـذه السـمات الخاصـة بالحـرب في المجـال المـدني ترتبـط ارتباطـا وثيقـا بنظـام وسـائل الإعـلام، تعتمـد وتتوقـف عليـه. وقـد توسـعت أكـثر مـع التطـور السريـع والمسـتمر والمتنـوع لوسـائل التواصـل الاجتماعــي بأنواعهــا. غــير أن التأثــير الرئيــسي لوســائل الإعــلام عــلى الحــروب الجديــدة ينبــع مــن المبــادئ الأساســية للحــرب الاجتماعيـة. فالسـبب الرئيـسي لمركزيـة وسـائل الإعـلام في الحـروب الجديــدة هــو مفهومهــا الأســاسي.

الإعلام في المقاومة والمواجهة المحدودة

لطالما حظي الاستخدام المتطور لوسائل الإعلام من قبل «القاعدة»، والذي زاد لدى «داعش»، باهتمام كبير سواء بين أولئك المنخرطين في الحرب على الإرهاب أو بين الأكاديميين والباحثين والخبراء. فهو استخدام شامل ومتعدد الأبعاد يستفيد من جميع القدرات التكنولوجية للإنترنت بالإضافة إلى الإمكانيات المتنوعة التي توفرها وسائل التواصل الاجتماعي، كما أنه يحظى بصدى في وسائل الإعلام الأكثر تقليدية.

حققت «داعش» القفزة التكنولوجية والإعلامية الأكثر تقدمًا بين المنظمات التخريبية في العالم. حيث أنشأ التنظيم بنية تحتية منظمة بشكل جيد على الشبكات الاجتماعية، تشمل: تطوير التطبيقات، ونشر أدلة مختلفة من خلال موقع Justpaste. it، وتوزيع رسائل صوتية عبر موقع SoundCloud، ومشاركة صور على إنستغرام وسناب شات، وتوزيع مقاطع فيديو على واتساب، وتحميل أغاني دينية (أناشيد) على يوتيوب.

على الرغم من محاولات الدول والمؤسسات الإعلامية وشركات الإنترنت لمكافحة هذه الظاهرة، فقد نجح تنظيم «داعش» – من خلال استخدام أدوات تكنولوجية متقدمة – في

تجاوز الحواجز والبقاء طوال الوقت متصلا بالوعي الإعلامي ووسائل التواصل الاجتماعي. «وبذلك، فهو يتقدم بسنوات ضوئية على المنظمات الإرهابية الأخرى، التي لم تتعلم بعد تسويق وتوزيع المحتوى بطريقة فيروسية واسعة النطاق، والتي تفتقر إلى الموارد العديدة التي كانت تحت تصرفه".

عرف تنظيم «داعش» كيف يستفيد من وسائل الإعلام الحديثة لتحقيق سلسلة طويلة من الأهداف: التنشئة الاجتماعية الدينية والسياسية بين المسلمين، وتجنيد المقاتلين في صفوفه من دول الجوار وكذلك من البلدان البعيدة بما في ذلك الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية وبلدان الشرق الأقصى، والحفاظ على الاتصال الداخلي بين أعضائه، وجمع المعلومات الاستخباراتية، وتنفيذ العمليات الإرهابية بما في ذلك الإرهاب السيبراني، وإعطاء توجيهات العمل للخلايا والنشطاء التابعين له، وتحريض الأفراد وتشجيعهم على تنفيذ هجمات إرهابية عفوية وغير منظمة (إلهام «الذئاب المنفردة»)، والحرب النفسية.

عمل تنظيم «داعش» في عدة أبعاد - بدءًا من التوجه إلى المواطنين الذين يعيشون في المناطق التي تسيطر عليها الدولة الإسلامية لقمع المعارضين وإحباط التجسس الداخلي وردع التخريب، وانتهاء بـ «قصف» الشبكات الاجتماعية بمقاطع فيديو ومنشورات تهدف إلى الإضرار بالروح المعنوية لخصومه

وتقويض روحهم القتالية. وقد كانت مقاطع الفيديو هذه، وعلى رأسها طقوس قطع الرؤوس المنمقة والمنظمة بدقة، هي التي وضعت هذه الحركة في مركز الاهتمام العالمي في السنوات الأخيرة. ولذلك، فليس من المستغرب أن تحتاج القيادة الأمنية العليا للولايات المتحدة الأمريكية إلى التعاون الكامل من وادي السيليكون في كاليفورنيا لبلورة نظام مضاد.

لا ينبغي لأعمال «داعش» أن تجعلنا ننسى حقيقة أن استخدام وسائل الإعلام قد بدأ بالفعل في الحركات السلفية الجهادية الأولى، على الرغم من أن المكون الإعلامي لأنشطتها كان صغيرا نسبيًا ثم تطور بشكل خاص في الجيل الحالي. يتعلق الأمر بتنظيمات وحركات ليست كتلة واحدة، وتشمل منظمات غير حكومية (مثل الجهاد الإسلامي الفلسطيني) ومنظمات شبه حكومية (مثل حزب الله) وحتى دول (إيران هي المثال الأبرز على ذلك).

إن فكرة المقاومة هي أيضًا متنوعة وغير متجانسة: فالمنظمات المختلفة لها مصالح وأهداف استراتيجية مختلفة، ولكنها تشترك في مبدأ تقويض النظام القائم ومحاربة الأجانب، وخاصة أولئك الذين يوصفون بأنهم أعداء الإسلام، والعمل الجاد لتغيير وجه المجتمع العربي الإسلامي المحلي والسعي للحد من تأثير الثقافة الغربية من أجل أن تضع مكانها بديلًا سياسيًا وثقافيا قائما على الشريعة.

إذا كان الهدف الرئيسي في نظر بعض هذه الحركات (مثل القاعدة) هو الولايات المتحدة الأمريكية، «الشيطان الأكبر»، فإن الهدف الرئيسي في نظر الآخرين (مثل حماس وحزب الله) هو إسرائيل، «الشيطان الأصغر». في كلتا الحالتين، كان من الواضح لمفكري فكرة المقاومة أن هذه علاقة قوة غير متوازنة، وبالتالي لا بد من تغيير مفهوم الحرب ضد العدو تغييرا جذريا. وفي هذا الأمر، يتداخل البعد الإعلامي: فقد سمحت التغييرات في طبيعة وسائل الإعلام والمجتمع المعاصرين للمتمردين بتطوير الحرب الموجهة إعلاميًا.

كانت الطريقة التي سعى بها المتمردون إلى تحقيق هدفهم ضد إسرائيل هي تغيير طبيعة الحرب: من تصادم مباشر بين كيانين متحاربين إلى صراع مستمر بين مجتمعين اثنين – صراع يتم فيه تطبيق عقيدة هجومية ضد الجبهة الداخلية المدنية وعقيدة دفاعية ضد الجيش الإسرائيلي. حيث تشمل الأولى الهجمات الإرهابية والاعتماد على الأسلحة ذات المسار المنحدر (عالية المسار high-trajectory weapons) واستخدام الحيز تحت الأرض. بل إن منظمات المقاومة قد تبنت أيضًا «قنبلة الفقراء النووية» – الإرهاب الانتحاري. حيث استخدم حزب الله ذلك لأول مرة في أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٨٣م ضد جنود المارينز والقوات الفرنسية في بيروت.

بعد حوالي عقد من الزمن، تبنى عناصر حماس هذه

التقنيـة لإفشـال محادثـات السـلام بـين إسرائيـل والفلسـطينيين (عمليـة أوسـلو). وقـد تجـاوز الهـدف مـن الهجـمات الانتحاريـة مجـرد زرع المـوت والدمـار، حيـث كانـت تهـدف إلى زعزعـة المجتمـع الإسرائيـلي وصدمـه، وتقويـض معنوياتـه، ودفـع المواطنين إلى الفـرار، وفقـدان الثقـة في القيـادة، واليـأس مـن الانتصـار في القتـال ضـد المنظمـة المتمـردة، وكـما ذكرنـا، إحبـاط محاولـة تحقيـق انفـراج في محادثـات السـلام.

تهـدف العقيـدة الدفاعيـة إلى سـحب قـوات الجيـش للدخـول إلى عمـق الأراضي المدنيـة التـي ينشـط فيهـا الإرهابيـون، حيـث سـيقومون بنصـب الكمائـن لهـم، ويسـفكون دماءهـم بمـرور الوقـت وفقًـا لتقاليـد حـركات حـرب العصابـات الكلاسـيكية، بـل ويمكنهـم أيضًـا الاسـتعانة بالمدنيـين وتحويلهـم إلى دروع بشريـة. غـير أن منظـمات المقاومـة الجديـدة أوجـدت أيضًـا ابتـكارا ثوريـا يقـع في قلـب التحليـل هنـا: فعـلى عكـس حـركات حـرب العصابـات الكلاسـيكية، هـم يريـدون في الواقـع أن يلحـق الجيـش الأذى بالمدنيـين مـن المجتمـع الـذي يدعـون القتـال باسـمه. والدافـع وراء ذلـك يكمـن في منطـق الحـرب الموجهـة إعلاميًـا. حيـث إن إيـذاء المدنيـين يخلـق صـورا، ولقطـات صادمـة، ثـم يتـم توزيـع هـذه الصـور في أرجـاء العـالم، فتسـتحضر شـفقته، وتظهـر وحشـية العـدو، وتعطـي المتمردين نقاطـا مهمـة في معركـة الشرعيـة الدوليـة، وتفعـل النظـام القانـوني الـدولي ضـد الجيـش

النظامي والدولة التي تديره إن مظهر الأطفال المصابين هو الأكثر فاعلية. ولذلك قامت جميع منظمات المقاومة، بما في ذلك حزب الله وحماس، بتحويل الأطفال إلى دروع بشرية لمقاتليهم المندمجين مع المدنيين. فهم يفعلون ذلك ليس فقط لحماية المقاتلين، وإنما أيضًا لخلق «ذخيرة إعلامية» ضد إسرائيل التي تلحق الأذى - عمدا، حسب زعمهم - بالمدنيين الضعفاء. ونظرًا لأن المنظمات ليست حريصة على احترام القانون الدولي - على عكس الجيوش النظامية للدول الديمقراطية، التي تلتزم بمراعاة قواعد القانون الدولي المصممة لمنع إلحاق الأذى بالسكان المدنيين - فيمكنها أن تأكل الكعكة وتتركها سليمة في آن واحد: بينما يلحقون الضرر عمدا بالسكان المدنيين لخصومهم، فإنهم يستغلون الضرر - العرضي في كثير من الأحيان - الذي يلحق بمواطنيهم لتحقيق الانتصار في كلتا الساحتين الجديدتين للحرب الجديدة: الساحة الإعلامية والساحة القانونية. حيث يخوضون في هذه الأخيرة حربا قانونية (lawfare) للإضرار بشرعية الجيش النظامي.

في التقاليد الغربية، وخاصة تلك الديمقراطية الليبرالية، إن وضع المدنيين في مواجهة العدو يعتبر في المقام الاول طريقة غير أخلاقية لخوض الحرب. ولكن منظمات المقاومة تخرج ضد هذا النظام المعياري الليبرالي الغربي بالتحديد، وهي تفعل ذلك من خلال استغلال ساخر لأحد مبادئ منطق وسائل

الإعـلام – ميلهـا للتعبـير عـن دعمهـا للضعيـف والمسـتضعف، وخاصـة الضحيـة.

يختلـف هـذا الاتجـاه، الـذي أطلـق عليـه عـالم الاجتـماع الفرنـسي لـوك بولتانسـكي[1] اسـم «سياسـة الرحمـة»، اختلافـا جوهريـا عـن سياسـة العدالـة: فهـو لا يبحـث في مصـدر الظلـم الـذي حـدث، مـا هـي أسـبابه، ولكنـه يركـز فقـط عـلى سـؤال واحـد: مـن يعـاني أكـثر. حيـث إن الكاميـرا – التلفزيـون سـابقًا، والآن جميـع المواقـع المرئيـة – تحـب عـرض صـور الفـوضى، والضحايـا، والضعـف والدمـار، والمعانـاة والألم، وهـي تسـتخدم اسـتراتيجيات بصريـة لإثـارة ردود فعـل عاطفيـة.

لهـذا السـبب، فـإن الجانـب في الـصراع الـذي ينجـح في تقديـم صـور أكـثر للمعانـاة والبـؤس هـو الـذي يفـوز بدعـم الكاميـرا. حيـث إنهـا لم تعـد تغطـي الأحـداث فقـط، بـل أصبحـت تصـدر أحكامـا. فهـي التـي تحـدد مـن هـو عـلى حـق ومـن المذنـب، وتجعـل مـن أولئـك الذيـن يعانـون أصحـاب الحـق. إن فهـم منطـق وسـائل الإعـلام هـذا، هـو مـا دفـع منظـمات المقاومـة إلى تبنـي عقيـدة لعـب دور الضحيـة.

إن الـرد الهجومـي والدفاعـي الـذي أوجدتـه منظـمات المقاومـة

(١) لـوك بولتانسـكي Luc Boltanski (ولـد عـام ١٩٤٠م): عـالم اجتـماع فرنـسي، وأسـتاذ في مدرسـة الدراسـات العليـا في العلـوم الاجتماعيـة بباريـس، ومؤسـس مجموعـة علـم الاجتـماع السـياسي والأخلاقـي، يعـرف بالشـخصية الرائـدة في المدرسـة «البراغماتيـة» الجديـدة لعلـم الاجتـماع الفرنـسي.

عـلى خصمهـا الدولـة وجيشـها القـوي كان فعـالا للغايـة. حيـث إنـه يؤثـر أولا وقبـل كل شيء عـلى المواطنـين الذيـن يميلـون إلى التعـب مـن العيـش في حـرب لا نهايـة لهـا، كـما أنـه يضـع قيـودا صعبـة عـلى قـوات الجيـش في البلـد الـذي يـئن بهـم: فمـن ناحيـة، هـم يسـتنزفون دمـاء مقاتـلي مجتمـع طـور ثقافـة مـا بعـد البطوليـة "Post-heroic culture" وفـرط حساسـية تجـاه حيـاة الجنـود؛ ومـن ناحيـة أخـرى، فإنهـم يدفعـون الجيـش لا محالـة إلى ضرب المدنيـين العـزل بشـكل مفـرط، ولا سـيما الضعفـاء مثـل كبـار السـن والنسـاء والأطفـال. وهـم بذلـك يثـيرون شـفقة العـالم وغضبـه ويسـتغلون هـذه الشـفقة لتشـويه صـورة الدولـة الخصـم وتقييـد أيـدي جيشـها. وعـلى وجـه الخصـوص، فـإن الـدول الصغـيرة مثـل إسرائيـل تتـضرر مـن هـذا النـوع مـن الحـرب لأنهـا تعتمـد اعتـمادا تامـا عـلى النوايـا الحسـنة للـدول الأخـرى. وفي نهايـة المطـاف، يجـب أن نتذكـر أن معظـم حـروب إسرائيـل في المـاضي لم تنتـه في سـاحة المعركـة، بـل بقـرارات دبلوماسـية للأمـم المتحـدة فرضـت تحـت ضغـط القـوى العظمـى.

كـما هـو الحال لـدى منظـمات المقاومـة، ازداد الاهتمام بمسـألة الوعـي في التفكـير العسـكري المؤسسـاتي أيضًـا، وقـد تكـرر المفهـوم في جميـع وثائـق «المواجهـة المحـدودة» – وهـو الـرد الـذي صاغـه الجيـش الإسرائيـلي ضـد المقاومـة الفلسـطينية العنيفـة. فمنـذ أن بـدأت الصياغـة الأوليـة لهـذه الوثائـق في الجيـش الإسرائيـلي، في

بداية القرن الحادي والعشرين، وحتى صياغتها الكاملة في عام ٢٠٠٦م، ظهرت في كل منها الفرضية الأساسية للمقاومة: الصراع هو في أساسه صراع بين المجتمعات المدنية؛ وسيستمر لفترة طويلة؛ وسيتم تحديد نتائجه أولا وقبل كل شيء على مستوى الوعي. لقد كان الانشغال بتأثير وسائل الإعلام على الوعي كبيرًا جدا، لدرجة أنه من بين أولئك الذين تناولوا الموضوع كان هناك من رآه عاملا مكافئا في الثقل للفعل الحركي. بدأ ذلك بوثيقة «المواجهة المحدودة» التي وزعتها هيئة العمليات – قسم العقيدة والإعداد والتدريب في عام ٢٠٠١م وتم التعبير عنه على نطاق أوسع في الكتاب الذي يحمل نفس الاسم – «المواجهة المحدودة» – وصدر عن دار معرخوت عام ٢٠٠٤م.

جاء في مقدمة الكتاب: «المواجهة المحدودة تطرح تحديات جديدة، أولا وقبل كل شيء في مجال الإدراك والوعي وأقل من ذلك في المجال المادي». وقد ورد في إحدى الوثائق الصادرة عن دائرة أبحاث الوعي في الجيش الإسرائيلي، والتي نشرت بعد ذلك بثلاث سنوات، ما يلي: «في العقود الأخيرة، أخذ يتعمق الإدراك لدى الجيوش الغربية – ومن بينها الجيش الإسرائيلي – بأن النجاح العسكري أو النصر العسكري لن يكونا مهمين ولهما تأثير واسع إلا إذا تم الاعتراف بهما على هذا النحو في تصورات ومواقف مختلف الأطراف، ذات الصلة بالحملة، على سبيل المثال في وسائل الإعلام بالداخل وفي النظام الخصم،

وبين صانعي الرأي العام، وغيرهم".

ورد هناك أيضًا أنه في المواجهات الجديدة «ازدادت مكانة الجانب المعرفي، وأخذ يتحول تدريجيًا من جهد ثانوي إضافي لعمليات مناورة القوة إلى جهد مركزي... في الواقع، يمكن للمرء بالفعل أن يجد في التفكير العسكري التقليدي إشارة غير مباشرة إلى الوسيط المعرفي... لكن في أغلب الأحيان لم يقف الوسط المعرفي بمفرده كمنطقة قتال مركزية، وكان يهدف في المقام الأول إلى مساعدة الوسط القتالي الرئيسي، الذي كان قائما على تحرك القوات واحتلال الأراضي".

أوضح ساعر رافيه[1]، الذي كان رئيس فرع في مركز عمليات الوعي «ملأت» التابع لهيئة الاستخبارات «أمان»، الأسباب التي أدت إلى تطوير هذا التفكير. حيث تقبل الجيش الإسرائيلي التصور القائل بأن «إسرائيل فشلت حتى الآن في مساعيها للتأثير على درجة الشرعية التي تتمتع بها التنظيمات الإرهابية والمقاومة بين السكان الفلسطينيين. فهذه الشرعية كبيرة جدًا، لدرجة أن السكان يدعمون الإرهاب على الرغم من أنه يكلفهم ثمنا باهظا. وقد أدرك كبار مسؤولي الجيش الإسرائيلي أنه بعد انتهاء فك الارتباط، فإن العمل في مخطط طريق المناوشات المستمرة مع الفصائل الفلسطينية سيؤدي

(١) ساعر رافيه **סער רווה** (ولد عام ١٩٦٥م): مقدم احتياط في الجيش الإسرائيلي، خدم لسنوات عديدة كقائد ومستشار تنظيمي في قسم العلوم السلوكية بالجيش الإسرائيلي وفي هيئات أمنية أخرى.

إلى تقويض قوة الردع لدى الجيش الإسرائيلي والإضرار بشكل كبير في الشعور بالأمن وبالصمود لدى مواطني مستوطنات النقب الغربي. كما أن عدم الرغبة في تنفيذ هجوم بري واسع النطاق في قطاع غزة جعل لأول مرة من الحملة العسكرية، التي تعطى فيها الأولوية لعمليات الوعي، الإطار المفضل لإدارة المواجهة العسكرية مع الفلسطينيين".

هكذا تمت صياغة هذا المفهوم في الجيش الإسرائيلي: بما أن الأطراف المشاركة في الصراع تنظر إلى نتائج الحملة في ساحة المعركة الحركية وتفسرها بشكل مختلف، فإن «هذا الواقع يحول ساحة الوعي إلى ساحة يتم فيها تحديد نتائج الحملة العسكرية، وحتى نتائج الصراع برمته. ووفقًا لطريقة تفكير ما بعد الحداثة... فإن الواقع الاجتماعي ليس حقيقة موضوعية واحدة ومطلقة، لكنه يخضع لعمليات تصميم وتفسير متواصلة من قبل أطراف مختلفة في المجتمع. أي أن هدف كل طرف من الأطراف المشاركة في النزاع هو التسبب في اعتبار تفسيره للواقع هو الحقيقة الوحيدة الموجودة والطريقة التي ينبغي بها فهم الواقع وتفسيره». وقد قام رئيس قسم البحوث في هيئة الاستخبارات (أمان) في تلك الأيام، العميد يوسي كوبرفاسر[1]، بتعريف ذلك على النحو التالي: «تحتاج

(١) يوسف (يوسي) كوبرفاسر יוסף (יוסי) קופרוואסר (ولد عام ١٩٥٣م): شغل منصب رئيس قسم البحوث في هيئة الاستخبارات «أمان»، برتبة عميد، ومنصب مدير عام وزارة الشؤون الاستراتيجية.

الحـرب إلى تفسـير وترسـيخ جوهرهـا وتبريرهـا في عـالم لا توجـد فيـه حقائـق مطلقـة".

في وثيقــة «المواجهــة المحــدودة»، تــم التعبــير عــن هــذه الفكـرة في أكـثر أشـكالها تطرفـا: «يتـم تحقيـق الحسـم ليـس مـن خـلال صدمـة نظاميـة في سـاحة المعركـة، وإنمـا مـن خـلال ثـورة معرفيـة في المجتمـع» (التشـديد مـن النـص الأصـلي). وكيـف يمكـن الانتصـار في المعركـة عـلى الوعـي؟ الوثيقـة التأسيسـية لنظريـة المواجهـة المحـدودة تحـدد ذلـك بوضـوح: «أولا وقبـل كل شيء مـن خـلال الاتصـال الجماهـيري. حيـث يجـب أن ينظـر إليـه عـلى أنـه مثـل السـبطانة التـي تطلـق «الرصـاص» النفـسي. كـما أن الاتصـال الجماهـيري يسـمح بخلـق احتـكاك معـرفي مسـتمر مـع كامـل نطـاق الجماهـير المسـتهدفة ذات الصلـة بالـصراع. فالكلمـة أو الصـورة لهـا تأثـير سيء، وأحيانًـا تأثيرهـا أكـبر مـن الرصاصـة المعدنيـة".

كان موشـيه (بوغـي) يعلـون[1]، الـذي أثـر أكـثر مـن أي ضابـط آخـر في الجيـش الإسرائيـلي في صياغـة وتبنـي مفهـوم المواجهـة المحـدودة، قـد أعلـن في وقـت مبكـر مـن عـام ٢٠٠٢م أن: «الحملة ضـد الإرهـاب بشـكل عـام والمواجهـة اليوميـة مـع الإرهاب بشـكل

(١) موشـيه (بوغـي) يعلـون **משה (בוגי) יעלון** (ولـد عـام ١٩٥٠م): سـياسي إسرائيـلي، وزيـر الدفـاع الأسـبق في الحكومـة الإسرائيليـة، وعضـو في المجلـس الـوزاري المصغـر للشـؤون السياسـية والأمنيـة، وعضـو كنيسـت مـن كتلـة «حـزب الليكـود». شـغل في السـابق منصـب نائـب رئيـس الحكومة، ووزيرا للشـؤون الاسـتراتيجية، وكذلك رئيس هيئة الأركان العامة ال ١٧ للجيش الإسرائيلي.

خاص هما في الأساس حرب على الوعي». لذلك، أوضح أنه «إلى جانب الحرب العملية ضد الإرهاب، من الضروري أيضًا أن نطبع في وعي مرتكبي الإرهاب ووعي البيئة التي تدعمهم ثمن استخدام الإرهاب وحقيقة أنه من المستحيل التسبب في انكسار المجتمع الإسرائيلي وتحقيق مكاسب سياسية باستخدام الإرهاب. ولا يمكن القيام ذلك إلا من خلال إظهار التصميم وقدرة الصمود في جميع مستويات الدولة والمجتمع".

إن تشكيل الوعي مهم جدًا، لكن الحاجة إلى الشرعية لا تقل أهمية. وعلى حد تعبير الرئيس السابق لهيئة التخطيط وبناء القوة متعددة الأذرع، اللواء احتياط غيورا آيلاند[1]: «إن إحدى أهم الأدوات في أي مواجهة عسكرية هي الشرعية العامة، والأكثر أهمية منها هي الشرعية الدولية. حيث إن تأثير هذا العامل على حرية العمل والقدرة على إطاره أمد العمل واستنفاد الوسائل المتاحة لك، هو تأثير هائل. والشرعية تتأثر بصورة الواقع أكثر من تأثرها بالواقع نفسه، أما صورة الواقع فتنتجها وسائل الإعلام بشكل رئيسي والتلفزيون بشكل خاص".

إن الحاجة إلى حشد الموارد من أجل الشرعية في الحروب الجديدة أكبر منها في الحروب الصناعية. فبالنسبة للمتمردين،

(١) غيورا آيلاند **גיורא איילנד** (ولد عام ١٩٥٢م): هو ضابط أمن إسرائيلي، خدم في الجيش الإسرائيلي برتبة لواء كرئيس لهيئة العمليات ورئيس لهيئة التخطيط. شغل منصب رئيس مجلس الأمن القومي في الفترة بين عامي ٢٠٠٤ - ٢٠٠٦م. وعمل لاحقا كباحث في معهد دراسات الأمن القومي.

الشرعية مطلوبة بسبب الثمن الشخصي الباهظ الذي يتعين على السكان المدنيين دفعه - على مدى أجيال؛ أما بالنسبة للمجتمعات التي ترسل جيوشها، فهي مطلوبة لأن معظم الحروب الجديدة هي حروب اختيار. وبعيدًا عن إسرائيل، تتكون جميع الجيوش النظامية تقريبًا من متطوعين، لذا فإن التجنيد فيها يتطلب دافعا أعلى مقارنة بالجيوش التي تعتمد على الخدمة الإلزامية. وفي مثل هذه الحروب، يجب على الحكومة والجيش بذل جهد لإقناع عامة الناس بأن الحرب ضرورية وعادلة.

تنعكس عملية أعلمة الحروب الجديدة في حقيقة أن الاهتمام قد تحول أكثر فأكثر إلى العمليات الإعلامية، لأن بدونها لا يمكن تحقيق الهدف النهائي لأي حرب: وهو التأثير على الوعي - أولا وقبل كل شيء الخاص بالعدو، ولكن أيضًا الخاص بالمجتمع الذي يرسل الجيش إلى المعركة وبالرأي العام الدولي وبالمؤسسات الدولية التي لها أيضًا تأثير على مسار الحرب ونهايتها.

غير أن الأعلمة لم تحدث فقط في الحروب غير متكافئة، وإنما أيضًا في تصميم الحروب الصناعية، وتعزز الإدراك بأنه يجب أن يتم تشغيل أوركسترا فيها: فإلى جانب العمل الحركي، هناك حاجة أيضًا إلى إجراءات إعلامية، وجميعها يجب أن تؤثر معا على الوعي. يرتبط هذا المفهوم بتطوير فكرة عمليات التأثير.

وقد أدى المفهوم الجديد إلى تصور جديد حظي باهتمام كبير في وسائل الإعلام الشعبية بالإضافة إلى تطوير مفهوم وأدوات عمل جديدة.

في إطار التصور الجديد، بدأ العسكريون والباحثون في الحديث عن مصطلحات إدارة الوعي وعمليات الوعي بدلا من المصطلحات التقليدية للنصر والحسم. وبالإضافة إلى ذلك، بدأ على نطاق واسع استخدام تعبيرات مثل «عمليات التأثيرات»، «صورة النصر»، «حرق الوعي»، «تنشيط الرافعات»، «الأثر التراكمي»، «العمليات القائمة على التأثيرات" (Effects-based operations وباختصار EBO) والتي قد يكون تأثيرها «تغيير معرفي والنيل من نوايا العدو على حساب مدى الضرر الذي يلحق بقدراته العسكرية".

يدور الحديث عن عمليات وعي تهدف إلى «التأثير على تصور الواقع ليس فقط لدى أولئك المشاركين في المواجهة العنيفة، بل أيضًا لدى القادة وأجزاء من المجتمع بحيث يقوموا بتغيير تصور، أو تقييم، أو موقف أو قرار». وتحقيقا لهذه الغاية، تم إنشاء «ساحات وعي» وأقسام جديدة في هيئة الأركان العامة وفي الأذرع تهدف إلى تطوير المعرفة ورسم الخطوط العريضة لاستراتيجية تفعيل القوة. وقد لخص شاي شبتاي[1] وليئور ريشف هذه القضية، بالقول: «في حين أن

(١) شاي شبتاي **שי שבתאי**: عقيد احتياط في الجيش الإسرائيلي ومستشار استراتيجي

المناورة والنار يشكلان الواقع، فإن جهد الوعي يخلق صورة الواقع ويؤثر على الفجوة بين الواقع وتصور الواقع".

تم توفير مزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع من خلال كتيب «الوعي وعمليات الوعي» الذي تم نشره في ديسمبر/ كانون الأول عام ٢٠١٣م من قبل قسم العقيدة والتدريب التابع لهيئة العمليات كجزء من إصدارات «النظرية الأساسية الانضباطية». حيث ورد فيه أن: «جهد الوعي هو جهد عسكري مصمم ليكون له تأثير واسع النطاق - أولا وقبل كل شيء على الأعداء والخصوم، وعلى الشركاء والزملاء، وكذلك على الجماهير الإسرائيلية المستهدفة». وتابع: «إن العمليات في إطار جهد الوعي العسكري يتم توجيهها وتنفيذها بطريقة شبكية وغير متسلسلة... والسبب في ذلك يكمن في الطبيعة الشبكية للجماهير المستهدفة وأدوات تأثير المجال والمساحات المجردة التي يتشكل فيها الوعي... يقوم جهد الوعي العسكري بتنفيذ عمليات وعي من مختلف المجالات مثل المتحدثين الرسميين والحرب النفسية والخداع وحرب الحاسوب، بالإضافة إلى العمليات الحركية المختلفة. وتختلف هذه العمليات عن بعضها البعض في درجة التوقيع والموثوقية طويلة الأجل وتقنيات القتال، لكنها متشابهة في الغرض منها ونطاق تأثيرها - نطاق الوعي. وفي الوقت نفسه، يستفيد جهد الوعي أيضًا

في شركة «كونفيداس». خبير ومحاضر ولديه خبرة عملية لأكثر من عشرين سنة في قضايا الشرق الأوسط والاستراتيجية الأمنية لإسرائيل والتخطيط الاستراتيجي والجيش.

مـن نتائـج الجهـود الأخـرى ذات الصلـة، مثـل جهـود النـار أو المنـاورة".

يمكـن تعلـم مـدى مركزيـة قضيـة الوعـي في الحـروب الجديـدة مـن الصـين. ففـي عـام ٢٠٠٣م، تنـاول مؤتمـر الحـزب الشـيوعي هـذه القضيـة وتبنـى عقيـدة أمنيـة جديـدة أطلـق عليهـا اسـم «نهـج الحـرب الثلاثيـة». وفقًـا لهـذا النهـج، سـينتصر في الحـرب مـن يسـتخدم بشـكل صحيـح البيـادق الثلاثـة للحـرب الجديـدة: أولا، الحـرب النفسـية التـي تهـدف إلى التأثـير عـلى عمليـة صنـع القـرار لـدى قيـادة الخصـم وإثـارة الجمهـور ضـد قيادتـه وإضعـاف رغبتـه في القتـال؛ وثانيـا، الحـرب الإعلاميـة التـي تهـدف إلى التأثـير بعيـد المـدى عـلى تصـورات ومواقـف الخصـم؛ وثالثـا، الحـرب القانونيـة التـي تهـدف إلى الاسـتفادة مـن النظـام القانـوني لتحقيـق الأهـداف المرجـوة.

مفارقة القوة في الحروب الموجهة إعلاميًا

هل جميع الحروب الجديدة هي حروب وعي يكون العامل الحاسم فيها هو الثقل الإعلامي؟ يعتقد البعض أنه في الصراعات غير المتكافئة، يكون ثقل الجانب المعرفي كبيرًا للغاية، لدرجة أنه «يتحول تدريجيًا من جهد إضافي وثانوي لنشاط مناورة القوة إلى جهد مركزي".

كيف يتم تبرير الادعاء بأن جميع الحروب في هذه الأيام هي حروب موجهة إعلاميًا - أولا وقبل كل شيء لأنه ليس في جميع الحروب تصل وسائل الإعلام إلى ساحة المعركة. وقد استنتج أيالون [١] وبوبوفيتش ويارحي[٢] أنه كلما ازداد عدم تكافؤ الصراع، زادت حصة المكون الإعلامي فيه مقارنة بالمكون الحركي. وقد وصفوا أنواع الحروب كما هو موضح في الشكل

---

(١) عميحاي (عامي) أيالون **עמיחי (עמי) אילון** (ولد عام ١٩٤٥م): هو سياسي إسرائيلي وعضو سابق في الكنيست عن حزب العمل وكان سابقا رئيس الشين بيت (جهاز الاستخبارات الإسرائيلية) والقائد العام للقوات المسلحة من القوات البحرية وجاء في المركز الثاني لإيهود باراك في انتخابات زعامة حزب العمل في يونيو/حزيران عام ٢٠٠٧م وعين وزيرا بلا حقيبة في سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠٧م وهو واحد من المستفيدين من أعلى وسام في إسرائيل وسام الشجاعة.

(٢) موران يارحي **מורן ירחי** (ولدت عام ١٩٨٠م): هي رئيسة تخصص الوعي والتأثير الرقمي في كلية الاتصالات، ورئيسة برنامج الدبلوماسية العامة، ومحاضرة كبيرة في كلية الاتصالات، وزميلة أولى في معهد أبا إيبان للدبلوماسية الدولية، وباحثة أولى في معهد مكافحة الإرهاب بجامعة رايخمان.

١ أدناه، باستخدام مصفوفة تتضمن محورين: محور يشير إلى درجة تكافؤ الحرب ومحور يشير إلى درجة التغطية الإعلامية لها. حيث يصف هذان المحوران من الناحية النظرية أربعة أنواع من الحروب.

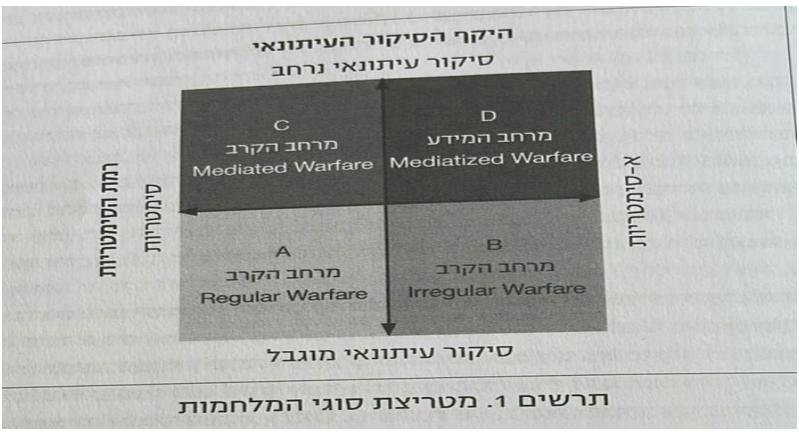

תרשים 1. מטריצת סוגי המלחמות

على المحور الأول، الأفقي، يتم وضع الحروب وفقًا لدرجة تكافئها أو عدم تكافئها. فالأدبيات البحثية التي تتناول هذه القضية واسعة النطاق وتتضمن مؤشرات متنوعة يمكن على أساسها وضع حروب مختلفة على هذا المحور. وتشمل هذه المؤشرات، من بين أمور أخرى، «عوامل تكافؤ قاسية»، مثل الفجوة بين القدرات التكنولوجية لأطراف الصراع، و «عوامل تكافؤ ناعمة»، مثل الاختلافات بين الأنظمة الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية لمختلف أطراف الصراع. وهناك العديد من المؤشرات الأخرى مثل الموقف من الضحايا (عامل تكافؤ «ناعم»)، ودور الكيانات المتصارعة في النظام الدولي

– أولا وقبل كل شيء إذا ما كان الأمر يتعلق بكيانات تابعة للدولة أو كيانات متفرعة عن الدولة أو غير تابعة للدولة (عامل تكافؤ «قاس»)، والخصائص الفيزيائية مثل الجغرافيا والديموغرافيا (عوامل تكافؤ «قاسية»)، فضلا عن الخصائص الإدراكية، مثل الطريقة التي ينظر بها الأطراف إلى الصراع (عامل تكافؤ «ناعم»).

على المحور الرأسي، يتم وضع الحروب المختلفة وفقًا لدرجة التغطية الإعلامية لها. حيث تتأثر التغطية بالعديد من العوامل، بما في ذلك العوامل الجيوسياسية (درجة إمكانية الوصول إلى منطقة المعارك) ودرجة الاهتمام بالصراع (التي يتم تحديدها، من بين أمور أخرى، من الاعتبارات الاقتصادية ووفقًا لدرجة الاهتمام التي يبديها الرأي العام).

بمساعدة هذين المحورين، أنشأ أيالون وبوبوفيتش ويارحي مصفوفة من أربعة أنواع من الحروب. أما المبدأ الأساسي فهو على النحو التالي: كلما ارتفع مستوى عدم التكافؤ بين الأطراف المتصارعة وحظي الصراع بتغطية أوسع، كلما زادت صعوبة تحقيق أحد الأطراف لأهدافه السياسية من خلال الوسائل العسكرية الحركية لوحدها. فالنوع الأول من الحروب المعاصرة، النموذج A، يتميز بدرجة عالية من التكافؤ بين الأطراف وبدرجة تغطية متدنية. هذه هي الحروب النظامية (Regu-lar Warfare)، التي جرت في الماضي في ميادين القتال "Battle-

fields"، ويتم خوضها اليوم في ساحة المعركة "Battlespace". وقد كانت كلا الحربين العالميتين الكبيرتين من هذا النوع.

عندما تنخفض درجة التكافؤ، فإن الجهات الفاعلة غير الحكومية تسعى جاهدة إلى الاستفادة من الميزة التي يوفرها عدم التكافؤ وتختار الحرب غير النظامية (Irregular War-fare). فالنموذج B يعتبر مناسبًا للحالة التي لا يوجد فيها تكافؤ بين الأطراف، لكن تكون درجة التغطية الصحفية منخفضة نسبيًا. في مثل هذه الحالة، سوف يتبنى الجانب الأضعف عقيدة الحرب التخريبية، وسيرد الجيش بعقيدة مكافحة التمرد (COIN). هكذا كانت، على سبيل المثال، معركة مقديشو عام ١٩٩٣م وعملية أناكوندا في أفغانستان عام ٢٠٠٢م ومعركة الفلوجة في العراق عام ٢٠٠٤م وعملية سرفال (Serval) في مالي عام ٢٠١٣م.

تتميز الصراعات من النوع C بالتكافؤ بين اللاعبين وبمستوى عالٍ من التغطية. ومع ذلك، فإن التكافؤ لا يعني التساوي في القوات. حيث مرت الجيوش الحديثة بثورة في الشؤون العسكرية (RMA) تقوم، من بين أمور أخرى، على التزود بالأسلحة الموجهة الدقيقة وحرب المعلومات وتسخير الفضاء والمناورة الحاسمة. ومن الأمثلة الواضحة على الحرب المتكافئة، حرب الخليج الأولى (عام ١٩٩١م) التي قامت فيها جيوش نظامية بمحاربة بعضها البعض. ومع ذلك، فقد تمتع

أحد الأطراف في هذه الحرب بالتفوق المطلق في ساحة المعركة وانتصر بسهولة على الطرف الآخر من خلال الاستخدام الصحيح لمكوناتها الأربعة، بما في ذلك مكون المعلومات والإدارة الإعلامية الذكية.

في الصراعات من النوع D، يوجد مستوى عالٍ من عدم التكافؤ إلى جانب مستوى عالٍ من المشاركة الإعلامية، إلى حد أعلمة الحرب. فالنصر في مثل هذا النوع من الحروب يتحقق إلى حد كبير في فضاء المعلومات ومن خلال حرب الصور، وهو ما أطلق عليه ناثان روجرز اسم image warfare في كتابه المذكور سابقًا، وعرفه أيالون وبوبوفيتش ويارحي بأنه image-fare. وقد كانت حروب النوعD، على سبيل المثال، حروب إسرائيل منذ عام ١٩٩٦م وحروب الولايات المتحدة الأمريكية منذ بداية القرن الحادي والعشرين. لذلك، ليس من المستغرب أن البحث الأكاديمي للباحثين في الإعلام والحرب حول طبيعة الحروب الجديدة قد تطور بشكل كبير في هذين البلدين على وجه التحديد. وعلى الرغم من ذلك، لم يترسخ بعد في إسرائيل الاعتراف بطبيعة هذه الحروب الجديدة، وكما يسعى البحث الموصوف هنا إلى إثباته، فإن نموذج الحرب الوسيطة لا يزال يهيمن عليها.

كانت حرب يوم الغفران (حرب أكتوبر/تشرين التحريرية) في أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٧٣م هي الحرب الصناعية الأخيرة

لإسرائيل (في عام ٢٠١٥م، تسرح اللواء غيرشون هاكوهين[١] من الجيش، وقد كان آخر عضو في هيئة الأركان العامة ممن قاتلوا في تلك الحرب). وجميع أعضاء هيئة الأركان العامة اليوم لم يحاربوا إلا في حروب جديدة، مما يجعل الجيش الإسرائيلي بشكل خاص جديرًا بإجراء بحث متعمق حول هذا الموضوع – أكثر بكثير من الجيوش الأخرى، بما في ذلك الجيش الأمريكي.

منذ أن بدأت الحروب الجديدة بعد حرب يوم الغفران (حرب أكتوبر/تشرين التحريرية)، لم يحقق الجيش الإسرائيلي حسما عسكريًا كاملًا ولو مرة واحدة. «لا في حرب لبنان الأولى ولا في حرب لبنان الثانية ولا في العمليات الثلاثة في الحزام الأمني (‹قانون ونظام› و ‹تصفية الحساب› و ‹عناقيد الغضب›) ولا في العمليات الثلاثة في قطاع غزة (‹الرصاص المصبوب› و ‹عامود السحاب› و ‹الجرف الصامد›). والدليل على ذلك هو أن الرأي العام منقسم حول إذا ما كنا قد انتصرنا أم لا. بينما في نهاية حرب يوم الغفران، ومع كل الألم والتضحيات، خرج الجمهور بالشعور بأننا ازددنا قوة".

تُظهر دراسة متعمقة لهذه الحروب أن عملية تكيف الجيش الإسرائيلي مع الحرب الإعلامية كانت طويلة ومعقدة للغاية، حيث واجه صعوبة في تعلمها وفهمها. كما فرضت

(١) غيرشون هاكوهين **גרשון הכהן** (ولد عام ١٩٥٥م): هو لواء احتياط في الجيش الإسرائيلي، كان آخر منصب شغله هو قائد فيلق الأركان (٤٤٦).

هـذه العمليـة رسـوما دراسـية متعـددة وكشـفت عـن مشـكلة حقيقيـة: فحتـى الاسـتخدام الـذكي لعقيـدة مكافحـة التمـرد لا يمكـن أن يحقـق نـصرا حاسـما في الحـروب الجديـدة. والسـبب في ذلـك هـو «مفارقـة القـوة»: فالطريقـة التـي تغطـي بهـا وسـائل الإعـلام هـذه الحـروب تجعـل مـن الصعـب عـلى القـوي تحقيـق النـصر وتجعـل مـن السـهل عـلى الضعيـف تسـويق روايتـه بنجـاح كبـير. حيـث يمكـن للقـوي فعـلا أن يـضرب الضعيـف ويمنـع انتصـاره، ولكـن عـلى الرغـم مـن الفجـوة في ميـزان القـوى فلـن ينجـح في التغلـب عليـه. ونظـرا لأن الحـرب تـدور رحاهـا في وسـط مـدني، فإنهـا تتـم تغطيتهـا مـن قبـل وسـائل الإعـلام، وبالتـالي توفـر معلومـات للبيئـة الاجتماعيـة السياسـية وتسـمح لهـا بتحديـد موعـد انتهـاء الحـرب.

في الحـروب الصناعيـة في المـاضي، غالبًـا مـا كانـت مسـألة موعـد انتهـاء الحـرب تُحسـم في سـاحة المعركـة وفقًـا لقـوة الأطـراف المتحاربـة. بينـما يزعـم جـاي بروكـر في مقالـه «السـاعات التـي دقـت» أن الحـروب في القـرن الحـادي والعشريـن تنتهـي بقـرار مـن البيئـة المدنيـة. ففـي تقديـره، يتـم إيقـاف الحـروب في الوقت الحـاضر بسـبب سـت عمليـات، أطلـق عليهـا اسـم «سـاعات»، وجميعهـا مرتبطـة بالبيئـة الاجتماعيـة. والعمليـات السـتة هـي: الاحتجـاج العـام، والحساسـية تجـاه الضحايـا، وحجـم الـضرر الذي يلحـق بالجبهـة المدنيـة، ومفهـوم الإنجـاز، والجانـب الإنسـاني

الأخلاقي، وساعة الشرعية الدولية. من السهل رؤية ارتباط هذا التحليل بموضوعنا: فما يؤثر على جميع هذه الساعات هو المعلومات المتعلقة بالحرب - المعلومات التي تنقلها وسائل الإعلام. بدونها، لا يمكن لهذه الساعات الافتراضية أن تعمل، وفي غيابها، لن تعمل إلا الساعة الأصلية، العسكرية. كيف تحسم وسائل الإعلام نتائج الحروب؟ سيتم تقديم الإجابة على هذا السؤال هنا من خلال تحليل خمس جولات من الصراع خاضتها إسرائيل منذ حرب لبنان الثانية في عام ٢٠٠٦م: واحدة ضد حزب الله، وثلاثة ضد حماس، واثنتان ضد أساطيل بحرية صغيرة متجهة إلى غزة - سفينة مرمرة الدولية في مايو/أيار عام ٢٠١٠م وسفينة كارين A التابعة لحركة حماس في مارس/آذار عام ٢٠١٤م.

في أعقاب حرب لبنان الثانية، بدأ معهد حاييم هرتسوغ للإعلام والمجتمع والسياسة في جامعة تل أبيب سلسلة من الدراسات حول الحرب. وكنت قد عرفتها آنذاك بأنها «أول حرب موجهة إعلاميًا». واستنادًا إلى البنية التحتية النظرية التي تم إنشاؤها في ذلك الوقت، تم في السنوات الأخيرة إعداد أوراق بحثية مكثفة حول التغييرات في سياسة المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي منذ الانتفاضة الثانية (بين عامي ٢٠٠٠ - ٢٠١٤م). ففي كتاب نُشر عام ٢٠٠٦م، أظهرت ميخال شافيت كيف أن المتحدث قد تعلم وفهم - حتى وإن كان متأخرا

وببطء - جوهر هذه الحرب، واستوعب مبادئها وصمم استراتيجية إعلامية جديدة متوافقة مع هذه الحرب.

يساهم البحث في فهم عملية الأعلمة التي مر بها الجيش الإسرائيلي. ومع ذلك، يوجد فيه عيبان اثنان. أولا، أنه لا يحلل إلا عمل المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي فقط ويفترض أنه هو وحده قد عبر عن السياسة العامة للجيش الإسرائيلي. وليس الأمر كذلك. حيث إن ما حدد طبيعة الحروب التي خاضتها إسرائيل - ضد حزب الله في لبنان عم ٢٠٠٦م وضد حماس في غزة في أربع جولات بين عامي ٢٠٠٨م و٢٠١٤م - كانت قرارات القيادة العليا. أما المساهمة التي قدمها المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي فقد كانت مجرد واحدة من الكثير من المساهمات.

المثال الذي يوضح ذلك بأقوى طريقة ممكنة، والذي سيتم عرضه بالتفصيل لاحقا، هو سلوك الجيش الإسرائيلي في العمل ضد أسطول مرمرة في عام ٢٠١٠م. فعلى الرغم من أن المتحدث قد استعد لحرب إعلامية، لحرب روايات، إلا أن موقف القيادة العليا للجيش الإسرائيلي كان مختلفًا في نهاية المطاف. حيث قام أفراد مكتب المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي بتصوير ما حدث على متن سفينة مرمرة في الوقت الفعلي، لكن سياسة النشر التي انتهجتها القيادة العليا أخرت توزيع اللقطات لأكثر من عشر ساعات. وفي الوقت نفسه، استحوذت صور

وبث منظمي الأسطول على العالم ونجحت في ترسيخ الرواية المعادية لإسرائيل في الوعي الدولي. وكانت النتيجة ضربة قاسية للغاية لصورة إسرائيل وسياستها ودبلوماسيتها.

لكن في قضية الأسطول، تم إظهار خطأ أعمق بكثير من أن يكون خطأ تشغيليا - فقد أثبتت عدم فهم جوهر الحرب الموجهة إعلاميًا. حيث كان ينبغي أن يكون مفهوما أن القافلة كانت عملية علاقات عامة، وكان يجب منعها، كما حدث في العديد من الحالات الأخرى، عادة من خلال عملية تخريب مبكرة على مستوى منخفض. وإذا لم يكن ذلك ناجحا، فقد كان ينبغي أن يتم الرد عليه بعملية علاقات عامة معاكسة. لكن هذا لم يحدث، حيث رأى الجيش الإسرائيلي في قافلة السفن عملا عسكريًا.

ثانيًا، تعرض شافيت عملية تعلم وتكيف قسم المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي مع طبيعة الحرب الإعلامية، بما في ذلك استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، ولكن في غياب نهج نقدي فإنها لا تلاحظ أن وسائل الإعلام الجديدة لها قيود جوهرية، لذلك فحتى الاستخدام الواسع النطاق لهاا لا يضمن النجاح في حرب الروايات وفي المعركة على الوعي. وسيتم عرض هذه المسألة أيضًا بالتفصيل لاحقا.

تظهر قراءة الكتاب أن إسرائيل قد وجدت على ما يبدو الرد على الحرب الموجهة إعلاميًا التي تدور رحاها بينها

وبين حزب الله وحماس. لكن الحقيقة هي أنه حتى عملية «الجرف الصامد» في عام ٢٠١٤م لم تعتبر قصة نجاح بين الجمهور، وقد عزز تقرير مراقب الدولة الذي نشر في فبراير/ شباط عام ٢٠١٧م هذا الشعور. وعلاوة على ذلك، فقد اتضح بعد العملية أنه على الرغم من الاستخدام المتطور لوسائل التواصل الاجتماعي، لا تزال إسرائيل تواجه معضلة استراتيجية لم تجد لها حلا بعد.

حتى النسخة المحدثة من استراتيجية الجيش الإسرائيلي – التي نشرها رئيس الأركان غادي أيزنكوت[1] في أغسطس/ آب عام ٢٠١٥م – فشلت في حل هذه المفارقة. ويتناول الجزء التالي من العمل هذه المعضلة التي يرجع أصلها إلى الطبيعة الإعلامية للحروب الجديدة. حيث يقدم لمحة تاريخية عن حروب إسرائيل في العقد الماضي، التي كانت جميعها من نموذج D، والتي أظهرت كيف حاول الجيش الإسرائيلي التعامل مع مبادئ الحرب الإعلامية الجديدة، وما هي المعضلة التي لا يمكنه حلها.

(١) غادي أيزنكوت **גדי איזנקוט** (ولد عام ١٩٦٠م): ضابط إسرائيلي من أصول مغربية، شغل منصب رئيس الأركان ال ٢١ بين عامي ٢٠١٥ – ٢٠١٩م. وكان قد شغل قبل ذلك مناصب قائد لواء جولاني، والسكرتير العسكري لرئيس الوزراء إيهود باراك، وقائد فرقة «نتيف هائيش» (الباشان حاليًا)، وقائد فرقة الضفة الغربية، ورئيس هيئة العمليات، وقائد القيادة الشمالية، ونائب رئيس الأركان

١٩١٤ - حرب لبنان ٢٠٠٦م

الأحداث، والدروس المستفادة منها

أثبت حزب الله بالفعل إتقانه للحرب الإعلامية خلال حرب العصابات والإرهاب التي شنها ضد إسرائيل حتى قبل اندلاع حرب لبنان الثانية في صيف عام ٢٠٠٦م (التي استمرت من ١٢ يوليو/تموز حتى ١٤ أغسطس/آب). منذ أن بثت المنظمة في عام ١٩٩٩م شريط الفيديو الذي يظهر كيف استولى بعض مقاتليها «الجريئين» على موقع دلاعت الأمامي التابع لـ «الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر»، حيث استخدمت حرب الصور جنبًا إلى جنب مع المجهود الحركي وفي كثير من الحالات حتى بدلاً من المجهود الحركي: حيث أن العديد من صور الإصابات في صفوف جنود الجيش الإسرائيلي وبشكل خاص صور الدمار في لبنان وصور إصابات المدنيين اللبنانيين كانت تمثيليات كاذبة، بل حتى إن بعضها التقط في حروب أخرى. وكان من الأمثلة البارزة التي حظيت بتغطية إعلامية كبيرة دمى الألعاب الملونة التي شوهدت في أماكن مختلفة قصفها الجيش الإسرائيلي في لبنان، وكان من الواضح أنها زرعت هناك لإحداث تأثير عاطفي دعائي.

خلال ٣٤ يومًا من الحرب، ظهر زعيم حزب الله حسن نصر الله على وسائل الإعلام ما لا يقل عن ست مرات. وحظيت إطلالاته بتغطية إعلامية واسعة النطاق، على التلفزيون الإسرائيلي أيضًا. حيث استغل شخصيته الكاريزمية وموهبته الخطابية، وأسس نظامًا صارمًا لإدارة وسائل الإعلام، وسيطر بشكل كامل على الصحفيين الأجانب، وسمح لهم بتصوير ما أراد أن يراه العالم فقط: ليس الإرهابيين الذين يطلقون الصواريخ على المستوطنات الإسرائيلية، وإنما مشاهد الخراب والدمار الناجمة عن قصف الجيش الإسرائيلي للقرى والبلدات اللبنانية.

"استخدم نصر الله الحرب النفسية بذكاء لتعزيز صورته القوية وتقديم حدوده وإخفاقاته على أنها إنجازات. وقد شكلت إطلالاته المرتبة والمجدولة بعناية على مختلف القنوات الإعلامية العربية والغربية واستخدامه المكثف لمحطة المنار التابعة للمنظمة أداة في تشكيل الوعي». وعند استعادة الأحداث الماضية، فإنه من الواضح أن نصر الله قد تسبب بإلحاق أضرار جسيمة بالسكان المدنيين في لبنان. حتى أنه اعترف بأنه لو كان يعرف مسبقًا بأن هذه ستكون نتيجة الحرب، لكان قد تجنب اختطاف إلداد ريغف وإيهود غولدفاسر[1]. غير أنه خلال الحرب وحتى بعدها، أصبح زعيم

(١) إلداد ريغف **אלדד רגב** (١٩٨٠ - ٢٠٠٦م) وإيهود غولدفاسر **אהוד גולדווסר** (١٩٧٥ - ٢٠٠٦م): كانا جنديا احتياط في الجيش الإسرائيلي قتلا بتاريخ ١٢ يوليو/تموز عام ٢٠٠٦م،

حـزب اللـه بطـلاً ثقافيـا في العالمـين العـربي والإسـلامي.

فوجـئ الجيـش الإسرائيـلي باندلاع الحـرب ودخلهـا دون أن يكـون لديـه الوقـت لتنظيـم نفسـه وقبـل أن يتـم اسـتيعاب مفهـوم العمليـات الجديـد الخـاص بـه بالكامـل. وكانـت النتيجـة أن العديـد مـن القـادة لم يفهمـوا إطلاقـا اللغـة الجديـدة لمفهـوم العمليـات والأفـكار الكامنـة وراءه. وعـلاوة عـلى ذلـك، لم تقـرر القيـادة العليـا مـا إذا كانـت هـذه عملية مشـابهة لنشـاط مكافحة التمـرد الـذي تـم الاعتيـاد عليـه بعـد سـنوات مـن التعامـل مـع المتمردين الفلسـطينيين في الضفـة الغربيـة وقطـاع غـزة، أم حربـا بالمعنـى التقليـدي. حيـث كانـت القيـادة العليـا محرجـة وتعمـل بطريقـة مضطربـة وضعيفـة. وقـد تـم تحليـل طريقـة عملهـا عـلى نطـاق واسـع وبالتفصيـل سـواء مـن قبـل لجـان التحقيـق المختلفة التـي تـم إنشـاؤها بعـد الحـرب أم مـن قبـل وسـائل الإعـلام، الأمـر الـذي عـزز شـعور «المـرارة - ההמיצות" الـذي سـاد في نهايـة الحـرب - وهـو مفهـوم منمـق، أو مخفـف، يصـف خيبـة الأمـل مـن حقيقـة أن منظمـة صغـيرة قـد نجحـت في إلحـاق الـضرر بقـدرة الحسـم لجيـش كبـير وصاحـب انتصـارات كثـيرة.

في هجـوم نفـذه حـزب اللـه اللبنـاني، عندمـا كانـا مجنديـن في قـوة راقبـت الحـدود اللبنانيـة الإسرائيليـة في منطقـة الجليـل الأعـلى، قـرب مسـتوطنتي زرعيـت وشـتولا المجاورتـين للحـدود. حيـث خطفـت قـوة حـزب اللـه المهاجمـة جثتـي غولدفـاسر وريغـف ورفضـت منظمـة حـزب اللـه الإعـلان عـن مصرعهـما، فاعتـبرا أسـيرين لمـدة سـنتين تقريبًـا، ثـم أعيـدت جثتاهـما إلى إسرائيـل في صفقـة تبـادل أسرى تـم تنفيذهـا في ١٦ يوليو/تمـوز عـام ٢٠٠٨م.

كانت نقطة ضعف الجيش الإسرائيلي هي الإدارة الفاشلة للحرب الموجهة إعلاميًا، رغم أنه بدا أن الجيش كان يعمل وفقًا لمبادئ هذه الحرب. وكانت هيئة الأركان العامة مقتنعة أنها ستكون قادرة على أن تعيد في لبنان استخدام نهج «الانفتاح الإعلامي» الجديد الذي استخدمته بنجاح منقطع النظير قبل سنة من ذلك، في عملية إخلاء قطاع غزة. لكن يبدو أنها لم تلاحظ الفرق بين كلا الحدثين. ففي الجنوب لم تكن هناك حرب؛ حيث قام الجيش بإجلاء المدنيين والمستوطنات الإسرائيلية، وكان الهدف من استخدام الإعلام هو جلب دعم السكان الإسرائيليين لسياسة فك الارتباط. كما تم التخطيط لعملية الإخلاء بأدق تفاصيلها، وأدرك مخططوها أهمية الصور. لدرجة أنه على ملابس الجنود، على سبيل المثال، تم حياكة شعارات الدولة بشكل خاص لتعزيز الطابع الرسمي للعملية. وبالفعل، حصل المبادرون لفك الارتباط على دعم واسع من الجمهور.

حتى في حرب لبنان الثانية، سعت القيادة العسكرية لاكتساب الشرعية، بل إن بعض القادة تحدثوا عن حرب روايات. وقد تم تكرار مصطلح «الوعي» مرات عديدة، لدرجة أن «الجيش الإسرائيلي طور هاجسا حقيقيًا بكل ما يتعلق بوعينا ووعي الطرف الآخر». فبدأ مركز عمليات الوعي عمليات تهدف إلى التأثير على وعي العدو. وقام قسم العلوم

السلوكية بمراقبة الرأي العام في إسرائيل وتحليل ردود فعل وسائل الإعلام، وكان عدد غير قليل من العمليات العسكرية يهدف إلى حرق الوعي وتشكيله.

إن بعض أحداث الحرب هي تعبير عرضي عن كونها حربا إعلامية. وأبرزها قصة العلم في بنت جبيل بجنوب لبنان. فقد قرر رئيس الأركان إطلاق العملية في هذه البلدة في نهاية الأسبوع الثاني من الحرب، عندما ساد في هيئة الأركان العامة جو كئيب بسبب استمرار إطلاق صواريخ الكاتيوشا وفشل العملية في مارون الراس، التي تكبد فيها الجيش الإسرائيلي خسائر كبيرة نسبيًا. وقد أقر رئيس الأركان دان حالوتس[1](٢) بأن العملية لن تؤدي إلى تقليص إطلاق الصواريخ باتجاه إسرائيل، لكنها ستحقق هدفًا مختلفًا: حيث شدد على الحاجة إلى صور لحرب الوعي، قائلًا: «أحضروا لي جثثا وأسرى".

ولماذا تم اختيار بنت جبيل، التي يبلغ عدد سكانها نحو ٢٠ ألف نسمة، ولم يتم اختيار أماكن أخرى أُطلق منها عدد أكبر من الصواريخ باتجاه إسرائيل، كما اقترح العديد من الجنرالات والوزراء؟ يمكن معرفة ذلك من الاسم الذي

(١) دان حالوتس **דן חלוץ** (ولد عام ١٩٤٨م): رئيس هيئة الأركان العامة الـ ١٨ للجيش الإسرائيلي وعمل في هذا المنصب من يونيو/حزيران عام ٢٠٠٥م حتى فبراير/شباط عام ٢٠٠٧م، وكان في السابق قائد القوات الجوية الإسرائيلية ونائب رئيس الأركان. وكان حالوتس رئيس الأركان الأكبر عمراً للجيش الإسرائيلي. وقد أشرف على خطة فك الارتباط وعلى حرب لبنان الثانية. وكان أول رئيس أركان في إسرائيل ابتدأ خدمته العسكرية كطيار في سلاح الجو.

أطلق على العملية: «خيوط الفولاذ». حيث كانت هذه إشارة مباشرة إلى «خطاب خيوط العنكبوت» الذي ألقاه نصر الله في ٢٦ مايو/أيار عام ٢٠٠٠م ببنت جبيل، في اليوم التالي لانسحاب إسرائيل من جنوب لبنان.

في الخطاب الذي ألقاه من المبني الذي كان حتى ذلك الحين مقرا لقيادة اللواء الغربي في الحزام الأمني، أوضح نصر الله استراتيجية منظمته في المقاومة، وقام بتشبيه إسرائيل بالجسم الضعيف الذي لن يكون قادرًا على الصمود أمام قوة المقاومة الإسلامية. وقال أن إسرائيل قوة نووية، وتملك القوة الجوية الأقوى في المنطقة، لكن لديها مجتمعا مدللا، سئم الصراعات والحروب، ومواطنوها حساسون لخسارة الأرواح البشرية، ولذلك فهي أوهن من بيت العنكبوت. وقد أضر تفاخر نصر الله بالصورة الذاتية الإسرائيلية، وكان دليلاً في نظر الكثيرين على أن قوة الردع الإسرائيلية قد ضعفت بالفعل في أعقاب الانسحاب من لبنان عام ٢٠٠٠م. وفي عام ٢٠٠٥م، بعد فك الارتباط عن قطاع غزة، تعمق هذا الشعور. لذلك، مع بداية الحرب، انشغل صناع القرار بضرورة تحطيم الصورة التي رسمها نصر الله.

شارك في التخطيط لمعركة بنت جبيل أيضًا «مركز الوعي» في قيادة الفرقة ٩١. حيث أعد خطة مفصلة تضمنت، من بين أمور أخرى، استعراض نصر في البلدة: فقد كان من المفترض أن

يتحرك رتل من الدبابات وناقلات الجنود المدرعة في الشارع الرئيسي، في الجزء الشمالي منها، ليس بعيدًا عن المنصة التي ألقى عليها نصر الله خطابه. كما حصلت ضابطة التوجيه السياسي في اللواء بالفعل على نسخة من خطاب النصر الذي كان من المفترض أن يلقيه قائد لواء المظليين، العميد حجاي مردخاي[1]. وطُلب من مقاتلين مجهزين بكاميرات فيديو وكاميرات ثابتة توثيق الخطاب التاريخي ورفع العلم الإسرائيلي فوق المبنى الذي كان بمثابة مقر قيادة اللواء التابع لحزب الله. وفي تلك المرحلة، لم يتم التخلي حتى عن الفكرة التي طرحت في مناقشات سابقة في هيئة الأركان العامة بتل أبيب - إحضار رئيس الوزراء أو وزير الدفاع إلى بنت جبيل لإلقاء خطاب النصر.

الصورة على اليمين: من تسجيل فيديو مصور لرفع العلم من قبل المظليين في بنت جبيل، ١١ يوليو/تموز عام ٢٠٠٧م؛

(١) حجاي مردخاي **חגי מרדכי** (ولد عام ١٩٦٥م): هو عميد احتياط في الجيش الإسرائيلي، كان آخر منصب يشغله هو رئيس أركان ذراع البر. وقبل ذلك، شغل منصب قائد فرقة الضفة الغربية

المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي. الصورة على اليسار: العلم مرفوع في أم رشراش كرمز لاحتلال إيلات، ١٠ مارس/آذار عام ١٩٤٩م؛ ميخا بيري[١]، أرشيف الصور الوطني/ويكيبيديا ٣,٠ BY-SA CC.

على اليسار – رفع العلم يعكس نتيجة العملية العسكرية. على اليمين – رفع العلم هو هدف العملية العسكرية.

لم يكن العميد مردخاي متحمسًا لفكرة رفع العلم وإلقاء خطاب في بنت جبيل. حيث كانت قواته شمال المدينة بالفعل، ولم يكن يريد العودة إلى الوراء ودخولها. وقبل المعركة، قام قائد اللواء باطلاع قائد الكتيبة على كيفية التصرف، لكنه طلب منه عدم إبلاغ جنود الكتيبة بتفاصيل المهمة حتى اللحظة الأخيرة. لقد بدت له فكرة أن لواء كاملًا سيقاتل لرفع علم وربما أيضًا إلقاء خطاب فكرة مثيرة للسخرية. ولذلك لم يكن مصمماً على إنجاز المهمة. كما تحدث مردخاي عبر الهاتف الخلوي المشفر مع أحد القادة السابقين في لواء المظليين، والذي نصحه قائلًا: «خذ علمًا وضعه على المبنى الذي تتواجد فيه القوات، ثم التقط الصور وغادر. لا ينبغي لأحد أن يموت من أجل أن تكون الصورة في المبنى الذي أخبروك به".

(١) ميخا بيري מיכה פרי (١٩٢٣ – ١٩٩٨م): كان من مقاتلي الهاغانا وباليام (القوة البحرية التابعة للبلماح)، ومن قادة البلماح في لواء هارئيل ولواء النقب خلال حرب الاستقلال (حرب فلسطين ٤٨). عمل كمهندس بناء وكمصور. وبيري هو المصور الذي التقط صورة رفع علم الحبر.

وهكـذا كان. حيـث صعـد عـدد مـن المقاتلـين والقـادة مـن الكتيبـة ٨٩٠ عـلى سـطح مبنـى ولوحـوا بفخـر بعلـم إسرائيـل عـلى عمـود معـدني وجـدوه هنـاك. ولم يدركـوا إلا في وقـت لاحـق كـم كانـوا مكشـوفين لنـيران حـزب اللـه خـلال الدقائـق التـي قضوهـا عـلى السـطح. فلـم يكـن لديهـم خيـار إلا تهنئـة أنفسـهم عـلى حظهـم الطيـب. وقـد تـم تسـليم الصـور الثابتـة مـن بنـت جبيـل إلى قسـم المتحـدث باسـم الجيـش الإسرائيـلي، ولكـن لم يتـم نشرهـا. حيـث أن المقاتلـين الذيـن التقطـوا الصـور ليسـوا مصوريـن محترفـين، وكامـيرة الفيديـو الوحيـدة كانـت في أيـدي قـوات القيـادة الذيـن كانـوا في بنـاء بعيـد عـن الجنـدي الـذي كان يحمـل العلـم. ونتيجـة لذلـك، كانـت جـودة الصـور رديئـة للغايـة. وهكـذا غـادر المظليـون بنـت جبيـل دون أن ينجحـوا في تقديـم صـورة نـصر مـن شـأنها أن تقـضي عـلى أسـطورة بيـت العنكبـوت.

مـع انـدلاع حـرب لبنـان الثانيـة، تبنـى رئيـس هيئـة الأركان سياسـة وحـدة المتحـدث باسـم الجيـش الإسرائيـلي منـذ أيـام فـك الارتبـاط، وتـم انتهـاج سياسـة الانفتـاح الإعلامـي. لكـن ذلـك انهار خـلال الممارسـة العمليـة: حيـث أنـه لم يكـن هنـاك انفتـاح في تلـك الحـرب، بـل تخفيـف للمبـادئ التقليديـة للعمـل العسـكري. فانهـارت جـدران الجيـش أمـام الصحفيـين، وتـم اختراقـه بالكامـل مـن قبلهـم. وطـوال فـترة الحـرب، تحـدث الضبـاط إلى الصحفيـين بـدون قيـود عـبر هواتفهـم الخلويـة الخاصـة. وفي أحـد الأيـام،

تحدث ضباط كبار مع الصحفيين - في انتهاك كامل لقواعد هيئة الأركان العام وللتقاليد - ما لا يقل عن ٦٥ مرة. لقد دخلت كاميرات التلفزيون إلى مواقع القيادة خلافا لما كان معهودا في السابق وقاموا بالتسجيل بحرية. كما حدث أيضًا وأن التقطت عدسة الكاميرا ضباطا يتحدثون بسوء عن قادتهم.

كان اهتمام المتحدثة باسم الجيش الإسرائيلي، العميد ميري ريغيف[1]، منصبا بشكل أساسي على الصحافة الإسرائيلية وبدرجة أقل بكثير على الإعلام الأجنبي، على الرغم من الاحتجاجات المتكررة من قبل المراسلين الأجانب. فكانت النتيجة فجوة عميقة بين الطريقة التي تم التعبير بها عن الحرب في الإعلام الدولي وبين صورة الحرب كما تم تصويرها عبر وسائل الإعلام الإسرائيلية. وقد أدى الاستخدام الذكي لمبادئ الحرب الإعلامية من قبل حزب الله إلى جانب الفشل المستمر من قبل الجانب الإسرائيلي إلى حسم حرب الروايات لصالح حزب الله وضد إسرائيل.

على الرغم من كلمات الثناء والمديح التي أطلقتها المتحدثة باسم الجيش الإسرائيلي على إنجازات لوائها في الحرب، إلا أن الصورة التي ظهرت في عيون الإعلام الدولي وكذلك في عيون الباحثين الأجانب كانت مختلفة: ففي الحرب ضد إسرائيل

(١) ميري ريغيف מירי רגב (ولدت عام ١٩٦٥م): سياسية إسرائيلية وعضو في الكنيست عن حزب الليكود وكانت وزيرة الثقافة والرياضة، كما شغلت سابقًا منصب المتحدثة باسم الجيش الإسرائيلي خلال فترة فك الارتباط وفترة حرب لبنان الثانية.

عـام ٢٠٠٦م، تمكـن حـزب اللـه مـن التلاعـب بخصـم عسـكري كان أقـوى منـه بكثـير. وقـد فعـل ذلـك عـن طريـق نقـل مركـز ثقـل الحـرب إلى فضـاء المعلومـات. وبهـذه الطريقـة، اسـتطاع إحبـاط الأهـداف العسـكرية للجيـش الإسرائيـلي.

في يناير/كانـون الثـاني عـام ٢٠٠٨م، عُقـدت في الكليـة الحربيـة للجيـش الأمريـكي (US Army War College) ورشـة عمـل بحثيـة مخصصـة لحـرب لبنـان الثانيـة. وكان عنوانهـا: «بـين الرصـاص والمدونـات: الإعـلام الجديـد والحـرب». وقـد حـضر الورشـة العديـد مـن الباحثـين الـذي كشـفوا في تحليلاتهـم عـن ضعـف إسرائيـل. حيـث كانـت اسـتنتاجاتهم بشـأن نتائـج الحـرب خطـيرة: ففـي عـام ٢٠٠٦م، كان حـزب اللـه أقـل شـأنا مـن الجيش الإسرائيـلي في كل معيـار يمكـن تخيلـه، وكانـت فرصـه للنجـاح في الحـرب ضئيلـة. وعـلى الرغـم مـن ذلـك، فقـد نجـح في تحقيـق نـصر اسـتراتيجي مـن خـلال منـع الجيـش الإسرائيـلي مـن تحقيـق أهدافـه الرئيسـية مـن الحـرب. كـما تمكـن حـزب اللـه عـن طريـق الاسـتخدام المتطـور لبيئـة المعلومـات مـن تحييـد اسـتراتيجية الحـرب الإسرائيليـة وخلـق مضاعفـات قـوة لقدرتـه التقليديـة المحـدودة. فبنقـل مركـز ثقـل الحـرب إلى فضـاء المعرفـة، تمكـن حـزب اللـه مـن المبـادرة بـل ومـن المحافظـة عـلى مبادرتـه.

أقـر الباحثـون بـأن الاسـتراتيجية الحربيـة لحـزب اللـه قامـت بالموازنـة بـين النـيران التقليديـة ونـيران المعلومـات ببراعـة،

وخلقت تأثيرات أسلحة استراتيجية، وأجبرت إسرائيل في نهاية المطاف على وقف أنشطتها الحربية دون أن تتمكن من تحقيق أهداف الحرب التي حددتها لنفسها. وعلى الرغم من أنه كانت هناك مشكلة صعبة في تحديد الأهداف في تلك الحرب - ولا سيما وجود تناقضات بين تصريحات المستوى السياسي التي يمكن رؤية أهداف الحرب من خلالها وبين الطريقة التي فهم فيها الجيش أهداف الحرب التي يخوضها - إلا أن المشاركين في ورشة العمل البحثية، إضافة إلى كثيرين غيرهم، قد أشاروا إلى أن فشل إسرائيل في الحرب لم يكن بسبب ضعف إدارة الإعلام فحسب، بل يرجع بشكل أساسي إلى عدم استغلال الإمكانات الكامنة للحرب الموجهة إعلاميًا.

في النقد الذاتي الوطني والمهني الذي تم إجراؤه في إسرائيل بعد الحرب، نُسب الإخفاق والفشل إلى مفهوم العمليات الجديد وبدرجة أقل - إلى سياسة الانفتاح على الإعلام. ولذلك، أجرى الجيش الإسرائيلي بعد الحرب انعطافا وعاد إلى أسلوب العمليات القديم والسياسة الإعلامية القديمة. أما تطرق أعضاء لجنة التحقيق الحكومية المعينة لفحص سير الحرب، لجنة فينوغراد، فلم يتطرقوا إلى مسألة الإعلام إلا من خلال المنظور الضيق لأمن المعلومات، وما كان يشغلهم هو كيفية تعزيز أمن المعلومات الذي انهار خلال الحرب.

وبالفعل، طالب تقرير اللجنة، الذي خصص بضع صفحات

لهذا الموضوع، الجيش بالعودة إلى أيام ما قبل الثورة الإعلامية: إغلاق نفسه أمامها، وتشديد عمل الرقابة، ومنع استخدام الهواتف المحمولة، وأن يفرض على الجنود والقادة سلسلة أخرى طويلة من المحظورات بنفس الروح. غير أن أعضاء اللجنة لم يدركوا أن الخيول قد هربت بالفعل من الإسطبل (تعبير بمعنى لقد فات الأوان). فالمجتمع الإسرائيلي أصبح منذ فترة طويلة مجتمعًا موجهًا إعلاميًا، وقرب نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين دخل المرحلة الثانية، الجذرية (الريزوماتية)، من عملية الأعلمة (التوجيه الإعلامي): عندئذ لم يعد من الممكن إغلاق فضاء الحرب. على الرغم من ذلك، قام رئيس الأركان الجديد جابي أشكنازي[1]، بتشجيع من المتحدث الجديد باسم الجيش الإسرائيلي آفي بينياهو[2]، بتطبيق توصيات اللجنة. ومثلما تخلى عن مفهوم العمليات الجديد وألقى بقاموس المصطلحات الخاص به في سلة المهملات، عاد كذلك في مجال الإعلام أيضًا إلى الحقبة التي سبقت فك الارتباط مع غزة. فتم في الجيش الإسرائيلي انتهاج

(١) جابي أشكنازي **גבי אשכנזי** (ولد عام ١٩٥٤م): سياسي وضابط إسرائيلي، كان سابقًا وزير الخارجية وعضو كنيست ورئيس لجنة الخارجية والأمن في الكنيست، كما شغل منصب رئيس الأركان التاسع عشر للجيش الإسرائيلي.

(٢) آفي بينياهو **אבי בניהו** (ولد عام ١٩٥٩م): هو صحفي ورجل إعلام إسرائيلي، كان سابقًا المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي برتبة عميد، ومدير إذاعة الجيش الإسرائيلي، ومستشارا إعلاميًا لشؤون الأمن لرئيسي الوزراء إسحق رابين وشمعون بيريز، ومستشارا إعلاميًا لوزير الخارجية إسحاق مردخاي.

نظـام جديـد يقـوم عـلى الإغـلاق شـبه المحكـم في وجـه الإعـلام. حيــث لم يُســمح للمراســلين بالتحــدث مــع الضبــاط، وبالــكاد أجـرى رئيـس الأركان مقابـلات عـلى الإعـلام، (عـلى الرغـم مـن أنـه كثـيرًا مـا كان يجـرى محادثـات في الخلفيـة مـع الصحفيـين). وقـد امتنـع، مـن بـين أمـور أخـرى، عـن الإجابـة عـلى أسـئلة محـددة مـن المراسـلين، لكنـه كان ينـشر معلومـات بمبـادرة منـه بطريقـة موحـدة لجميـع وسـائل الإعـلام. كـما لم يُسـمح للجنـود بإدخـال الهواتــف المحمولــة أو الكامــيرات إلى منطقــة القتــال، وانتهــج المتحـدث باسـم الجيـش الإسرائيـلي نظامـا مركزيًـا مغلقـا وصارمـا.

الرصاص المصبوب

«ليست أنشودة، بل قتل ودمار»

ليس من المستغرب إذا أنه عندما أطلق الجيش الإسرائيلي عملية «الرصاص المصبوب» (من ٢٧ ديسمبر/كانون الأول عام ٢٠٠٧م وحتى ١٨ يناير/كانون الثاني عام ٢٠٠٨م) بمفهومه العملياتي القديم المتجدد، فقد تعرض لانتقادات ليس من قبل الرأي العام العالمي فحسب بل ومن الرأي العام الإسرائيلي أيضًا. ويمكن القول إن أهداف العملية كان يمكن تحقيقها بنفس القدر دون دفع الثمن في مجال الصورة الدولية فيما لو كان هناك فهم أكبر لجوهر الحرب الموجهة إعلاميًا.

سعى الجيش إلى إعادة بناء جدار بين الجيش والإعلام، وتحقيقا لهذه الغاية، وحتى قبل الهجوم، أعلن قائد المنطقة الجنوبية أن جميع مناطق تجمع الجنود خارج قطاع غزة هي مناطق عسكرية مغلقة. فحُرم الصحفيون من حرية الوصول إلى منطقة القتال ومُنعوا من إجراء مقابلات مع الجنود. كما مُنع الجنود من اصطحاب الهواتف المحمولة معهم. وتم الاقتصاد في إعطاء التصاريح لإجراء مقابلات مع كبار الضباط. وكان يتم قبل المعارك تحديث التعليمات القاطعة التي تمنع

الضباط والجنود من التحدث إلى المراسلين، كما قام قسم أمن المعلومات (المعروف سابقًا باسم أمن الميدان) بالتنصت على هواتف ضباط الجيش الإسرائيلي للكشف عن التسريبات المحظورة.

مارس المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي رقابة صارمة على تدفق المعلومات وسعى للسيطرة على جميع الرسائل الصادرة عن الجيش. وتلقى ضباط قيادة الجبهة الداخلية وكبار الضباط السابقين، الذي ظهروا بشكل يومي في استوديوهات الأخبار، احاطات منتظمة من الجيش وطُلب منهم أن لا ينقلوا للجمهور إلا الرسائل التي يريد الجيش الإسرائيلي إيصالها. كما تم تشديد الرقابة، حيث منعت أنواع معلومات كانت توافق على بثها سابقًا. وفي إطار التشدد، تم أيضًا إقرار سياسة عدم إلحاق المراسلين العسكريين الإسرائيليين - حتى أولئك الموثوقين من جانب الجيش الإسرائيلي - بالوحدات المقاتلة، وبسبب حظر دخول الفرق الإعلامية إلى الميدان، تمتع المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي بموقف احتكاري فيما يتعلق بتوريد المواد المصورة من منطقة المعارك. في الواقع، إذا تمت مقارنة الأخبار التي نُشرت في الصحافة الإسرائيلية خلال حرب لبنان الثانية بالأخبار التي نُشرت خلال عملية «الرصاص المصبوب»، يمكن رؤية نتائج هذه السياسة بوضوح. ففي ٥٧٪ من الأخبار التي نُشرت خلال حرب لبنان الثانية لم

تكـن مشـاركة المتحـدث باسـم الجيـش الإسرائيـلي واضحـة، بينـما في ٤٣٪ مـن الأخبـار يمكـن العثـور عـلى مثـل هـذه المشـاركة. مـن ناحيـة أخـرى، بـرزت مشـاركة المتحـدث في «الرصـاص المصبـوب»: ففـي ٦٧٪ مـن الأخبـار كانـت مشـاركته واضحـة، وكانـت غـير مرئيـة في ثلـث الأخبـار فقـط. وقـد انعكـس دوره التوجيهـي بشـكل أكـبر في المقـالات: فعـدد المقـالات التـي وقـف وراءهـا في «الرصـاص المصبـوب» كان أكـبر بنسـبة ٦٤٪ مـن عـدد المقـالات التـي كان وراءهـا خـلال حـرب لبنـان الثانيـة.

كانـت سياسـة الجيـش الإسرائيـلي تجاه وسـائل الإعـلام الأجنبية أكـثر تشـددًا. فقبـل شـهرين مـن بـدء العمليـة، تـم إغـلاق الحدود مـع قطـاع غـزة أمـام الصحفيـين الأجانـب. كـما اسـتمر هـذا الوضـع أيضًـا خـلال الأسـبوع الأول مـن العمليـة ولم يتغـير إلا في أسـبوعها الثـاني، عندمـا سُـمح لمصـور BBC ومراسـل وكالـة رويترز بدخـول القطـاع مـع القـوات الإسرائيليـة (بـشرط الامتثـال لرقابـة صارمـة). وقـد أثـار الإغـلاق المحكـم لقطـاع غـزة في وجه المراسـلين الأجانـب غضبًـا كبـيرًا بينهـم، ووصلـت الأمـور إلى درجـة أن رابطـة المراسـلين الأجانـب أصـدرت بيانًـا يديـن سياسـة الحكومـة، جـاء فيـه: «إن المنـع غـير المسـبوق لوصـول وسـائل الإعـلام العالميـة إلى غـزة هـو بمثابـة انتهـاك خطـير لحريـة الصحافـة ويضـع إسرائيـل بصحبـة حفنـة مـن الأنظمـة في جميـع أنحـاء العـالم تقـوم دائمًـا بمنـع الصحفيـين مـن القيـام بعملهـم». كـما قدمـت أيضًـا التماسـا

إلى محكمة العدل العليا في هذا الشأن.

بذل الجيش الإسرائيلي جهدًا خاصًا لتقليل الضرر الذي يلحق بالمدنيين، من أجل منع الإضرار بالشرعية الدولية لعمليته في غزة. ولذلك عندما بدأت العملية، كان النشاط قائمًا على سلاح الجو، وتم استخدام القنابل الموجهة بدقة على نطاق واسع. بالإضافة إلى ذلك، تم تحذير المدنيين مسبقًا من الهجمات الوشيكة للجيش الإسرائيلي. حيث أوصل الجيش الإسرائيلي التحذيرات بطرق مختلفة: مكالمات هاتفية، وإسقاط منشورات من الجو، وتنفيذ إجراء «الطرق على السطح». فوفقًا لهذا الإجراء، يتم إطلاق صاروخ برأس حربي صغير بالقرب من المنزل الذي يريدون ضربه (لأنه تم اكتشاف نشاط لعناصر حماس هناك) أو على سطحه لتوجيه شاغليه للإخلاء قبل أن يتم ضربه بذخيرة أثقل بكثير.

والواقع أنه خلال الأسبوع الأول من العملية، كان عدد الضحايا المدنيين في غزة صغيرًا نسبيًا. وفي تلك المرحلة من العملية، كانت لإسرائيل اليد العليا في حرب الروايات على الرغم من الانتقادات التي وجهها المراسلون الأجانب بسبب التضييق عليهم عند قدومهم لتغطية الحرب من الجانب الإسرائيلي.

حظيت الرواية الإسرائيلية بتأييد ليس فقط بين الجمهور الإسرائيلي ولكن أيضًا في المجتمع الدولي، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن حماس، المنتمية لجماعة الإخوان المسلمين، تعتبر منظمة

إرهابية في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية والعديد من الدول الأخرى، بما في ذلك في العالم العربي وخاصة في مصر. لكن منع المراسلين الأجانب من دخول قطاع غزة من الحدود الإسرائيلية لم ينجح في منع نشر مواد من القطاع. حيث قام مراسلون غزويون (صحفيون مستقلون) كانوا يعملون لصالح مؤسسات إعلامية دولية وكذلك طواقم صحفية أجنبية، على رأسها طاقم الجزيرة، بالبقاء في القطاع بعيدًا عن الرقابة الإسرائيلية ونشروا الصور - خاصة تلك التي أجبرتهم حماس على نشرها: صور الدمار والقتل على يد الجيش الإسرائيلي في القطاع، مصحوبة بالتفسير الفلسطيني، دون حتى إثارة وجهة النظر الإسرائيلية.

اتضح أن الفكرة التي وجهت الجيش الإسرائيلي - أنه يمكن فرض رقابة إعلامية - هي فكرة واهية، كما عرف باحثو الحرب الموجهة إعلاميًا منذ فترة طويلة. ويجب أن نتذكر دائمًا النص التأسيسي حول هذه القضية في الجيش الأمريكي: «إن قدرة أنظمة الإعلام [الجذرية (الريزوماتية)] على الشفاء الذاتي تضعف فعالية الهجوم عليها. وعندما يتعرض مثل هذا النظام للهجوم في مكان ما، فإنه يعيد إيجاد نفسه على الفور وينبثق في مكان آخر".

بالإضافة إلى الصحفيين المحترفين، كان هناك أيضًا العديد من المواطنين في قطاع غزة الذين أصبحوا صحفيين للحظة

باستخدام الكاميرات الموجودة في هواتفهم المحمولة. وقد خلد هؤلاء بكاميراتهم صور القتل والدمار، موضحين بذلك جوهر الشبكة الجذرية (الريزوماتية). وليس ذلك لمجرد أنه لم تكن لإسرائيل الحصرية في نشر هذه الصور، بل كان العكس هو الصحيح: حيث ترك الجيش الإسرائيلي حرية المبادرة للخصم، وما بقي له أن يفعله هو الرد على المنشورات ضده، لتوضيح أن حماس كانت تطلق النار على إسرائيل من داخل المباني المدنية، بما في ذلك المدارس والمستشفيات والمساجد، وأن الجيش الإسرائيلي يبذل قصارى جهده لعدم إلحاق الأذى بالمدنيين العزل. لقد كانت هذه ردود أفعال وليست أفعالا استباقية، في حين جاءت من غزة صور قاسية لأطفال قتلى وبيوت مدمرة وأحياء تم محوها ومدنيين مبتوري الأطراف – صور تخدع قلوب المشاهدين لصالح الضرب والمعاناة. فبعد كل شيء، إن إحدى القواعد الأولى في حرب المعلومات هي أن المادة المنشورة أولاً هي التي تظل محفورة في وعي المستهلكين.

عندما لم توقف الغارات الجوية أنشطة حماس، دخلت وحدات المشاة والمدرعات التابعة للجيش الإسرائيلي إلى داخل المنطقة المليئة بالمدنيين. وقد أدت الرغبة في تقليص الخطر على الجنود إلى خفض عتبة حساسية الجيش الإسرائيلي تجاه إلحاق الأذى بالمدنيين الفلسطينيين. فحدث عندئذ ما يحدث دائمًا في الحرب التي يتم خوضها في الوسط المدني: حيث ارتفع

عـدد الضحايـا في صفـوف المدنيـين الفلسـطينيين. ومنـذ تلـك اللحظـة، تغـير موقـع إسرائيـل في الإعـلام العالمـي، وفقـدت الميـزة التـي كانـت تتمتـع بهـا حتـى ذلـك الحـين في الـرأي العـام العالمـي.

في تلـك المرحلـة، ازداد أيضًـا ضغـط المراسـلين الأجانـب لفتـح القطـاع أمامهـم مـن الجانـب الإسرائيـلي. حتـى أنهـم اسـتأنفوا أمـام المحكمـة العليـا الإسرائيليـة بشـأن هـذا الأمـر وحصلـوا عـلى دعمهـا. وقـد أدى هـذا التوتـر بينهـم وبـين الجيـش إلى ثنيهـم عـن التطـرق إلى الروايـة التـي قدمهـا لهـم بمـا يتوافـق مـع توقعـات الجيـش. وفي الواقـع، فإنـه منـذ اللحظـة التـي بـدأت فيهـا المرحلـة البريـة للعمليـة، شـاهد العـالم المزيـد مـن الصـور التـي عرضـت مـدى الـضرر الـذي ألحقتـه إسرائيـل بالسـكان المدنيـين. وقـد أثـار سـيل الصـور التـي تـم بثهـا عـبر جميـع وسـائل الإعـلام في العـالم موجـة مـن الانتقـادات ضد إسرائيـل، حتـى في الـدول الصديقة. بل وتـم الادعـاء ضـد إسرائيـل أيضًـا بـأن الصـور تشـير عـلى مـا يبـدو إلى يُعرِّفـه القانـون الـدولي بأنـه «اسـتخدام غـير متناسـب للقـوة".

تأثـرت الأوصـاف غـير المتوازنـة في الإعـلام الـدولي إلى حـد كبـير بطريقـة إدارة وسـائل الإعـلام في كلا الجانبـين. ويمكـن التعـرف عـلى مـدى الـضرر الـذي لحـق بصـورة إسرائيـل نتيجـة لهـذه العمليـة مـن خـلال اسـتعراض الصـور التـي تـم نشرهـا في العـالم خلالهـا. وهـذا مـا فعلـه الباحثـون الذيـن فحصـوا صـور أربـع وكالات دوليـة: AP، Reuters، AFP، Getty Images. ففـي

معظم الصور من غزة يمكن رؤية مشاهد الدمار والمصابين. حيث ركز المصورون على الإصابات في صفوف المدنيين بشكل عام والأطفال بشكل خاص. فبسبب اندماج عناصر حماس بالسكان المدنيين، وعدم السماح للمصورين بتصويرهم أثناء العمل، لم تكن هناك أي صور تقريبًا تُظهر إطلاق الصواريخ باتجاه إسرائيل.

في إسرائيل، من ناحية أخرى، وقف المصورون بالقرب من المدافع والدبابات التي تطلق النار على غزة من الأراضي الإسرائيلية، وكثيرا ما أرسلوا صورا توضح قوة إسرائيل. وهكذا، تعمقت الهوة بين صورتي الجانبين: العدوان والعنف من جهة، والضحايا والمعاناة من جهة أخرى. هكذا رسم الصحفيون صورة كانت بمثابة لائحة اتهام حادة ضد إسرائيل.

كما أن الفجوة بين صورة العملية كما صورتها وسائل الإعلام الإسرائيلية وتلك التي ظهرت في وسائل الإعلام العالمية ترجع إلى الثغرات في الوصول إلى المادة الإخبارية. حيث تميل وسائل الإعلام عمومًا إلى حشد الجهود الوطنية في زمن الحرب. والمفهوم المقبول بين الباحثين الإعلاميين هو «الاتحاد حول العلم». كما تميز هذه الظاهرة أيضًا المؤسسات الإخبارية التي تعمل وفق النموذج الأكثر ليبرالية، مثلما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية عندما بدأت الحرب في العراق.

تكرر هذا النمط من السلوك الإعلامي في إسرائيل في جميع

الحـروب. فجـذوره في إسرائيـل عميقـة بسـبب حقيقـة أنـه مجتمع يعيـش في ظـروف حـرب لا نهايـة لهـا، وفي حالـة مـن الـصراع المسـتعصي. وفي مثـل هـذه المجتمعـات، يـرى الجمهـور في الحـرب نوعـا مـن الكـوارث الطبيعيـة، وشـيئًا مفروضـا مـن الخـارج، وأنـه لا يوجـد شيء يمكـن القيـام بـه حيالهـا، وتعتـبر وسـائل الإعـلام بمثابـة أحـد أكـثر الآليـات الاجتماعيـة فاعليـة المصممـة لتكييـف السـكان مـع الوضـع الصعـب. وبعبـارة أخـرى: تعمـل وسـائل الإعـلام عـلى «تطبيـع» الحـرب، وجعلهـا مقبولـة، وطبيعيـة، ومـبررة. لكنهـا بقيامهـا بذلـك، تسـاهم أيضًـا في إدامـة الحـروب والحفـاظ عـلى النزاعـات.

تـم تقديـم دليـل تجريبـي عـلى هـذه الادعـاءات المبدئيـة مـن خـلال عمـل بحثـي مهـم قـام بفحـص الصـور التـي فضلـت الصحـف المختلفـة في جميـع أنحـاء العـالم نشرهـا في المقـالات التي تناولـت الحـرب. حيـث قامـت الباحثـة مايا حسـون بفحـص جميع الصـور التـي أرسـلتها وكالـة أنبـاء أسوشـيتد بـرس إلى المؤسسـات الإخباريـة خـلال عمليـة «الرصـاص المصبـوب» وتفحصـت أي منهـا اختـارت كل مؤسسـة إعلاميـة نـشره. وقـد ركـزت حسـون في بحثهـا عـلى العديـد مـن المؤسسـات الإعلاميـة الرئيسـية: ففـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة كانـت هـذه هـي صحـف «نيويـورك تايمـز» و «وول سـتريت جورنـال» و «يـو إس إيـه تـوداي»، وفي ألمانيـا صحيفـة «بيلـد»، وفي اليابـان «جريـدة يوميـوري»، وفي

الهنـد صحيفـة «تايمـز أوف إنديـا». أمـا الصحيفـة الإسرائيليـة التـي تـم فحصهـا فكانـت «يديعـوت أحرونـوت». حيـث قسـمت الباحثـة الصـور إلى أربـع فئـات: «الألم البـشري» ، و «قـوة تدمـير الحـرب»، و «دراما الحـرب»، و «الإخفـاء» – وهـي صـور لا تصـور القتـال الحقيقـي. وكانـت النتيجـة الرئيسـية أن محـرري الصـور في البلـدان المختلفـة اختـاروا صـورًا مختلفـة وفقًـا للرمـوز الثقافيـة المميـزة لذلـك المجتمـع.

في إسرائيـل، عـلى عكـس جميـع البلـدان الأخـرى، لم يُظهـر عدد كبـير جـدًا مـن الصـور المشـاهد القاسـية للمعـارك عـلى الإطـلاق: حيـث كان مـن المسـتحيل تقريبًـا العثـور فيهـا عـلى الدمـار، والجرحـى والقتـلى، والنـار والدخـان، بـل العكـس تمامًـا – صـور لإسرائيليـين، جنـود أو مدنيـين، خـلال أنشـطة روتينيـة يوميـة، أو في حـالات الاسـترخاء والفكاهـة، أو يسـتمتعون، أو حتى يسـاعدون الفلسـطينيين، أو يقومـون بمجـرد الوقـوف أمـام المصـور. وقـد أظهـرت صورتـان فقـط مـن بـين كل عـشر صـور مـا كان يحـدث في الحـرب عـلى الجانـب الفلسـطيني.

وهكـذا كتبـت الباحثـة: «إن الوجـود الـذي صورتـه ‹يديعـوت أحرونـوت›، هـو وجـود مكبـوت لدولـة تقـف عـلى جانـب مـن الحـرب وتتجاهـل جـزءًا كبـيرًا مـن المشـاهد المصاحبـة لهـا... يبـدو مـن الصـور أن السـكان المصوريـن يتكيفـون مـع روتـين الحيـاة الـذي يتـم تقديمـه بطريقـة طبيعيـة وحميمـة... إن طريقـة

التأقلم التي تنعكس في اختيارات الصحيفة، والتي توثق ثقافتها الخاصة من الداخل، هي طريقة النعامة، بمعنى أنك إذا كنت لا ترى شيئًا ما، فهذا يعني أنه غير موجود». يجسد هذا الوصف بوضوح أطروحة إنكار الحرب، وإخفاءها الرمزي، التي تتحدث عنها داليا غافريلي نوري[1]. ووفقًا لها، فإن هذه تقنية تجعل من الممكن التعايش مع صراع لا نهاية له.

إن قوة حشد وسائل الإعلام الإسرائيلية من أجل الرواية الإسرائيلية يمكن رؤيتها ليس فقط في المنشورات (الصور والأخبار والتقارير والمقالات) التي نشرتها مقارنة بمنشورات وسائل الإعلام الأجنبية، ولكن أيضًا في مقارنة المعلومات التي نشرها على تويتر إعلاميون إسرائيليون وأجانب خلال عملية «الجرف الصامد» في عام ٢٠١٤م. فبينما أكثر الأجانب من وصف الإصابات الكثيرة والخسائر والأضرار والدمار الذي تسبب به الجيش الإسرائيلي في غزة، عرض الصحفيون الإسرائيليون بشكل أكبر بكثير ما حدث في البلاد. وبهذه الطريقة، تم تجنيب مستهلكي الإنترنت الإسرائيليين الصور غير السارة، وافتقر الجمهور الإسرائيلي إلى المعرفة الكاملة بما حدث بالفعل في غزة.

لذلك، عندما تصاعد الهجوم الدبلوماسي على إسرائيل في

(١) داليا غافريلي نوري **דליה גבריאלי נורי** (ولدت عام ١٩٦٣م): هي محامية إسرائيلية، وباحثة في خطاب الحرب والسلام والثقافة الإسرائيلية، وباحثة في معهد ترومان لتعزيز السلام في الجامعة العبرية، وأستاذة مشاركة في كلية هداسا الأكاديمية

نهاية عملية «الرصاص المصبوب»، وجد الإسرائيليون – الذين لم يكونوا على دراية بمدى الأضرار التي ألحقها الجيش الإسرائيلي بالجانب الآخر من الحدود – صعوبة في فهم شدة الانتقادات ونسبوها إلى السياسات المعادية لإسرائيل، بل وأكثر من ذلك إلى معاداة السامية. (تجدر الإشارة إلى أن هذا ما كان عليه الحال أيضًا بعد عملية «الجرف الصامد» في عام ٢٠١٤م). هذا التفسير، الذي رعته الحكومة الإسرائيلية، وفر على الإسرائيليين الحاجة إلى القيام بمزيد من البحث الذاتي المؤثر حول ما حدث.

قدر المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي، بنياهو، أن الجيش الإسرائيلي قد خرج منتصرا من العملية. كما أشار خليفته، العميد يوآف (بولي) مردخاي، الذي شغل منصب المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي بين عامي ٢٠١١ – ٢٠١٣م، إلى «أن السيطرة على الإعلام خلال عملية ‹الرصاص المصبوب› جعلت من الممكن تكوين صورة من الإنجازات». قد يكون هذا التصريح صحيحًا فيما يتعلق بالجمهور المحلي، ولكن في محكمة الرأي العام العالمي، كما يتجلى في وسائل الإعلام الدولية، فشلت سياسة إسرائيل فشلاً ذريعاً.

يمكن إثبات مدى عدم حساسية الجيش الإسرائيلي للآذان الدولية حتى من خلال الاسم الذي أطلق على العملية – «الرصاص المصبوب». وقد علق البروفيسور شلومو أفينيري[1]،

(١) شلومو أفينيري **שלמה אבינרי** (ولد عام ١٩٣٣م): هو باحث في مجال العلوم

الـذي أدان الاسـم الـذي أطلـق عـلى العمليـة، عـلى ذلـك قائـلًا: «عندمـا تنـشر وسـائل الإعـلام العالميـة تقاريـر - باللغـة الأجنبيـة، وليـس بالعبريـة - حـول ‹عمليـة الرصـاص المصبـوب›، فـإن هـذا يرتبـط بطريقـة طبيعيـة مـع القـوة الزائـدة، والوحشـية، والعدوانيـة. ليسـت أغنيـة حانـوكا، بـل قتـل وموت. قبـل إطـلاق الرصاصـة الأولى، وقبـل إلقـاء أول خطـاب دعـائي إسرائيـلي، كانـت صـورة العمليـة قـد ترسـخت بمفاهيـم تـدل عـلى القـوة الزائـدة... هـل فكـر أحـد في هيئـة الأركان أو الحكومـة في ذلـك؟ بالطبـع لا... هكـذا تحققـون الاسـتعداد لواقـع ذي طبيعـة معقـدة: هكـذا تخلقـون العـداء والمعارضـة فقـط".

كتبـت الصحـف التـي لا يشـتبه في أنهـا معاديـة لإسرائيـل أن سياسـة إسرائيـل المتمثلـة في إبعـاد الصحفيـين عـن سـاحة المعـارك قـد أضرت بهـا أكـثر مـما نفعتهـا. حيـث لم يكـن فقـدان الشرعيـة الدوليـة مجـرد مسـألة حالـة مزاجيـة، بـل تـم التعبـير عنـه بشـكل قانـوني مـع تعيـين لجنـة تحقيـق دوليـة للتحقيـق في «الجريمـة الإسرائيليـة». فتعيـين اللجنـة لم يعكـس فقـط التصـور الـذي نشـأ بـين معـارضي إسرائيـل، بـل أيضًـا في الـدول الغربيـة الأكـثر صداقـة معهـا. وقـد قامـت بعثـة الأمـم المتحـدة لتقـصي الحقائـق، التـي

السياسـية ومـؤرخ للفلسـفة السياسـية، وخاصـة الاشـتراكية والصهيونيـة، وأسـتاذ فخـري في العلـوم السياسـية في الجامعـة العبريـة بالقـدس، وحائـز عـلى جائـزة إسرائيـل لأبحـاث العلـوم السياسـية عـام ١٩٩٦م، وعضـو في الأكاديميـة الوطنيـة الإسرائيليـة للعلـوم، والمديـر العـام السـابق لـوزارة الخارجيـة.

تـم تعيينهـا للتحقيـق في النـزاع («لجنـة غولدسـتون»، والتـي سـميت عـلى اسـم القـاضي ريتشـارد غولدسـتون[1] الـذي ترأسـها)، بإدانـة إسرائيـل (تقريبًـا) بجميـع الاتهامـات التـي وجهـت إليهـا في وقـت سـابق في وسـائل الإعـلام. ولم تنجـح الحملـة التـي شـنتها إسرائيـل ضـد توصيـات اللجنـة وضـد رئيسـها ولا انسـحاب غولدسـتون الجـزئي مـن الكلـمات القاسـية المكتوبـة في التقريـر بتغيـير الانطبـاع والصـورة الراسـخة في الـرأي العـام العالمـي في هـذا السـياق.

حتـى في لبنـان في صيـف عـام ٢٠٠٦م، لم يقدر مكتـب المتحدث باسـم الجيـش الإسرائيـلي مـدى أهميـة التعـاون مع وسـائل الإعلام الدوليـة مـن أجـل الحصـول عـلى الشرعيـة الدوليـة. وفي عمليـة «الرصـاص المصبـوب»، كان عـلى مكتـب المتحـدث أن يسـتخلص درسًـا آخـر: حتـى لـو تمـت معاملـة الصحفيـين الأجانـب بشـكل أفضـل، لـكان ذلـك شرطًـا ضروريًا، لكنـه بالتأكيـد ليس شرطًـا كافيًا لتحقيـق النـصر في حـرب الروايـات. فالتحـدي الـذي تمثلـه الحـرب الإعلاميـة معقـد، ومـن يريـد اسـتخدامها للتغطيـة والتأثـير يجـب عليـه أولاً وقبـل كل شيء أن يفهـم منطقهـا ويتـصرف عـلى أساسـه.

وهكـذا، عـلى سـبيل المثـال، أثبتـت دراسـة تجريبيـة حللـت الطريقـة التـي يتـم بهـا تغطيـة الحـروب أن نهـج لعـب دور

(١) ريتشـارد غولدسـتون Richard J. Goldstone (ولـد عـام ١٩٣٨): قـاضي جنـوب إفريقـي، والمدعـي العـام في محكمـة العـدل الدوليـة لجرائـم الحـرب. تـرأس بعثـة الأمـم المتحـدة لتقـصي الحقائـق في نـزاع غـزة.

الضحيـة ناجـح بشـكل خـاص. حيـث تبـين الدراسـة بوضـوح أنـه عندمـا تعـرض التمثيـلات المرئيـة هجومـاً إرهابيـاً عـلى إسرائيـل، فـإن وسـائل الإعـلام الدوليـة تميـل إلى دعـم الروايـة الإسرائيليـة إلى حـد كبـير. وعـلى النقيـض مـن ذلـك، عندمـا يكـون المسـتهلكون الإعلاميـون أكـثر تعرضـا لمشـاهد الأضرار التـي تلحق بالفلسـطينيين في غـزة نتيجـة لهجـوم شـنه الجيـش الإسرائيـلي، يـزداد الدعـم الإعلامـي لهـم. وهـذا هـو بالتحديـد سـبب عمـل نشـطاء حـماس مـن داخـل التجمعـات المدنيـة. أي صلـة بـين نتائـج العنـف وأسـبابه، أي صلـة بـين الصـدام العسـكري وخلفيتـه السياسـية، أي ارتبـاط تاريخـي أوسـع نطاقـا، تـكاد تكـون غـير ذات صلـة. حيـث يصـوغ المشـاهدون موقفًـا عاطفيًـا، وليـس معرفيًـا، بنـاءً عـلى كميـة الصـور التـي يتـم جعلهـم يشـاهدونها، ومـن يحظـى بالتصويـر عـلى أنـه ضحيـة في تلـك الصـور يحظـى أيضًـا بتعاطـف الـرأي العـام.

عملية أسطول مرمرة

تم الكشف عن أدلة أكثر جدية على صعوبة فهم الجيش الإسرائيلي لطبيعة الحرب الموجهة إعلاميًا في قضية مرمرة، حيث انطلقت ست سفن في ٢٢ مايو/أيار عام ٢٠١٠م من تركيا متوجهة إلى قطاع غزة للاحتجاج وتحدي الحصار الذي فرضه الجيش الإسرائيلي عليه. وقد أوضح الحدث أنه على الرغم من الاستخدام الواسع النطاق لمفاهيم مثل «الشرعية» و «حرب الروايات» و «العمليات القائمة على التأثيرات» و «العمليات المعلوماتية»، إلا أن الجيش الإسرائيلي كان ما يزال يفكر في نفس الوقت بالمفاهيم القديمة للـ «هسبارا – الدعاية»، وليس حتى في مفهوم أكثر تقدمًا مثل «الدبلوماسية العامة» ولم يكن يدرك الفرق بين الحرب المغطاة إعلاميًا أو الوسيطة والحرب الموجهة إعلاميًا.

في ظاهر الأمر، بدا أن الجيش الإسرائيلي تعلم من دروس عملية «الرصاص المصبوب» واستعد جيدًا للمعركة من أجل الرواية. فقد قامت وحدة المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي بتزويد مقاتلي الكوماندوز البحري بكاميرات؛ وكان من المخطط أن يصعد مصورو فريق التصوير التابع للوحدة على متن

سفينة مرمرة مع الموجة الثانية من المقاتلين، بعد سيطرة قوات الكوماندوز على السفينة؛ كما ألحق المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي بالعملية ممثلين عن ١٥ وسيلة إعلامية؛ وتم تنسيق التعاون بين الأذرع بهدف دعم الجهود الإعلامية: حيث تم تصوير مقاطع فيديو من طائرات بدون طيار حلقت فوق السفينة ومن سطح سفن سلاح البحر وكان الهدف منها الوصول بسرعة إلى الشاطئ. ومن هناك، تم تنظيم المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي من أجل توزيعها بسرعة على وسائل الإعلام العالمية. «ولأول مرة، تم وضع طائرتي هليكوبتر في خدمة المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي لنقل المواد من عرض البحر إلى سديه دوف وبلماحيم ومن هناك، على متن دراجات نارية تابعة للشرطة العسكرية، مباشرة إلى وحدة التصوير. كما حاول الجيش أيضًا شل نظام الاتصالات في السفينة".

على الرغم من هذه الاستعدادات، فشلت العملية. فخلال الاستيلاء على سفينة مرمرة في الليلة الواقعة بين ٣١ مايو/أيار و ١ يونيو/حزيران عام ٢٠١٠م، قُتل تسعة من المشاركين في القافلة وجُرح ٢٠ آخرون. بالإضافة إلى إصابة عشرة مقاتلين من الجيش الإسرائيلي. وطوال ١٠ ساعات، انتشرت في جميع أنحاء العالم صور ولقطات لاستيلاء مقاتلي الكوماندوز الإسرائيليين على سفينة مرمرة – وفقًا لرواية المشاركين في القافلة (جميعهم فلسطينيون أو مؤيدون لهم). فتغلبت الرواية الفلسطينية

عـلى نظيرتهـا الإسرائيليـة، ونتيجـة لذلـك تـضررت صـورة إسرائيـل بشـدة، بـل وانهـارت شرعيـة العمليـة الإسرائيليـة أيضًـا.

في إسرائيـل، يُعـزى الفشـل إلى أوجـه قصور في الطريقـة التي تم بهـا تفعيـل قـوة الكومانـدوز، ولكـن الفشـل كان نابعـا أولاً وقبـل كل شيء مـن حقيقـة أن كبـار صنـاع القـرار – سـواء عـلى المسـتوى العسـكري أو المسـتوى السـياسي – لم يفهمـوا جوهـر القافلـة. في حـين كان هنـاك بالفعـل مـن اقـترح عـلى رئيـس الـوزراء نتنياهـو السـماح لسـفينة «مـافي مرمـرة» بالوصـول إلى غـزة، لأن «الأمـر كلـه يتعلـق بمجـرد اسـتفزاز إعلامـي، وليـس إمـدادات بالأسـلحة أو الذخـيرة، وإذا مـرت القافلـة ووصلـت إلى غـزة فلـن يحـدث أي ضرر. مقارنـة باحتماليـة تفجيريـة للاسـتيلاء عـلى سـفينة كبيرة تعج بنشـطاء إسـلاميين معادين في وسـط البحـر»، لكـن رئيـس الـوزراء رفـض هـذه النصيحـة. وبـدلاً مـن النظـر إلى القافلـة عـلى أنهـا مـا كانـت عليـه – مـشروع علاقـات عامـة، وحدثـا إعلاميًـا دوليًـا، ومشـهدا مصمـما لإطـلاق صـور رمزيـة تمثـل الـصراع الإسرائيـلي الفلسـطيني مـن أجـل إثـارة التعاطـف مـع الفلسـطينيين الذيـن يعانـون في غـزة – نظـروا إلى ذلـك في إسرائيـل عـلى أنـه عمليـة عسـكرية. وقـد صرح قائـد سـلاح البحـر، اللـواء إيـلي مـاروم (تشـيني)[1]، أن الأمـر ليـس أقـل مـن «عمـل إرهـابي بحـري".

(١) أليعـازر (تشـيني) مـاروم **אליעזר (צ'ייני) מרום** (ولـد عـام ١٩٥٥م): هو لواء احتياط في الجيـش الإسرائيـلي، كان في منصبـه الأخـير قائدا لسـلاح البحـر الإسرائيلي بين عامـي ٢٠٠٧ – ٢٠١١م.

مـن أجـل هـذه الفرصـة لالتقـاط الصـور، أعـد منظمـو القافلـة مصيـدة للجيـش الإسرائيـلي: ففـي حـين رأى مئـات الـركاب أنفسـهم يشـاركون في أسـطول سـلام، صعـد عـلى مـتن السـفينة أيضًـا مجموعـة مـن نشـطاء IHH، وهـي منظمـة هجينـة تقـوم بأنشـطة إنسـانية وفي نفـس الوقـت تدعـم المنظـمات الإرهابيـة الإسـلامية (العـدد الدقيـق لأعضـاء منظمـة IHH عـلى السـفينة غـير معـروف ويـتراوح بـين ٤٠ – ١٠٠ مـن بـين ٦٠٠ رجـل وامـرأة كانـوا عـلى مـتن السـفينة). حيث كان مـن المفترض أن يقـاوم هؤلاء النشـطاء جسـديًا مـن أجـل حمـل مقاتـلي الجيـش الإسرائيـلي عـلى اسـتخدام القـوة ضدهـم وبالتـالي صنـع «ذخـيرة مـن الصـور» ضـد إسرائيـل. وهـذه الصـور – كـما تـم التخطيـط لهـا منـذ البدايـة – سـيتم نشرهـا في العـالم وسـتعرض الطبيعـة الصارخـة، والعنيفـة، وغـير الشرعيـة لإسرائيـل وجيشـها أمـام محبـي السـلام والمدافعـين عـن حقـوق الإنسـان الذيـن يهتمـون بمصـير الفلسـطينيين.

كان ينبغـي عـلى الجيـش الإسرائيـلي أن يتخـذ إجـراءً مضـادًا بنفـس الأسـلوب. فبعـد فشـله في منـع الأسـطول بطـرق سريـة، مـن خـلال تخريـب السـفن، كـما فعـل في المـاضي (ومـن المرجـح أن يفعـل في المسـتقبل، إذا لـزم الأمـر)، كان يجـب عليـه أن يتعامل معـه كحـدث علاقـات عامـة وليـس كعمليـة قتاليـة ضـد مـا تـم وصفـه في إسرائيـل بمبالغـة كبـيرة بأنـه «حـرب ضـد وجـود الدولـة ذاتـه»، «مرحلـة أخـرى في حـرب الإبـادة ضـد دولـة إسرائيـل،

معركة أخرى في حرب هدفها النهائي تدميرها المادي والروحي".

لكن الجيش الإسرائيلي تصرف بالضبط وفقًا للخطة التي وضعها خصومه ودخل مباشرة في الفخ الذي تم نصبه أمامه. حيث كان خطؤه الأول أنه أرسل مقاتلي كوماندوز ضد السفينة؛ وكان خطؤه الثاني أنه استخدم الذخيرة الحية ضد ركاب القافلة الذين كانوا مدنيين؛ أما خطؤه الثالث فكان اعتقاده أنه سيكون قادرًا على التمتع بالسيطرة الاحتكارية على المعلومات المتدفقة من السفينة. حتى أنه قام من أجل ذلك بإعداد خطة محكمة لمنع جميع عمليات الإرسال الإلكترونية من السفينة. وقد فشلت هذه الخطة، وبمجرد ظهور صعوبات عملياتية في السيطرة على السفينة، وقيام مقاتلي الكوماندوز التابعين لسلاح البحر باستخدام الأسلحة النارية – سواء للدفاع عن النفس، بحسب روايتهم، أو ما إذا كانوا أول من تصرف بعنف، بحسب ادعاء الركاب الذين كانوا على متن السفينة – كان من الواضح أن إسرائيل قد خسرت المعركة. وحقيقة أن سلاح البحر نجح في منع السفينة من الوصول إلى غزة لا علاقة لها بمسألة النصر أو الخسارة.

امتلأت عناوين معظم الصحف في العالم بصور درامية وتضمنت اتهامات قاسية ضد إسرائيل. حيث تم اتهامها بانتهاك القانون وارتكاب إرهاب دولة وقتل مدنيين أبرياء. وكانت الكلمات التي سيطرت على العناوين الضخمة التي

ظهرت على جميع الصفحات الأولى في صباح اليوم التالي للعملية، هي: «مذبحة»، «قتل»، «هجوم خاطف»، «دبلوماسية السفن الحربية»، «إسرائيل دولة قراصنة»، «حمام دم في قلب البحر»، «إسرائيل تقتل المحتجين»، «العالم مندهش»، «العالم يدين إسرائيل»، «إسرائيل معزولة في العالم".

اتضح من خلال العملية ضد القافلة أنه حتى عند الإدارة الناجحة للحرب الموجهة إعلاميًا هناك مشكلة أساسية. ففي النظام الجذري (الريزوماتي)، ليس من المستحيل التحكم في الرسائل فحسب، بل من المستحيل أيضًا توجيه رسائل تفاضلية إلى جماهير مختلفة. حيث يمكن لكل من الجماهير المستهدفة عرض الرسائل الموجهة لجمهور مستهدف آخر. وتزداد المشكلة سوءًا عندما يكون هناك تناقض بين الرسائل الموجهة إلى الجماهير المختلفة.

أراد الجيش الإسرائيلي من خلال قضية أسطول مرمرة أن يثبت للعالم أن المشاركين في القافلة لم يكونوا نشطاء سلام بل من مؤيدي الإرهاب. ولذلك، كان مهتمًا بنشر الصور التي يظهر فيها المشاركون في القافلة وهم يضربون مقاتلي الكوماندوز الإسرائيليين بقوة ويعرضون حياتهم للخطر. ومع ذلك، لم يرغب في أن يكشف للجمهور الإسرائيلي عن الصور التي يظهر فيها جنود النخبة وهم يتعرضون للضرب والإهانة. وقد

شهد وزير الدفاع إيهود باراك[1] على ذلك علانية في شهادته أمام مراقب الدولة، حيث قال: «كان من الصعب نشر الصور، لأنهم أرادوا تجنيب الجمهور الشعور بالحرج والإذلال». وهكذا كان هناك تأخير لمدة عشر ساعات في نشر المادة الإسرائيلية، مما سمح للرواية الفلسطينية بالسيطرة على الفضاء الإعلامي. كما أن حقيقة أن جميع المواد التي تم تصويرها على متن السفينة تم جمعها من قبل الجيش الإسرائيلي وهو يرفض نشرها منذ الحادثة، تعزز موقف أولئك الذين يزعمون أن المواد المصادرة تحتوي على أدلة على أن جنود الجيش الإسرائيلي كانوا بالفعل أول من استخدم الذخيرة الحية.

كان أسطول مرمرة جولة أخرى في سلسلة جولات من الحروب الموجهة إعلاميًا - جولة انتهت دون أن تكون يد إسرائيل هي العليا. وكما حدث في السابق، تم في أعقاب الأسطول أيضًا تشكيل لجان تحقيق لمناقشة الإخفاقات (لجنة تيركل، لجنة أيلاند)، إضافة إلى تعامل مراقب الدولة مع هذا الأمر أيضًا. ويتضح من النتائج التي توصلت إليها جميع هذه الهيئات أن القيادة الأمنية الإسرائيلية لم تفهم جوهر الحرب الجديدة بعد. ولهذا السبب، لم تختر الاستراتيجية المناسبة لمثل هذه الحرب وفوجئت عندما تلقت ضربة من قبل عدو أدنى

(١) إيهود باراك **אהוד ברק** (ولد عام ١٩٤٢م): سياسي إسرائيلي، كان عاشر رئيس وزراء لإسرائيل ووزير الدفاع بين عامي ١٩٩٩ - ٢٠٠١م ثم تولى مرة أخرى وزارة الدفاع بين عامي ٢٠٠٧ - ٢٠١٣م. وقد رأس باراك حزب العمل الإسرائيلي من عام ٢٠٠٩م وحتى عام ٢٠١٣م.

بكثير من إسرائيل من الناحية العسكرية.

لم تكن المفاجأة من أحداث أسطول مرمرة ظرفية بل كانت مفاجأة أساسية، وفقًا لتصور تسفي لانير[1](١٣). حيث تحدث المفاجأة الظرفية بسبب الفشل في جمع المعلومات أو معالجتها أو نشرها. ونحن نفترض أن نموذجنا الإدراكي فعال، ولا يتبقى سوى مشكلة استخدامه في المكان والزمان المناسبين. وزعم لانير أن المفاجأة الأساسية أكثر خطورة، لأنها لا تتعلق بكمية المعلومات التي لدينا أو بجودتها، بل تنشأ من مجموعة تفسيرية من المفاهيم التي لم تعد ذات صلة.

عندما يكون هناك تناقض عميق بين الواقع والطريقة التي تنظر بها المنظمات أو الأنظمة إليه وتصفه بها، تنشأ فجوة موضوعية. وتسبب فجوة كهذه عمى واسعا ومتعدد الأبعاد فيما يتعلق بالعمليات والأحداث الجوهرية في الواقع، وبالتالي يقصر الطريق إلى المفاجأة الأساسية. كما تفسر هذه الفجوة أيضًا قوة انهيار المفهوم القديم في مواجهة الحدث المفاجئ.

حتى المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي، الذي يبدو أنه فهم الانتقال إلى العصر الجديد من الحروب بشكل أفضل من غيره، كان لا يزال يتحدث بلغة النموذج القديم عندما تم إجراء مقابلة معه بعد العملية، حيث قال: «لقد خرج

(١) تسفي لانير **צבי לניר** (ولد عام ١٩٣٦م): مؤرخ إسرائيلي، هو مؤسس ورئيس شركة «فراكسيس» ومطور نظرية «المفاجأة الأساسية» وانعكاساتها على استراتيجيات التفكير والإدارة المتكاملة، ومؤلف كتاب «زمن العقل».

أحد الأطراف في عملية استفزازية، وخرجنا نحن في عملية عسكرية. لا توجد في الجيش الاسرائيلي عمليات تبث بشكل حي ومباشر. هذه عملية عسكرية، ونحن لا نبث عمليات على الهواء مباشرة». وفي مكان آخر، قال: «ليس كل شيء دعاية... من يبحر في قافلة بحرية كهذه فإنه يبحث عن البعد الدعائي ويجد نفسه في ‹وضع الفوز في جميع الحالات›: إذا نجح – فقد انتصر، وإذا لم ينجح – فقد انتصر أيضًا. وبهذا المعنى، من المستحيل الانتصار في مثل هذه العملية... لقد خرج أحد الأطراف في عملية دعائية، وخرج الطرف الآخر في عملية لوحدة شيطت ١٣ وليس لدورية استطلاع المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي...» ولكن منذ متى يشن الجيش الإسرائيلي عملية عسكرية وهو يعلم مسبقًا على وجه اليقين أنه لن ينتصر فيها؟

كانت حملة مرمرة لقاء بين خصمين اثنين، حيث كان أحدهما مستعدا للحرب الجديدة الموجهة إعلاميًا، والآخر لا يزال مكبلا بأغلال الحرب القديمة. وقد قام منظمو القافلة البحرية، الذين فهموا منطق وسائل الإعلام، بإعداد «عملية علاقات عامة» وعملوا على حشد الدعم الدولي لروايتهم: تقديم إسرائيل على أنها تستخدم إجراءات عنيفة ضد أيديولوجيين يسعون إلى السلام. وفي مقابل ذلك، استخدم الجيش الإسرائيلي الوسائل القديمة التي كان يمتلكها في صندوق

الأدوات المألوف للحرب الحركية: سيطرة مقاتلي الكوماندوز على سفينة في وسط البحر. وقد سعى على الأكثر إلى تحسين عمليات الدعاية الخاصة به فيما يتعلق بالعملية.

من خلال قيامه بذلك، أثبت الجيش الإسرائيلي أنه ما زال لا يفهم تمامًا جوهر الحرب التي يوجهها الإعلام. لذلك فلا عجب أن يكون، وهو الجانب الأقوى في هذا اللقاء، قد خرج مهزومًا. حيث خسرت إسرائيل المعركة من أجل قلب وسائل الإعلام وتضررت في الساحة القانونية وفوق كل شيء، ثار الرأي العام العالمي ضدها. وكان لكل ذلك ترجمة حقيقية في الساحة السياسية، حيث كان الضرر فوريًا وشديدًا. وقد تضمن إدانات من قبل رؤساء حكومات في أوروبا وأزمة حادة في العلاقات مع تركيا وتعطيل العلاقات الدبلوماسية مع دول أخرى. وفي نهاية المطاف، ثنى الأسطول أيضًا يد إسرائيل، واضطرت للإعلان عن تخفيف الحصار عن غزة.

عامود السحاب

حرب تويتر الأولى

في السنوات التي أعقبت عمليتي «الرصاص المصبوب» وأسطول مرمرة، أظهر الجيش الإسرائيلي قدرته على استخلاص الدروس من الإخفاقات السابقة وكفاءته في التكيف مع المواقف الجديدة، واستمر في تطوير ردود على تهديدات حماس، بما في ذلك الحرب الموجهة إعلاميًا التي تشنها المنظمة. وقد وضع الجيش الإسرائيلي في الخدمة أنظمة دفاع مضادة للصواريخ والقذائف، وبالتالي توفير رد مناسب على التهديد الرئيسي لحماس (تم اعتبار التهديد تحت الأرض - حفر الأنفاق من قطاع غزة إلى إسرائيل - أقل خطورة، وبالتالي كان التعامل معه بطيئا). وقد اتضح في عملية «الجرف الصامد» أن هذا النهج كان خاطئًا. وفي خريف عام ٢٠١٧م، لا تزال إسرائيل في خضم عملية هندسية معقدة ومكلفة لبناء جدار تحت الأرض على طول الحدود مع قطاع غزة (مع انتهاء العملية في عام ٢٠١٩م - كما يزعم مخططو العائق تحت الأرض - سيتم حرمان حماس من إمكانية حفر الأنفاق باتجاه إسرائيل).

أدى الاعتراف بأن إسرائيل في حرب لا نهاية لها إلى تطوير

مفهوم «المعركة بين الحروب». وهو يقوم على مبدأين: مبدأ التأجيل ومبدأ الضاحية.

وفقًا للمبدأ الأول، ستأتي الجولة التالية في نهاية المطاف في موعد ما، لكن يجب تأجيلها قدر الإمكان من خلال ضرب تنظيم العدو. غير أنه من أجل تجنب التصعيد، يجب أن يتم ذلك بأقل قدر ممكن من التوقيع وفي معظم الحالات دون الاعتراف به صراحة. ووفقًا لهذا المبدأ، فقد هاجم الجيش الإسرائيلي، من بين أمور أخرى، قوافل أسلحة (مصدرها إيران بشكل أساسي) لحماس وحزب الله ومستودعات ذخيرة. حيث وردت تقارير عن مثل هذه الهجمات في لبنان وسوريا وقبالة سواحل السودان وفي الصحراء السودانية. ويشارك في هذا المجهود كل من طائرات سلاح الجو وسفن سلاح البحر ومقاتلو الوحدات الخاصة.

وفقًا للمبدأ الثاني، بمجرد اندلاع جولة من العنف، فسيعمل الجيش الإسرائيلي على إنهائها بأسرع ما يمكن من خلال إلحاق أضرار جسيمة ومؤلمة بالعدو. وقد أطلق على هذا المبدأ اسم «عقيدة الضاحية» (على اسم الدمار الهائل الذي ألحقه سلاح الجو في حرب لبنان الثانية بحي الضاحية في بيروت، وهو معقل حزب الله). حيث أن الهدف الرئيسي من العملية العسكرية الشرسة والمكثفة هو خلق ردع من شأنه تأجيل الجولة القادمة لأطول فترة ممكنة.

هناك مفارقة في عقيدة الضاحية: حيث أن الضربة النارية الكبيرة والمؤلمة - خاصة إذا كانت مصحوبة بمناورة برية عميقة وحاسمة - قد تردع العدو بالفعل. والدليل على ذلك هو الهدوء المطول على حدود لبنان منذ عام ٢٠٠٦م والهدوء النسبي على حدود قطاع غزة منذ عام ٢٠١٤م. غير أن الاستخدام المكثف للنيران سيتسبب مرة أخرى في مشاهد الدمار والقتل التي سيسارع العدو إلى نشرها في جميع أنحاء العالم. إضافة إلى أن المناورة البرية في بيئة مدنية مزدحمة من شأنها أن تزيد من الخطر على حياة الجنود، وكما هو معروف فإن الرأي العام في إسرائيل يواجه صعوبة بالغة في تحمل الخسائر في صفوف جنوده.

يتطلب الالتزام الصارم بأرواح المقاتلين إظهار حساسية أقل للأضرار الجانبية التي تلحق بالسكان المدنيين - مما سيضر بالشرعية الدولية ويؤدي إلى خسارة إسرائيل في الحرب الموجهة إعلاميًا والحرب القانونية. كما أن الادعاءات بأن الروس والأمريكيين مسؤولون عن مقتل عشرات الآلاف من المدنيين في سوريا والعراق خلال القصف العشوائي لأهداف إرهابية لن يساعد إسرائيل عندما يتم اتهامها بانتهاك القانون الدولي. وسيتم الحكم عليها من قبل المجتمع الدولي بناء على معايير أكثر صرامة.

كان الخوف من إلحاق أضرار جسيمة بالسكان المدنيين أحد

الأسباب الرئيسية التي دفعت الجيش الإسرائيلي في العملية التي تلت عملية «الرصاص المصبوب» - عملية «عمود السحاب» (١٤ - ٢١ نوفمبر/تشرين الثاني عام ٢٠١٢م) إلى الامتناع عن دخول قطاع غزة والاكتفاء بحملة جوية. وبالفعل، كان عدد الضحايا في صفوف السكان المدنيين الفلسطينيين في قطاع غزة منخفضًا نسبيًا مقارنة بعملية «الرصاص المصبوب» (بضع عشرات مقابل بضع مئات).

بالفعل، في السنوات التي سبقت عملية «عمود السحاب»، حقق الجيش الإسرائيلي نقلة نوعية في تطوير قدراته في مجال الحرب الإعلامية، لدرجة أن بعض المراقبين اعتبروه الجيش الأكثر تقدمًا في العالم في هذا المجال. وقام بإنشاء صفحة على موقع YouTube كان من بين ما تم عرضه عليها لقطات من طائرات بدون طيار تظهر إرهابيين يعملون انطلاقًا من المؤسسات المدنية. وفي مقابل ذلك، عرض الفلسطينيون على موقعهم الإلكتروني، Palutube.com، بشكل أساسي صورًا للدمار الذي خلفته هجمات الجيش الإسرائيلي في القطاع.

في الحرب الافتراضية التي دارت على الإنترنت، لم يشارك الجيش الإسرائيلي وحماس فحسب، بل أيضًا مدنيون تطوعوا للمساعدة في المجهود الحربي، وكذلك منظمات اجتماعية. حيث تم اتخاذ مثل هذا الإجراء الخاص من قبل الطلاب في المركز متعدد التخصصات في هرتسليا. وقد كان هناك من رأى

في هـذا التـورط المـدني في الحـرب تعبـيرا عـن عسـكرة المجتمـع المـدني وعرّفهـا بــ «عسـكرة الإعـلام» أو «العسـكرة الرقميـة".

كتبــت أمــيرة الحســيني، -محــررة شــؤون أفريقيــا والــشرق الأوســط- عــلى موقــع Onlglobalvoices.org، الــذي يجمــع مدونــين مــن جميــع أنحــاء العــالم: «كانــت هنــاك حربــان تـدوران في نفـس الوقـت – واحـدة عـلى الأرض والأخـرى في العـالم الافـتراضي». وقـد كانـت الحـرب الافتراضيـة شرسـة، حيـث حـاول مخترقــون (هاكــرز) مــن كل جانــب مهاجمــة مواقــع الويــب الخاصــة بالجانــب الآخــر وزرع رســائل نقديــة لــدى بعضهــم البعـض. وتـم إنشـاء مجموعـات Facebook، انضـم إليهـا مئـات وآلاف الأعضـاء. وقـد قامـت إحـدى المجموعـات، هـي -Help Isra el Win، بتشـجيع المسـتخدمين عـلى تنزيـل برامـج تسـمح لأجهـزة الكمبيوتـر الخاصـة بهـم بالتسـلل إلى مواقـع الويـب الفلسـطينية والتسـبب في انهيارهـا. كـما عمـل موقـع إسرائيـلي آخر، وهـو -Jew ish Internet Defense Force، عـلى إسـقاط المواقـع الإلكترونيـة التـي اعتُـبرت معاديـة للسـامية أو شـجعت الإرهـاب، مسـتخدما أسـاليب تعتـبر درجـة شرعيتهـا محـدودة وفقًـا للقانـون الـدولي.

في الوقـت نفسـه، قـام الجيـش الإسرائيـلي بتحسـين التوثيـق العمليـاتي. وإدراكًا منـه لحقيقـة أنـه لا يمكـن أن يكتفـي بتوثيـق الاحتـكاك الإسرائيـلي الفلسـطيني مـن قبـل المصوريـن الصحفيـين، وخاصـة المصوريـن الأجانـب، فقـد أدرك أنـه يجـب عليـه أن يكون

مصـورًا خاصًـا بنفسـه. حيـث قـام في البدايـة بتوزيـع الكاميـرات عـلى الجنـود، ثـم أنشـأ بعـد ذلـك نظـام تغطيـة عمليـاتي يتبـع مبـاشرة للمتحـدث باسـم الجيـش الإسرائيـلي.

وقـد عمـق الجيـش وعـي ضباطـه وجنـوده فيـما يتعلـق بـضرورة توثيـق النشـاط العسـكري للمسـاعدة في حـالات الحاجـة في المعركـة القانونيـة. حيـث قـال تسـفيكا جـولان، مـن وحـدة المتحـدث باسـم الجيـش الإسرائيـلي: «لا يقـل التصويـر عـن أدوات الحـرب الاسـتراتيجية»، وأضافـت المقـدم أفيتـال ليبوفيتـش[1] مـن وحـدة المتحـدث باسـم الجيـش الإسرائيـلي: «خـلال العمليـة، أجـرى ضباطنـا مئـات المقابـلات وتمكنـا مـن الحصـول عـلى صـورة متوازنـة للغايـة للعمليـة في وسـائل الإعـلام الدوليـة... وعـلى عكـس مـا حـدث في عمليـة «الرصـاص المصبـوب»، حيـث مُنعـت وسـائل الإعـلام الأجنبيـة مـن دخـول غـزة، وكان يتـم تزويدهـا بشـكل أسـاسي مـن قبـل المراسـلين المسـتقلين مـن غـزة الذيـن قدمـوا صـورة مشـوهة، فقـد كانـوا في عمليـة «عمـود السـحاب» في الداخـل وشـاهدوا بـأم أعينهـم الصواريـخ يتـم إطلاقهـا مـن مناطـق مأهولـة. وقـد أعـدوا تقاريـر حـول ذلـك بأنفسـهم، ولم يكـن علينـا محاولـة إقناعهـم".

دخـل الجيـش الإسرائيـلي عـصر وسـائل التواصـل الاجتماعـي

(١) أفيتـال ليبوفيتـش **אביטל ליבוביץ'** (ولـدت عـام ١٩٧١م): هـي المديـرة العامـة للجنـة اليهوديـة الأمريكيـة في إسرائيـل، ومقـدم احتيـاط في وحـدة المتحـدث باسـم الجيـش الإسرائيـلي.

في عام ٢٠٠٨م، وقد بدأ بذلك بشكل ارتجالي من قبل ضباط شباب في وحدة المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي. وفي عام ٢٠٠٩م، تم بالفعل إنشاء هيئة إعلامية جديدة في إطار وحدة المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي، وسرعان ما تم إنشاء مدونة للجيش الإسرائيلي على الإنترنت (IDFblog.com)، وصفحة فيسبوك باللغة الإنجليزية (IDFSpokesperson)، وقناة على يوتيوب (IDFnadesk)، وحساب تويتر، وتبعهم أيضًا مواقع إلكترونية على Flickr وإنستغرام وGoogle+ وTumblr.

كانت عملية «عمود السحاب» في عام ٢٠١٢م أول عملية عسكرية في تاريخ الحروب يتم الإعلان عنها على الشبكات الاجتماعية. وقد استعد لواء المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي في وقت مبكر للحملة الإعلامية وقدم نفسه في الحملة بعقيدة منظمة بالتوازي مع «العقيدة العسكرية ذات التأثيرات الموجهة» التي استخدمها الجيش الإسرائيلي في نفس العملية. حيث شنت إسرائيل هجومًا إعلاميًا بقصد إحداث تأثير في الوعي: لتوضح للمجتمع الدولي صواب كفاحها وأخلاقيات نضالها من أجل إضفاء الشرعية على العملية؛ ولاستعراض القدرات وردع حماس ومؤيديها في غزة، وإظهار التصميم، وأخيراً تقديم صورة النصر في أذهان الرأي العام في إسرائيل.

وقد تكررت نفس الرسالة على جميع القنوات: يتعرض الإسرائيليون الأبرياء لهجوم بصواريخ يطلقها إرهابيون؛

ويحاول الجيش الإسرائيلي حماية الإسرائيليين من خلال ضرب الإرهابيين الذين يعملون من قلب تجمعات السكان المدنيين ويبذل الكثير من الجهد لتجنب إلحاق الأذى بهؤلاء المدنيين.

تقرير لجنة غولدستون، الذي نشر في أعقاب عملية «الرصاص المصبوب» والذي اتهمت فيه إسرائيل بإلحاق الأذى بالمدنيين، ترك بصماته على مخططي عملية «عمود السحاب». لذلك، فضد ما يقرب من ١٥٠٠ هدف هاجمها الجيش الإسرائيلي على مدار سبعة أيام وخمس ساعات، أطلق بشكل أساسي ذخائر موجهة بدقة وسعى جاهدا لإنهاء القتال في أسرع وقت ممكن ودون الانجرار إلى تحرك بري. وأثناء المواجهة، نشر قسم الإعلام الجديد التابع للمتحدث باسم الجيش الإسرائيلي تحديثات متكررة حول القتال والصواريخ التي تسقط على المدن الإسرائيلية وغارات سلاح الجو الإسرائيلي. وقد اكتسبت فكرة تجنيد المدنيين للجهود الحربية زخماً خلال أيام القتال، ولأول مرة تمت دعوة المدنيين للانضمام إلى معركة الرأي العام في مجتمع المدونات.

كما تم أيضًا تعلم الدرس من عملية أسطول مرمرة: حيث أدرك المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي أن العمليات التي يتم بثها بشكل حي ومباشر هي من متطلبات الواقع الجديد، وبالتالي تم تقليص معدل تدفق الأخبار من ٧٢ ساعة إلى ٣٠ ثانية. ولكن خلال العملية، قام جنود شباب، أبناء جيل

السايبرنت - من تلقاء أنفسهم - بنشر مقاطع فيديو تظهر فيها ضربات سلاح الجو على أهداف تابعة لحماس. وفي حين جلبت هذه المقاطع البهجة للعديد من المشاهدين الإسرائيليين، إلا أنه عندما عرضت وسائل الإعلام الأجنبية هذه الفيديوهات تعززت الصورة القوية والعدوانية والعنيفة لإسرائيل.

وبحسب البيانات التي جمعها بوبوفيتش، فقد حققت حملة الجيش الإسرائيلي معدلات انتشار مثيرة للإعجاب. ففي الليلة الأولى من العملية، تمت إضافة حوالي ٢٠ ألف متابع إلى صفحة تويتر التابعة للجيش الإسرائيلي وحوالي ٥٠٠٠ صديق جديد على فيسبوك. وفي ذروتها، قام قسم الإعلام الجديد بالتغريد حوالي ١١ مرة كل نصف ساعة، وأضيف إليه أكثر من ١٠٠ ألف متابع على تويتر. وتمت زيارة صفحة الفيسبوك باللغة الإنجليزية أكثر من ٥٧ مليون مرة، وتم حساب أكثر من ١٠ ملايين مشاهدة على قناة اليوتيوب التابعة للجيش الإسرائيلي، والتي تم تحميل ١٩٨ مقطع فيديو جديد عليها.

كما اتخذ الجيش الإسرائيلي نهجًا مضادًا نشطًا: فعلى سبيل المثال، في ١٩ نوفمبر/تشرين الثاني، «غرد» جون دونيسون، مراسل BBC في غزة، على تويتر بصورة لفتاة مصابة، وأعطاها عنوان «ألم في غزة» وأضاف: «مفجع». ثم بعد فترة وجيزة تبين أن هذه الصورة التقطت في ٢٨ أكتوبر/تشرين الأول عام ٢٠١٢م في سوريا، أي قبل نحو ثلاثة أسابيع من عملية غزة.

وقد اعتذر دونيسون عن النشر، في حين قامت هيئات موالية لإسرائيل بمطالبة BBC بطرده. وفي حالة أخرى، نشر نشطاء مؤيدون للفلسطينيين على تويتر صورة لعامل إنقاذ يعتني بطفل وكتبوا أنه «طفل فلسطيني مصاب»، لكن في التعليقات على تويتر وفيسبوك تبين أنه عامل إنقاذ إسرائيلي يعتني بطفلة أصيبت بصاروخ أطلقته حماس، حيث أن سترة عامل الإنقاذ كان مكتوبا عليها «كريات ملاخي".

خطأ آخر ارتكبته حماس كان عندما أعدمت قبيل نهاية العملية «عملاء» فلسطينيين. حيث نُفذ الإعدام أمام الكاميرات تحت أنظار جمهور في أحد شوارع غزة بأسلوب قطع الرؤوس الخاص بداعش، حتى أن الملابس السوداء للقتلة والملابس الحمراء للضحايا كانت مطابقة للصور التي وزعها داعش. وفيما يتعلق بالرأي العام الغربي، فقد كان هذا هدفًا في حد ذاته: حيث أن الإعدام دون عملية قانونية حقيقية يتناقض تمامًا مع الخطاب الحقوقي الليبرالي الذي تبنته حماس في محاولة لكسب تعاطف العالم. وعلاوة على ذلك، تسببت صور عمليات الإعدام على غرار داعش في ربط حماس بمنظمة جهادية متطرفة وبغيضة. وردا على ذلك، قامت منظمات حقوق إنسان دولية بدعوة حركة حماس إلى ضمان عدم إعدام المتهمين دون اتباع الإجراءات القانونية المناسبة.

استقطبت تعبئة وسائل الإعلام الجديدة للحملة انتباه

الإعـلام التقليـدي أكـثر مـن تحـركات المعركـة نفسـها. ففـي غضـون سـاعات قليلـة مـن بـدء الحملـة، نقلـت المواقـع الإخباريـة الكـبرى، مثـل «نيويـورك تايمـز» و «واشـنطن بوسـت»، رسـائل المتحـدث باسـم الجيـش الإسرائيـلي عـلى تويـتر، وظهـرت القصـة المتعلقـة بالاندمـاج المبتكـر لوسـائل الإعـلام الجديـدة في الـصراع عـلى الصفحـة الرئيسـية لشـبكة CNN خـلال الأيـام الأربعـة الأولى مـن العمليـة (مـن أصـل ثمانيـة). وعـلاوة عـلى ذلـك، فقـد أشـارت CNN أيضًـا إلى أن الحـرب عـلى البـث المبـاشر للجيـش الإسرائيـلي عـلى تويـتر قد احتلـت المرتبة الثالثـة في قائمة القصـص ال ١٢ الأكثر شـعبية لعـام ٢٠١٢م في مجـال التكنولوجيـا وأن الجيـش الإسرائيـلي قـد طـور بشـكل لا يصـدق إمكانيـات البـث المبـاشر للحـرب ورفـع اسـتخدام وسـائل التواصـل الاجتماعـي إلى آفـاق جديـدة.

إن الأخـذ في الاعتبـار منطـق وسـائل الإعـلام في عمليـة «عمـود السـحاب» قـد أدى إلى حقيقـة أنـه بالمقارنـة مـع جـولات الـصراع السـابقة في قطـاع غـزة، انتهـت هـذه العمليـة بنجـاح نسـبي. حيـث اكتفـى الجيـش الإسرائيـلي بتفعيـل النـيران وامتنـع عـن الدخـول الميـداني. وبذلـك قلـل مـن عـدد الإصابـات في صفوفـه وكذلـك عـدد الضحايـا في صفـوف المدنيـين الفلسـطينيين. وقد نشر في العـالم صـورا عـززت حججـه حـول الطبيعـة الإرهابيـة لحركـة حـماس، وحـول حقيقـة أنهـا تتعمـد إلحـاق الأذى بالمواطنـين الإسرائيليـين الأبريـاء، بـل وتعـرض مواطنيهـا للخطـر عـن سـابق

إصرار وترصد. وهكذا نجح الجيش الإسرائيلي في كسب كل من الشرعية الداخلية، في إسرائيل، والشرعية الخارجية، على الساحة الدولية.

في نهاية عملية «عمود السحاب» عام ٢٠١٢م، عندما تجاوز عدد المشاهدات على قناة الجيش الإسرائيلي على اليوتيوب ٢,٤٥ مليون مشاهدة، وبلغ عدد متابعي حساب تويتر الخاص بالجيش الإسرائيلي ١,٢٨٨ مليون شخص، أدركت وحدة المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي قوة الإعلام البديل. والنتيجة: تم استثمار الأموال، وتخصيص القوى العاملة لتطوير هذا المجال، لكن المشكلة الأساسية للحرب الجديدة لم تحل. وعلاوة على ذلك، فقد رأت حماس في تجنب الجيش الإسرائيلي القيام بعمل بري ضعفا إسرائيليا - الأمر الذي أضر بقوة الردع الخاصة بها ودفع حماس لمواصلة مهاجمة إسرائيل حتى تم التوصل إلى وقف لإطلاق النار بمساعدة مصرية. وقد ساد الشعور بالمرارة في إسرائيل مرة أخرى. فعلى الرغم من أن عدم الدخول البري قد أدى بالفعل إلى تقليل الإصابات في صفوف جنود الجيش الإسرائيلي، إلا إنه قيل ضده أن الجيش الإسرائيلي من خلال القيام بذلك قد حرم من إمكانية النجاح فيما كان من المفترض أن يفعله: توجيه ضربة ساحقة لحماس.

هل كان ينبغي على الجيش الإسرائيلي استخدام المزيد من القوة لمحاولة القضاء على حماس؟ أليست صحيحة الأطروحة

القائلة بأن استخدام القوة المفرطة في حروب مكافحة التمرد يكون أكثر ضررًا من نفعه، وأن ضبط النفس هو في الواقع قوة، كما يجادل بشجاعة فكرية العميد موشيه (تشيكو) تامير[1] في تحليله للحملة ضد حزب الله في جنوب لبنان؟ حيث أوضح أن: «نشاطنا العسكري، بدلاً من إضعاف قوة حزب الله ومكانته، أدى فقط إلى نتيجة عكسية». وتابع: «عمليا، كلما اشتد القتال ضد التنظيم، لا سيما بعد العمليات واسعة النطاق التي استخدم فيها الجيش الإسرائيلي قوة نيران كبيرة، كلما تعززت مكانته [حزب الله]. حيث تم استغلال الضغط الذي تعرض له السكان اللبنانيون جراء العمليات العديدة للجيش الإسرائيلي من قبل حزب الله لتعزيز الدعم للتنظيم... لم يتم مراعاة القاعدة المهمة في محاربة تنظيم حرب عصابات - السعي إلى عزله عن مصدر قوته، التأييد الشعبي، والإضرار بشرعيته".

هذه المعضلة العقائدية المتعلقة بحماس - سواء القضاء عليها أو الإبقاء عليها - رافقت كلا من القيادة السياسية الإسرائيلية والجيش الإسرائيلي أيضًا في الحملة التي أعقبت عملية «عامود السحاب» - وهي حملة جاءت بعد فترة توقف أقصر مما كان متوقعا الاستيلاء على سفينة «كلوز سي» - الاستعراض الذي فشل في خلق النجاح في عملية «عمود

(١) موشيه (تشيكو) تامير משה (צ'יקו) תמיר (ولد عام ١٩٦٤م): هو ضابط احتياط في الجيش الإسرائيلي برتبة عميد، شغل منصب قائد لواء جولاني وقائد فرقة غزة.

السحاب» شعوراً بأن الجيش الإسرائيلي قد تعلم الحرب الموجهة إعلاميًا وكيف نفسه مع منطقها، وأنه وجد حلولاً للمعضلات التي تثيرها وهو قادر على التعامل مع التحديات التي تطرحها. كما بدا أيضًا أن دروس الفشل الإعلامي في التعامل مع أسطول مرمرة قد تم استخلاصها وتعلمها في الجيش الإسرائيلي بسرعة، وخاصة في الوحدة الطليعية التابعة للجهاز المسؤول عن الحرب الإعلامية – لواء المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي. لقد كان الشعور السائد هو أن الجيش الإسرائيلي أثبت مرة أخرى مرونته وكفاءته في التكيف بسرعة مع واقع جديد وقدرته على تعلم الدروس والتغير.

في بداية عام ٢٠١٣م، بدا أن وحدة المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي قد استوعبت جوهر الحروب الموجهة إعلاميًا على المستوى الاستراتيجي أيضًا. وقد قال المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي العميد يوآف (بولي) مردخاي[1]: «نحن اليوم في عصر جديد، حيث الجيش قادر على الانتصار في الحرب أو الحملة، ولكن فقط بعد نهايتها يكتشف أنه قد انهزم فيها من ناحية الوعي. فالعالم بأسره في الوقت الحاضر يستهلك المعلومات كالوجبات السريعة، ولهذا السبب وصلنا إلى واقع حتى الحروب فيه يتم خوضها على الهواء مباشرة".

(١) يوآف (بولي) مردخاي **יואב (פולי) מרדכי** (ولد عام ١٩٦٤م): هو لواء احتياط في الجيش الإسرائيلي، شغل مناصب منسق أعمال الحكومة في المناطق، ورئيس الإدارة المدنية، والمتحدث باسم الجيش الإسرائيلي بين عامي ٢٠١١ – ٢٠١٣م.

كان الترتيب الجديد داخل لواء المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي بشكل أساسي، وامتد خارجه أيضًا. حيث بدأ اللواء في تجنيد جنود تم تدريبهم ليكونوا مقاتلين وفي نفس الوقت مصورين حربيين. وقد حصل هؤلاء على معدات خاصة تضمنت كاميرات فيديو وكاميرات ثابتة وحواسيب للمعالجة وبطاريات وكابلات وأنظمة إرسال عبر الأقمار الصناعية. وقد كتبت مراسلة هآرتس في مراجعة شاملة لحرب المعلومات التي يشنها الجيش الإسرائيلي: «مثل عربة بث، مثبتة على جندي واحد فقط".

أنشئت في الكرياه بتل أبيب غرفة عمليات بصرية، أصبحت مركز تحكم تتدفق إليه جميع المواد التي يتم تصويرها خلال العمليات والحروب. «حيث يجلس جنود ومجندات هناك على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع حول طاولة وينظرون إلى لقطات أمنية بالأبيض والأسود، ضبابية وغير واضحة، يتم عرضها على أربع شاشات على الحائط أمامهم. وتصل مقاطع الفيديو هذه تقريبًا من كل كاميرا تابعة للجيش الإسرائيلي في الميدان: فعلى شاشة واحدة يتم عرض تغذية من الكاميرات الموجودة على السياج الفاصل، وعلى الثانية – من بالونات المراقبة، وعلى الثالث – من الحدود المصرية. وقد أتيحت لضابطات الصف في غرفة العمليات، التي لم يكشف للجمهور عن وجودها إلا في فبراير/شباط عام ٢٠١٥م، إمكانية الاتصال

بـأي كامـيرا تابعـة لمراقبـات غرفـة العمليـات في القطـاع المعنـي وتصويـر مـا يحـدث في الميـدان. كـما تتدفـق إلى غرفـة العمليـات أيضًـا مـواد مـن كامـيرات تابعـة لسـلاح البحـر ومـواد «وحـدة التوثيـق والتصويـر".

في مقاطـع الفيديـو الخاصـة بالموثقـين، يمكـن عـلى سـبيل المثال رؤيـة جنـود يطلقـون النـار مـن خلـف شـجرة عـلى عدو غـير مرئي ويدخلـون منـزلًا مفخخًـا بالمتفجـرات في غـزة. وفي المجمـوع، فـإن حـوالي ٩٠٪ مـن المـواد البصريـة التـي يصورهـا الجيـش تصـل إلى غرفـة العمليـات. وأثنـاء وقـوع حـدث، عندمـا تبـدأ الشـائعات في الانتشـار عـلى واتسـاب، ويتسـبب المراسـلون والمحـررون بتعطيـل خطـوط الهاتـف وهـم يسـتعجلون طلـب المـواد، يقـوم ضبـاط الصـف وضابطـات الصـف في غرفـة العمليـات بمراقبـة المـواد التـي يتلقونهـا، ويجـرون عليهـا تحريـرا أوليـا – بشـكل أسـاسي إضافـة العناويـن والتحريـر بـين زوايـا التصويـر المختلفـة – ويرسـلونها إلى جميـع الأنظمـة بنقـرة إصبـع".

قـرر المتحـدث باسـم الجيـش الإسرائيـلي اعتـماد أسـلوب جديـد: فبـدلاً مـن الاخـتراق الإعلامـي الـذي ميـز الحـرب في لبنـان أو الانغـلاق الـذي ميـز سـير عمليـة «الرصـاص المصبـوب»، قـرر إغـراق وسـائل الإعـلام بالمعلومـات الخاضعـة للرقابـة. وقـد أوضحـت مراسـلة صحيفـة «هآرتـس» أنه: «بـدلاً من منـع الوصول والبخـل في المـواد، مـن الأفضـل إغـراق المراسـلين بالمعلومـات،

شريطة أن تكون تحت السيطرة... إذا قمت بإطعام القطط، فإنها لن تنقب في حاويات القمامة. وبدلاً من أن يبدأ المراسلون في اصطحاب الجنود أثناء الرحلات والتحدث معهم، فإنهم يحرصون على ألا يبقى لديهم وقت أو دافع لذلك. كما أن هناك سيطرة كاملة على المواد التي تخرج من الجيش الإسرائيلي. والجزرة هي المواد التي يقدمونها: حيث تمتلك وحدة المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي الكثير من القوة، ويمكنها مكافأة المراسلين من خلال المحادثات مع الجنرالات وجميع أنواع القصص الحصرية. وفي مقابل ذلك، فإن أولئك الذين يزعجونهم سيحصلون على الضرب بالعصا وسيتركون مع عدد قليل جدا من المواد. إنك تدرك بسرعة أنه من الأفضل العمل معهم بدلاً من محاولة أن تكون مستقلاً".

لذلك، ليس من قبيل المصادفة أنه عندما كانت سفينة أخرى على وشك جلب معدات عسكرية إلى حماس في قطاع غزة، بدأ الجيش الإسرائيلي في التحضير لمداهمة أخرى - هذه المرة بعيدًا عن حدود الدولة - وقد أطلق على العملية الاسم الرمزي «الإفصاح الكامل / الكشف الكامل». حيث كان الاسم مؤشرا على السياسة الجديدة، ولكن على الرغم من أن نموذج العملية الإعلامية قد تم إعداده بشكل صحيح بل وعمل بنجاح كبير، إلا أنه تبين أنه لا يخلو من المشاكل، ولديه نقاط ضعف متأصلة. وقبل وصف الحدث وتحليل أهميته، من

الـضروري أن نعـود بالزمـن عـشر سـنوات إلى الـوراء.

حتـى عندمـا كان قطـاع غـزة لا يـزال تحـت سـيطرة السـلطة الفلسـطينية، قبـل سـيطرة حـماس عليـه في عـام ٢٠٠٧م، بذلـت جهـود لنقـل الأسـلحة سراً إليـه. وعـادة مـا كانـت هـذه عمليـات عـلى نطـاق محـدود، في قـوارب صيـد صغـيرة. وقـد وقـع حـدث دراماتيـكي في ٣ يناير/كانـون الثـاني عـام ٢٠٠٢م، عندمـا سـيطر مقاتلـو شـيطيت ١٣ عـلى سـفينة كاريـن A التـي كانـت في طريقهـا مـن إيـران إلى القطـاع في عمليـة بحريـة معقـدة. حيـث تـم إخفـاء ٥٠ طنـاً مـن الأسـلحة بـذكاء عـلى مـتن السـفينة، بمـا في ذلـك صواريـخ غـراد ومدافـع هـاون وأسـلحة خفيفـة.

سـيطر المقاتلـون عـلى السـفينة بسرعـة وبصمـت ودون وقـوع إصابـات في أي مـن الجانبـين. وقـد كان الغـرض مـن هـذه العمليـة العسـكرية ليـس فقـط خدمـة أهـداف عسـكرية - منـع تسـلح السـلطة الفلسـطينية في القطـاع - ولكـن أيضًا أهداف سياسـية: أن يعـرض أمـام العـالم، والولايات المتحدة بشـكل خاص، عـدم موثوقية رئيـس السـلطة يـاسر عرفات[1] الـذي لا تتطابـق أقواله مـع أفعاله.

بعـد تفريـغ الأسـلحة مـن السـفينة في ميناء إيـلات، عقـد رئيـس الـوزراء أرئيـل شـارون مؤتمـرًا صحفيًـا وقـال: «عندمـا قـال

(١) يـاسر عرفـات (١٩٢٩ - ٢٠٠٤م): واسـمه الحقيقـي محمـد عبـد الـرؤوف عرفـات القـدوة الحسـيني. يُكنـى بـأبي عـمار ويُلقـب بالختيـار. هـو سـياسي وعسـكري فلسـطيني لاجـئ وأحـد مؤسـسي حركـة فتـح وجناحهـا المسـلح (العاصفـة)، ومنظمـة التحريـر الفلسـطينية، وأول رئيـس للسـلطة الوطنيـة الفلسـطينية.

عرفات أنه يسعى إلى السلام، أرسل المسؤول عن المشتريات الفلسطينية لشراء الأسلحة من إيران؛ وعندما أعلن وقف إطلاق النار، أرسل قائد الشرطة البحرية لشراء سفينة من لبنان؛ وعندما أعلن أنه سيقبل «الهدنة»، تابع رحلة سفينة الأسلحة باتجاه شواطئ غزة على أمل أن يتمكن من إدخال حصان طروادة عن طريق البحر. إن السلطة الفلسطينية هي جزء مركزي من شبكة الإرهاب الدولية التي مركزها في إيران، والتي تهدف إلى زرع الدمار والخراب في العالم بأسره".

وأضاف شارون أن «عرفات يختار الاستمرار في الكذب، ويختار الاستمرار في محاولة تضليل العالم، وتوقيع الاتفاقيات وخرقها. وعند أسفل سفينة الإرهاب، تمد دولة إسرائيل يديها من أجل السلام مع الشعب الفلسطيني، لكن تطلعنا إلى السلام لا يجعلنا نتخلى عن يقظتنا». لقد كان هذا مثالًا ناجحًا على حرب المعلومات، وعرضا مثيرا للإعجاب لانتهاز فرصة التقاط الصور. كما حاول عرفات إنكار تورطه في الأمر، لكنه فشل في ذلك. وقد تسببت هذه القضية في أضرار جسيمة للمسألة الفلسطينية: حيث شدد نائب الرئيس ديك تشيني[1] مواقفه تجاه عرفات، وتعرضت علاقة الولايات المتحدة مع السلطة الفلسطينية لضربة قاسية. وانطلاقا من هذه القضية،

(١) ديك تشيني Dick Cheney (ولد عام ١٩٤١م): هو سياسي ورجل أعمال أمريكي كان نائب رئيس الولايات المتحدة السادس والأربعين في الفترة بين عامي ٢٠٠١ - ٢٠٠٩م ضمن فترتي حكم الرئيس جورج دبليو بوش.

اعتـبرت الإدارة الأمريكيـة عرفـات جـزءًا مـن شـبكة الإرهـاب العالميـة. وهكـذا حققـت العمليـة الإعلاميـة غرضًـا سياسـيًا يـكاد يكـون مثاليًـا.

إن الجهـود المبذولـة لإحبـاط نقـل العتـاد العسـكري إلى حـزب اللـه أو حـماس هـي جـزء مهـم مـن المعركـة بـين الحـروب. وتتسـم سياسـة النـشر لهـذه العمليـات بالمرونـة ويتـم تضمينهـا في الأمـر العمليـاتي لـكل عمليـة مـن هـذا القبيـل. فقـد كانـت هنـاك حـالات لم يكـن للطرفـين فيهـا مصلحـة في الإعـلان عـن الأحـداث، وكانـت هنـاك حـالات كشـفت فيهـا وسـائل الإعـلام الدوليـة عـن العمليـات، لكـن إسرائيـل اختـارت عـدم التعليـق عـلى التقاريـر، وكانـت هنـاك حـالات كانـت فيهـا إسرائيـل بالتحديـد هـي التـي لهـا مصلحـة في نـشر العمليـات عـلى المـلأ.

هـذا مـا حـدث، عـلى سـبيل المثـال، عندمـا قامـت وحـدة شـيطيت ١٣، المتخصصـة في السـيطرة عـلى السـفن التـي تقـوم بتهريـب الأسـلحة، في نوفمبر/تشريـن الثـاني عـام ٢٠٠٩م - عـلى بعـد ١٥٠ كيلومـترًا مـن شـواطئ إسرائيـل في البحـر الأبيـض المتوسـط - بالاسـتيلاء عـلى السـفينة فرانكـوب (Francop) التـي كانـت تحمـل حـوالي ٣٠٠ طـن مـن المعـدات العسـكرية مـن إيـران إلى حـزب اللـه، وهكـذا كان الحـال أيضًـا مـع الاسـتيلاء عـلى السـفينة فيكتوريـا (Victoria) في مـارس/آذار عـام ٢٠١١م، والتـي كانـت في طريقهـا مـن مينـاء اللاذقيـة في سـوريا إلى مينـاء العريـش

(عبر تركيا)، وكان على متنها ٥٠ طنًا من المعدات العسكرية المخصصة لقطاع غزة. حيث عقدت مؤتمرات صحفية في إسرائيل بعد إحضار السفن التي تم الاستيلاء عليها إلى موانئها.

كان لهذه الأحداث الإعلامية عدة أهداف. فبالنسبة للمجتمع الدولي، كان الهدف منها توضيح عمق تورط إيران في الصراع؛ وبالنسبة للمنظمات الإرهابية، فهي تهدف إلى توضيح قدرة الاستخبارات الإسرائيلية على اختراقها (لغرض ردعها)؛ وبالنسبة للجيش الإسرائيلي، تهدف المنشورات إلى رفع الروح المعنوية؛ أما بالنسبة للمجتمع الإسرائيلي، فهي تهدف إلى تعزيز الثقة في قدرة الجيش الإسرائيلي على التعامل مع التحديات الصعبة للحرب غير المتكافئة وإظهار أن الجيش الإسرائيلي لا يزال هو نفسه الجيش الواسع الحيلة والجريء القادر على تنفيذ عمليات خاصة كما حدث خلال عملية عنتيبي. والطبيعة الخاصة لهذه العمليات – إغارة في وسط البحر خلال ساعات الظلام، المعدات والملابس الخاصة للمقاتلين، الجرأة، التطور في العمل – كل هذه بدت وكأنها مستعارة من أفلام الحركة ذات الشعبية. كما كان من المفترض أن تكون هكذا أيضًا قصة الاستيلاء على السفينة كلوز سي (Klose C)، لكن هذا ليس ما حدث بالفعل.

في وقت مبكر من صباح يوم ٥ مارس/آذار عام ٢٠١٤م، سيطر سلاح البحرية الإسرائيلية على السفينة البنمية «كلوز

سي» بالقرب من الحدود بين إريتريا والسودان، على مسافة لا تقل عن ١٥٠٠ كيلومتر من ميناء إيلات. حيث كانت هذه محاولة من إيران لتنقل إلى قطاع غزة ٤٠ صاروخاً سورياً متوسط المدى (١٦٠ كيلومتراً) من طراز M-٣٠٢، فضلاً عن ١٨١ قذيفة هاون ونحو ٤٠٠ ألف رصاصة من عيار ٧,٦٢ ملم. وقد عرّف الجيش الإسرائيلي الصواريخ على أنها «كاسرة للتوازن» من حيث أنها أدخلت لأول مرة في دائرة الخطر أيضًا مستوطنات خارج الحدود الشمالية لتل أبيب لهذا السبب، بذل الإيرانيون جهدًا كبيرًا لإخفاء عملية التهريب: فقد تم نقل الصواريخ المصنعة في سوريا عبر مسار ملتو بهدف تعطيل جهود الاستخبارات الإسرائيلية. حيث تم نقلهم جواً من دمشق إلى إيران، ومن هناك تم نقلهم في حاويات إلى ميناء بندر عباس الإيراني، وتم تحميلهم على السفينة وإخفاؤهم تحت أكياس إسمنت. ثم أبحرت السفينة إلى ميناء أم قصر العراقي ومنها إلى بورتسودان. وبحسب المعلومات التي نشرها الجيش الإسرائيلي، فقد كان من المفترض أن يتم تهريب الأسلحة من السودان إلى سيناء ومن هناك إلى داخل قطاع غزة عبر أنفاق التهريب.

خلال التحضيرات لعملية الاستيلاء على السفينة، قدمت أجهزة الاستخبارات معلومات حيوية بشأن مسار السفينة وبشأن الأسلحة الموجودة على متنها. وقد شارك في العملية

مئات الجنود والمقاتلين من أذرع البحر والاستخبارات والجو والهندسة وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات. حيث شاركت في هذه العملية واسعة النطاق قوة مشتركة ضمت سفينتين كبيرتين وزوارق سريعة ترافقها مروحيات وطائرات. وقد صعد مقاتلو شيطيت على متن السفينة وسيطروا بسهولة على طاقمها المكون من ١٧ شخصًا. حيث لم يقم هؤلاء بمقاومة المقاتلين، وبحسب المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي، لم يكونوا يعرفون شيئًا على الإطلاق عن حمولتها الخطرة. فدخل المقاتلون إلى جوف السفينة برفقة كاميرات عناصر التوثيق العملياتي، وكشفوا عن الحمولة الكبيرة، والتي كانت مخبأة بشكل جيد تحت أكوام من أكياس الإسمنت، ثم اقتادوا السفينة إلى قاعدة إيلات البحرية.

كانت رحلة «كلوز سي» عكس أسطول مرمرة. حيث كان الغرض من الأسطول التركي هو جذب انتباه وسائل الإعلام الدولية. بينما تم إجراء رحلة «كلوز سي» سرًا وكان الهدف منها الهروب من أعين العالم وخاصة عيون المخابرات الإسرائيلية. ولهذا الغرض، اتخذت السفينة مسارا ملتويا من إيران إلى بورتسودان. وفي مقابل ذلك، كان لإسرائيل في الواقع مصلحة في الكشف عن قصة السفينة من أجل تسليط الضوء على أنشطة إيران التخريبية في الشرق الأوسط.

كتبت إحدى الصحف: «تم توثيق العملية من كل زاوية

ممكنة وقدمت لنا الواقع كما هو بالفعل». وأضافت: «شارك في العملية ما لا يقل عن ثلاثة طواقم تصوير، وتم تركيب كاميرات على خوذ المقاتلين، وكانت غرف التحرير تعمل في وسط البحر. كما قام فريق آخر بتغطية العملية عن بعد ورافق كلا من رئيس الأركان أثناء التنسيق مع مصوري المكتب الصحفي الحكومي، ورئيس الوزراء في الولايات المتحدة، وعناصر وحدة المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي الذين وزعوا المواد المحررة على وسائل الإعلام. وقد تم الكشف عن عملية «الإفصاح الكامل» لعامة الناس بأفضل طريقة ممكنة، حيث شاهدها كل مخرج ومنتج وشعر بالحسد تجاهها. فهكذا تصنع أفلام الأكشن، وهكذا يتم تقديم الواقع".

احتفلت وسائل الإعلام الإسرائيلية كلها بالإنجاز الذي تحقق في وسط البحر. حيث قامت كل من الصحف الصباحية الصادرة في اليوم التالي للعملية ووسائل الإعلام الإلكترونية بتضخيم الحدث الإعلامي إلى أبعاد مشهد حقيقي. وامتلأت الصفحات الأولى للصحف بالصور الملونة الرائعة، وهتفت العناوين الرئيسية «كما في الأفلام» أو «ضبطوا متلبسين» أو «دليل دامغ / مسدس الدخان» أو «إغارة في وسط البحر»، وأعاد التلفزيون مرارًا وتكرارًا عرض المقاتلين المجهزين بأفضل معدات الكوماندوز. كان بإمكان الجيش الإسرائيلي أن يربت على ظهره: فقد استعاد المجد الذي اكتسبه خلال الأيام

المجيدة لعملية عنتيبي. وكانت هذه العملية نقيضًا لأجواء النقد التي سادت بعد أسطول مرمرة.

لكن الاحتفال استمر ليوم واحد فقط. ففي اليوم التالي، بدأ طرح الأسئلة، حتى وإن كانت على هامش التغطية، سواء فيما يتعلق بتاريخ النشر أو فيما يتعلق بالطبيعة المسرحية للعملية. وبما أن العملية نفذت على بعد ١٥٠٠ كيلومتر من السواحل الإسرائيلية، كان من الواضح أن السفينة لن تصل إلى إيلات إلا بعد ثلاثة أيام. فلماذا، إذن، تم الإبلاغ عن عملية الاستيلاء على السفينة في مثل هذه المرحلة المبكرة؟ ألم يكن من شأن هذا الإعلان أن يعرض جنود الجيش الإسرائيلي للخطر وهم ما زالوا يشقون طريقهم إلى إسرائيل؟ ألم يكن من الممكن تأجيل الكشف عن القصة حتى تصل السفينة إلى الميناء أو على الأقل تدخل المياه الإقليمية الإسرائيلية؟

اتضحت الإجابة بسرعة كبيرة: كان رئيس الوزراء هو من حدد موعد الإعلان، حيث أراد الاستفادة من الحدث في إطار رحلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية. فقد كانت الرحلة جزءًا من الجهود الدبلوماسية التي قام بها ضد برنامج إيران النووي، وما الذي كان يمكن أن يكون أكثر فائدة من نشر قضية تكشف الطبيعة الخبيثة لإيران ونواياها العدوانية في الوقت الذي يتعامل فيه نتنياهو مع لوبي سياسي قوي في واشنطن ونيويورك؟ وقد كان كذلك. كان هذا عملاً متطورًا

وفعـالًا مـن الدعايـة السياسـية، لكـن بعـض المعلقـين شـعروا بعـدم الارتيـاح لأن الجيـش أُجـبر عـلى لعـب دور لم يكـن مـن المفـترض أن يلعبـه – أن يصبـح ممثـلاً ويـؤدي عمـلا اسـتعراضيا مصمـما بمهـارة فائقـة لمخـرج سـينمائي.

كتـب عـوزي بنزيمـان[1] حـول ذلـك: «صحيـح أن الغـرض مـن العمليـة كان بالفعـل تمثيليًـا – ليـس فقـط للاسـتيلاء عـلى الصواريـخ التـي تشـكل تهديـدًا، ولكـن أيضًـا لفضـح مؤامـرات طهـران الشريـرة. وصحيـح أنـه لهـذا الغـرض، تـم بالفعـل دمـج أطقـم تصويـر في جميـع مراكـز العمليـة – مقر قيادة هيئـة الأركان العامـة (البـئر)، سـفينة القيـادة، هـدف المداهمـة – وتـم إعـداد مخطـط إعلامـي مفصـل: صـور وأصـوات مـن الميـدان، تسـجيلات مـن شـبكة الاتصـالات، مؤتمـر صحفـي مـع وزيـر الدفـاع ورئيـس الأركان، ظهـور متوهـج لرئيـس الـوزراء في لـوس أنجلـوس، مقاطـع فيديـو جاهـزة لليـوم التـالي. ويشـير كل هـذا الغطـاء إلى اسـتثمار كبـير في التخطيـط والمـوارد مـن أجـل الحصـول عـلى أقـصى عائـد إعلامـي مـن العمليـة. ولكـن» – وهنـا تكمـن النقطـة في نقـد بنزيمـان – «عـلى طـول الطريـق، تـم فقـدان الأصالـة، وهكـذا أطلقـت المؤسسـة الأمنيـة النـار عـلى قدمهـا.

(١) عـوزي بنزيمـان עוזי בנזימן (ولـد عـام ١٩٤١م): هـو صحفـي إسرائيـلي، مؤسـس ورئيـس تحريـر مجلـة «العـين السـابعة»، وقـد عمـل في صحيفـة «هآرتـس» بـين عامـي ١٩٦٥ – ٢٠٠٨م، وهـو عضـو مجلـس إدارة الصحيفـة، وحائـز عـلى جائـزة سـوكولوف للصحافـة المكتوبـة عـام ٢٠٠٦م.

"مـا لفـت الانتبـاه بشـكل خـاص إلى الطبيعـة المصطنعـة للعمليـة» – يؤكـد عـوزي بنزيمـان – «كان الجـزء الـذي اتصـل فيـه قائـد سـلاح البحـر اللـواء رام روثبـيرغ[1] برئيـس الأركان بينـي غانتـس[2] وأبلغـه عـن العمليـة. فاللغـة التـي اسـتخدمها اللـواء بـدت غريبـة، وأدبيـة للغايـة، وليسـت مـن النـوع الشـائع في التقاريـر العسـكرية: ‹مـن قائـد سـلاح البحـر إلى رئيـس الأركان. أقـدم لـك تقريـرًا مـن السـفينة المسـتهدفة كلـوز سي. لقد اكتشـف مقاتلـو شـيطيت ١٣ أسـلحة قادمـة مـن إيـران. أسـلحة كبـيرة. تحديـد مؤكـد لصـاروخ M-٣٠٢. تحديـد مؤكـد لصـاروخ M-٣٠٢ واحـد مـن الشـحنة بأكملهـا. كان مـن الممكـن لهـذه الصواريـخ أن تعـرض حيـاة الملايـين مـن سـكان دولـة إسرائيـل للخطـر. حتـى الآن، تـم العثـور عـلى أربعـة صناديـق في حاويتـين اثنتـين. شـاهدنا صاروخـاً واحـداً. نواصـل البحـث عـن أسـلحة إضافيـة›. والخاتمـة، بصيغـة التوقيـع: ‹قائـد سـلاح البحـر. حتـى الآن›». علـق عـلى ذلـك حانـوخ مرمـري[3]، المحـرر السـابق لصحيفـة «هآرتـس»

(١) رام روثبـيرغ **רם רוטברג** (ولـد عـام ١٩٦٤م): هـو لـواء (احتيـاط) في الجيـش الإسرائيلي، كان مـن بـين المناصـب التـي شـغلها: قائـد سـلاح البحـر، وقائـد وحـدة دوفدفـان، وقائـد شـيطيت ١٣، ورئيـس شـعبة الاسـتخبارات البحريـة الإسرائيليـة، وقائـد قاعـدة حيفـا البحريـة.

(٢) بنيامـين (بينـي) غانتـس **בנימין (בני) גנץ** (ولـد عـام ١٩٥٩م): هـو وزيـر الدفـاع ونائـب رئيـس الـوزراء الإسرائيـلي، مؤسـس ورئيـس حـزب «حصانـة إسرائيـل» وعضـو كنيسـت ضمـن كتلـة «أزرق – أبيـض». شـغل سـابقًا منصـب رئيـس الـوزراء البديـل، ورئيـس الكنيسـت. كـما كان رئيـس الأركان العشريـن للجيـش الإسرائيـلي.

(٣) حانـوخ مرمـري **חנוך מרמרי** (ولـد عـام ١٩٤٨م): هـو صحفـي ومحـرر إسرائيـلي، كان محـررا لصحيفـة «هاعـير» المحليـة ومحـررا لصحيفـة «هآرتـس»، ومحـرر سـابق لمجلـة «العـين

والمحـرر السـابق لمجلـة «العـين السـابعة» المختصـة بالنقـد الإعلامـي، قائـلًا: «هاهنـا صـورة دائريـة أخـرى: عمليـة عسـكرية تحـاكي فيلـما متعـدد الميزانيـة يحـاكي عمليـة عسـكرية. ووحـدات الإعـلام التابعـة للجيـش الإسرائيـلي تـدرك ذلـك وقـد اسـتعدت بجـد لهـذه اللحظـة. وبالفعـل، منـذ اللحظـة التـي انتهـت فيهـا بنجـاح، أصبحـت العمليـة عرضًـا مفتوحًـا للجمهـور. إنتـاج مذهـل لمـسرح الجيـش الإسرائيـلي".

"ولمـاذا لا نسـمي الأشـياء بأسـمائها: إن مكتـب المتحـدث العسـكري اليـوم ليـس مجـرد نـاشر إعلامـي قـوي، يتلاعـب بمهـارة بدمـى الصحافـة مـن جـدار إلى جـدار، ولكنـه أيضًـا سـتوديو هوليـودي كبـير. ‹شـعب إسرائيـل يثـق بكـم›، هـذا مـا قالـه قائـد سـلاح البحـر مـن موقـع الأدميـرال عندمـا أعطـى الأمـر للقـوات المهاجمـة عـلى مـتن السـفينة، وكأن كلماتـه كانـت خطابـا في حفـل. ومـا إن تـم التحديـد المؤكـد لصـاروخ، أو صواريـخ، مـن النـوع بعيـد المـدى، حتـى أضـاف قائـد السـلاح في تقريـره إلى هيئـة الأركان العامـة بـأن هـذه الصواريـخ ‹كان مـن الممكـن أن تعـرض حيـاة الملايـين للخطـر›. هنـا تـم تضخيـم التقريـر العملياتي الهزيـل وتحويلـه إلى دعايـة تمكـين مخصصـة للكاميـرات وأقـمار البـث الفضـائي".

السابعة» المختصة بالنقد الإعلامي.

كتب عوزي بنزيمان بنفس الروح: «أوجدت لنا العامية العسكرية العديد من براءات الاختراع. فخلال فترة البلماح وفي السنوات الأولى للدولة، كان الكلام (لم يطلقوا عليه آنذاك اسم ‹محادثة›) بين جندي وآخر وبين القائد ومرؤوسيه بسيطًا، وديا: ‹אהלן: أهلا› و ‹תפוס פיקוד: تولى الأمر› و ‹דפוק את הערבוש: اضرب العرب››. ثم بعد ذلك، تم تسوية لغة الجيش الإسرائيلي، وخضعت لعملية توحيد وأصبحت معزولة: «אמל"ח: أسلحة»، «דגמ"ח: موديل جديد»، «שלוש קט־נות: ثلاث دقائق». أما في الليلة الماضية، فقد اتضح لمشاهدي نشرات الأخبار على القنوات التلفزيونية أن الجيش الإسرائيلي يتحدث في العصر الحالي بلغة سينمائية. حيث يقوم بتلقين كبار ضباطه نصًا ويأمرهم بتعلمه عن ظهر قلب وتلاوته أمام الكاميرات والميكروفونات، وكل ذلك في الوقت الفعلي، في ميدان المعركة الحقيقي".

كما سخر بنزيمان من اللغة التي خاطب بها قائد سلاح البحر، اللواء رام روثبيرغ، رئيس الأركان. «هل هذه هي الطريقة التي يتحدث فيها لواء في الجيش الإسرائيلي مع رئيس الأركان في وقت المعركة؟ أليست ‹من قائد ٢ إلى قائد ١›، ولا ‹تمام، أجب›؟ لا يبدو هذا كتقرير عفوي. بل بدا الأمر أشبه بالامتثال لتعليمات توجيهية معطاة مسبقًا: ‹أسلحة قادمة من إيران.. صواريخ كان من الممكن أن تعرض حياة الملايين من

سكان دولة إسرائيل للخطر». وقد تعزز الشعور غير المريح بأن الجيش الإسرائيلي في هذه الحالة يؤدي بشكل أخرق دورًا أسنده إليه خبراء الترويج والإعلام في الحكومة الإسرائيلية عندما ظهر اللواء روثبيرغ للحظة كمن يلقي نظرة خاطفة على ورقة كانت في يده ليقول بالضبط الكلمات التي تم إملاؤها عليه".

تعاظم هذا الشعور بالتصنع بعد ثلاثة أيام، مع وصول السفينة إلى ميناء إيلات. حيث استعد الجيش الإسرائيلي لذلك مسبقًا في حدث درامي تم توقيته وتنظيمه جيدًا. توسطه عرض المعدات العسكرية التي تم العثور عليها على متن السفينة ومؤتمر صحفي خاص لرئيس الوزراء نتنياهو. وبالفعل، احتفلت وسائل الإعلام الإسرائيلية بالحفل، لكن بالنسبة للمعلقين الناقدين بدا الأمر مصطنعًا للغاية وغير أصيل – مهني للغاية، ومصقول للغاية، كما لو كان قد تم إعداده من قبل مستشارين في العلاقات العامة ويتعارض مع التقاليد العسكرية. ألا ينبغي لعملية علاقات عامة ناجحة أن تحافظ على أصالة المنتج؟ وعندما يتم حياكة الخيوط بمثل هذه الحياكة الخشنة، ألا يضر ذلك بفعالية العملية؟

في حين أن ردود فعل وسائل الإعلام الإسرائيلية على العملية كانت إيجابية، وابتهج لها الشعب الإسرائيلي، فإن رد فعل وسائل الإعلام العالمية لم يكن كذلك. حيث تجاهلت الحدث

في ميناء إيلات أو نقلته إلى هوامش الأخبار. أما تصرفها بهذه الطريقة فلم يكن بسبب افتقار إسرائيل إلى سياسة إعلامية (كما كان الحال في حرب لبنان الثانية)، ولم يكن ذلك نتيجة لمحاولة منع الصحافة الأجنبية (كما حدث في عملية «الرصاص المصبوب»)، كما أنه لم يحدث بسبب عيوب فنية (كما في حادثة أسطول مرمرة)، ولكن بسبب عامل آخر لا سيطرة للمخرجين والممثلين عليه. والسبب هو أن وسائل الإعلام العالمية كانت مشغولة في تلك الأيام بقضايا مختلفة تمامًا، وبالتالي تحطمت آمال إسرائيل في «الكشف الكامل» عن نفاق إيران (وحتى النظام الدولي) والاستفادة من العملية لتحقيق نجاح سياسي.

لم تكن قصة الاستيلاء على سفينة الأسلحة «كلوز سي» في عام ٢٠١٤م «خبرًا» كما كانت قصة القبض على سفينة «كارين A" في عام ٢٠٠٢م. حيث تمكنت إسرائيل آنذاك من أن تفضح «الوجه الحقيقي» لعرفات. أما هذه المرة فلم يكن هناك شيء جديد في حقيقة أن إيران متورطة في صراعات عسكرية في الشرق الأوسط.

علاوة على ذلك، كان لأجزاء كبيرة من وسائل الإعلام، وخاصة جناحها الليبرالي، مصلحة كبيرة في عدم الإضرار بالمحادثات النووية التي كانت تجري في ذلك الوقت مع إيران. وقد أوضح ذلك القائد السابق لسلاح البحر اللواء (احتياط) يديديا («ديدي»)

يعاري[١]، حيث قال: «لا أعتقد أنه سيكون هنا أي دراما من نوع كارين A، ويرجع ذلك أساسًا إلى أنه لا يوجد هنا حاليًا أي حدث سياسي يرتبط مباشرة بهذا الأمر. إن إيران وسوريا وحركة حماس هم في فئة الأوغاد القياسية، ومن المتوقع أن يستمروا في كونهم أوغادًا. أنا لا أرى أنه سيكون هناك من هذا الأمر أي ضجة دولية أو أي تأثير إضافي".

لم يكن رئيس الوزراء نتنياهو غافلاً عن غياب رد الفعل الدولي على الرغم من عملية العلاقات العامة الهائلة، وعلق على ذلك قائلاً: «هناك في المجتمع الدولي من لا يريدوننا أن نظهر للعالم ما يحدث داخل إيران. من الصعب عليهم مع هذا أننا نكشف الحقيقة وراء ابتسامات إيران المزيفة. وهنا ثبت العكس تمامًا - حاولت إيران إخفاء تحميل حاويات الأسلحة في أراضيها... إن تجاهل المجتمع الدولي للاستيلاء على السفينة هو دليل آخر على عصر النفاق الذي نعيش فيه. ففي أحسن الأحوال، لم أسمع إلا إدانات منفردة وضعيفة منهم في مواجهة هذه الشحنة القاتلة. وفي مقابل ذلك، شهدنا ابتسامات ومصافحات ممثلي الغرب مع رؤوس النظام الإيراني في طهران، في نفس الوقت الذي تم فيه تفريغ هذه الصواريخ هنا في إيلات".

(١) يديديا («ديدي») يعاري **ידידיה ("דידי") יערי** (ولد عام ١٩٤٧م): هو ضابط إسرائيلي سابق، شغل منصب قائد سلاح البحر بين عامي ٢٠٠٠ - ٢٠٠٤م، ثم شغل بعد ذلك منصب الرئيس التنفيذي لشركة «رفائيل» بين عامي ٢٠٠٤ - ٢٠١٦م.

لم تنجح محاولة تسخير سفينة الأسلحة للصراع الذي خاضه رئيس الوزراء ضد إيران، وخاصة ضد الاتفاق النووي الذي بدأ يتبلور بين الدول الغربية وإيران. حيث أقنع المقتنعين أصلا في إسرائيل، لكنه لم يخاطب وسائل الإعلام الدولية. فحقيقة أن خصوم إسرائيل يعملون على تقوية أنفسهم عسكريًا هي مسألة «كلب عض رجلًا» وليس «رجل عض كلبًا» (في إشارة إلى القاعدة الإعلامية: «إذا عض كلب رجلًا، هذا ليس خبرًا، أمّا إذا عض رجل كلبًا، فهذا هو الخبر»).

الجرف الصامد

الشعور بالمرارة يعود

رافقت المعضلة المتعلقة بالمفهوم العملياتي عملية «الجرف الصامد» أيضًا (من ٨ يوليو/تموز وحتى ٢٦ أغسطس/آب عام ٢٠١٤م). فقد ارتدع الجيش الإسرائيلي مرة أخرى عن الدخول البري إلى القطاع، واكتفى في بداية العملية بشن هجمات جوية مكثفة. إلا أن حوالي ٥٠٠٠ طلعة جوية، ألقيت فيها قنابل ذات وزن قياسي (مقارنة بجميع الحملات السابقة ضد قطاع غزة)، لم تحقق إنجازًا ماديًا أو معنويًا كبيرًا. حيث واصلت حماس، التي كانت مختبئة بين السكان في غزة وكذلك تحت الأرض، إطلاق القذائف الصاروخية نحو إسرائيل، حتى أنها ضربت وسط البلاد للمرة الأولى في تاريخها. وبعد أن تبين أن إطلاق الصواريخ لم يتوقف رغم حجم الدمار والقتل الذي أحدثه سلاح الجو، توصلت القيادة الإسرائيلية إلى استنتاج مفاده أنه لا مفر من إدخال قوات برية إلى داخل القطاع.

تم تبرير العملية البرية والاستخدام المكثف للقوة بالحاجة إلى الكشف عن أنفاق حماس وتدميرها. وبعد الحرب، كشف المعلق العسكري لصحيفة «يديعوت أحرونوت» عن الحقيقة

بـروح غـير معهـودة في الصحافـة الإسرائيليـة، التـي تعمـل في نهايـة المطـاف في المجـال الأمنـي، وخاصـة في أوقـات الحـرب، وفقًـا لنمط الصحافـة المعبـأة، حيـث قـال: «كل حـرب تحتـاج إلى رمـز، إلى هـدف يمكـن أن يتحـد حولـه الجيـش والشـعب، ويفضـل أن يكون شـيئًا مـن مسـتوى تهديـد وجـودي. ومـن أجـل خلـق رمـز لمرحلـة القتـال الـبري في عمليـة «الجـرف الصامـد»، تشـبثنا بالأنفـاق، فتـم تقديمهـا عـلى أنهـا أخطـر تهديـد اسـتراتيجي لغـلاف غـزة في هـذا الوقـت. كـما أن الهجـوم بواسـطة النفـق الـذي تـم الكشـف عنـه في كـرم أبـو سـالم، عشـية التحـرك الـبري، قـد عـزز أكـثر مـن معتقـد العـدو الـذي يظهـر مـن النفـق وينتفـض لتدميرنـا. وهكـذا، نظـرًا لاحتياجـات الوعـي والدعايـة، أصبـح هـذا التهديـد الخطـير ولكـن القابـل للحـل تهديـدًا وجوديًـا حقيقيًـا عـلى جنوب دولـة إسرائيـل... وقـد وقعـت أنظمـة الدعايـة التابعـة للجيـش والسياسـيين في حـب الرمـز الـذي ابتكـروه...“

عندمـا بـدأت المرحلـة البريـة في قطـاع غـزة، حـدث مـا كان متوقعًـا أن يحـدث: تدمـير واسـع النطـاق للممتلـكات في قطـاع غـزة. وعـلى الرغـم مـن عـدم وجـود اتفـاق بـين المصـادر المختلفـة حـول عـدد آلاف المنـازل التـي دمـرت في القطـاع وعـدد المئـات مـن المدنيـين، بمـن فيهـم الأطفـال، الذيـن قُتلـوا هنـاك، فـلا شـك في أن الدمـار والقتـل كانـا عـلى نطـاق واسـع. والنتيجـة: اتهـام إسرائيـل مـرة أخـرى في وسـائل الإعـلام الدوليـة بعمـل غـير

متناسب وخسارتها نقاطا في معركة الشرعية الدولية.

اتهمت منظمات حقوق الإنسان، بما في ذلك في إسرائيل، الجيش الإسرائيلي بانتهاك قوانين الحرب. وأدان مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة إسرائيل ودعا إلى إرسال لجنة تحقيق للتحقيق في الانتهاكات المستمرة لحقوق الإنسان. حيث اتهمت اللجنة في استنتاجاتها إسرائيل (وإن كانت حماس أيضًا) بارتكاب جرائم حرب، وأشارت على وجه الخصوص إلى الدمار الذي لحق بالمباني السكنية في أحياء غزة وقتل المدنيين، بمن فيهم الأطفال.

في العامين اللذين سبقا العملية، قام الجيش الإسرائيلي بتحسين قدرته العملياتية الحركية وقدرته على حماية البلاد من التهديد الصاروخي – مما عزز قدرة مواطني الدولة على الصمود في مواجهة إطلاق الصواريخ والقذائف من القطاع. ولا أقل من ذلك، قام الجيش أيضًا بتحسين قدراته في مجال الحرب الموجهة إعلاميًا، كما يتضح من مراجعة وثيقة صادرة عن قيادة الذراع البرية في يونيو/حزيران عام ٢٠١٣م.

إن مناقشة مسألة الإعلام في هذه الوثيقة طويلة بشكل خاص. ففي الفصل الثاني، «خصائص البيئة العملياتية»، تحت العنوان الفرعي «تأثير وسائل الإعلام على القتال»، ورد أن القتال ضد قوات معادية تعمل بطريقة غير منظمة يبقي وسائل الإعلام مشغولة للغاية بشكل دائم؛ حيث أن الإعلام هو عنصر مهم للغاية في مكون الوعي؛ وحيث يمكن

لوسائل الإعلام أن تضر بسهولة بشرعية نشاط قواتنا على المستوى الدولي. كما توضح الوثيقة أيضًا أنه بدون إحاطة إعلامية مناسبة، ستقوم وسائل الإعلام بإظهار عدم التوازن بين الأطراف وستركز على معاناة السكان المدنيين المحليين. ولهذا السبب، من الضروري الحفاظ على الاتصال المنتظم مع وسائل الإعلام واعتماد سياسة الشفافية وتقديم الإحاطات الإعلامية لها. هذه هي الطريقة التي يمكن من خلالها التأثير على التقارير وضمان توافقها مع الرسالة التي يريد الجيش الإسرائيلي إيصالها.

لا تكتفي الوثيقة بالمبادئ العامة فقط، لكنها توضح القواعد التي يجب أن يتصرف وفقها الجنود والضباط، لأن سلوكهم العملياتي والأخلاقي يؤثر بشكل مباشر على الطريقة التي يتم تقديمهم بها في وسائل الإعلام. «التصرف وفقًا للقانون، مع إظهار مستوى عالٍ من الأخلاق والانضباط العملياتي، سيسهم في توضيح الرسائل ويساعد في عنصر الوعي".

تتناول الوثيقة أيضًا العمليات التي تستهدف «استغلال الإعلام» لصالح القوات المقاتلة. يتعلق الأمر بإجراءات خاصة «موجهة عن طريق الإعلام»، والغرض منها هو نقل الرسائل والمهام التي سيتم تحديدها. ومرة أخرى، يتم التأكيد على الكيفية التي يجب أن يتصرف بها الجنود والقادة: أن يحرصوا على مراعاة القانون والأخلاق، والشفافية والمصداقية،

والانضباط العملياتي وما شابه ذلك. كل هذه الأمور «ضرورية لضمان السيطرة على رسالتنا عن طريق وسائل الإعلام".

لم تبق هذه الأفكار مجرد نظرية. حيث تم في الجيش توسيع نشاط الوحدات التي تهدف إلى صياغة رسائل الحرب عند اندلاع أي صراع، من بين أمور أخرى من خلال أساليب حديثة في تمييز الحروب. وللمساعدة في هذه المهمة، تم إنشاء فريق عمل أركاني خاص، تألف في معظمه من مدنيين في الخدمة الاحتياطية ومتطوعين، بما في ذلك موظفي علاقات عامة ومتخصصين في مجال الإعلان والتسويق الإلكتروني والتواصل الاستراتيجي.

في الوقت نفسه، بدأ الجيش الإسرائيلي أيضًا بالتخصص في مجال الحرب القانونية (lawfare). حيث تم في عام ٢٠٠٧م إنشاء آلية قانونية تقريبًا من الصفر، وتم إلحاق مستشارين قانونيين بالقادة من مستوى قائد فرقة وما فوق. كما أصبح أعضاء النيابة العسكرية يشاركون أكثر فأكثر في عمل الجيش، وفي السنوات الأخيرة ازداد عددهم، وتم تعيينهم أيضًا في مستويات قيادية أدنى. فشاركوا في تدريبات الفرق، وتم دمجهم في عمليات إعداد القادة على جميع مستويات القيادة، ورافقوا القرارات العملياتية الجارية في الحرب ضد منظمات المقاومة.

أثرت الحرب على الشرعية والروايات بالطبع أيضًا على

النشاط العملياتي، وخاصة نشاط سلاح الجو، وحسنت بشكل كبير من قدراته على ضرب أهداف حماس وزيادة الضغط على القيادة السياسية والعسكرية للتنظيم، والحد في الوقت نفسه من الأضرار الجانبية لهجماته ومن إلحاق الأذى ب «غير المتورطين» (المصطلح العسكري للمدنيين الذين لا يشاركون في الأعمال القتالية).

على الرغم من ادعائها بأنها لا تريد إلحاق الأذى بالمدنيين (على عكس سياسة حماس المتمثلة في تعمد إيذاء المدنيين)، فقد اتُهمت إسرائيل بإلحاق الأذى عمداً بالمدنيين. حيث لم تكن حماس فقط من ادعت ذلك، بل أيضًا منظمات دولية ودول كثيرة. أما الدليل الظاهري على هذا الادعاء ضد إسرائيل فهو حقيقة أنه كان هناك بالفعل عمليات قصف مكثفة لمناطق مدنية. كما أن العالم لم يتأثر حقا بتفسيرات إسرائيل بأنها هاجمت فقط أهدافًا عسكرية كانت مخبأة داخل المناطق المدنية. ولم ينته صراع الروايات هذا واستمر منذ عام ٢٠١٤م. إذن أي من الطرفين كان على حق؟

الجواب هو أن الجيش الإسرائيلي لم يكن مهتمًا بالفعل بإلحاق الأذى بالمدنيين، ولكنه كان مهتمًا بزيادة الضغط على حماس، وبالتالي هاجم ودمر من الجو المواقع المدنية التي قدر أنها يتم استخدامها من قبل حماس والمنظمات الأخرى. ومع ذلك، ومن أجل تجنب أكبر قدر ممكن من الأضرار

الجانبية، قلل سلاح الجو من استخدام الذخائر التقليدية وحسن دقة القنابل الذكية ونجح تمامًا في التقنيات المصممة لإبعاد المدنيين عن المناطق التي تتعرض للقصف. وعلاوة على ذلك، فقد تم قبل كل غارة جوية من هذا القبيل تحذير السكان، وإعطائهم الوقت للهروب إلى أماكن آمنة. ورغم ذلك، لم تعرض شاشات التلفزيون سوى صور الدمار فقط وليس الجهود الكبيرة المبذولة لمنع إلحاق الأذى بغير المتورطين.

على النقيض من سلاح الجو، كان هناك قادة ميدانيون استخدموا القوة النارية بشكل عشوائي وتسببوا في الكثير من الأضرار الجانبية والإصابات الخطيرة في صفوف السكان المدنيين. حيث حدث ذلك بشكل رئيسي عندما حاولوا إنقاذ قوات عالقين في مأزق أو منع نقل جنود مخطوفين من مكان إلى آخر (لم يتضح إلا بعد الواقعة أن هؤلاء لم يكونوا جنودًا أحياء). وقد تركت صور الدمار الهائل في قطاع غزة انطباعا قويا لدى المجتمع الدولي وألحقت ضررا بإسرائيل على مستوى الشرعية. فعلى وجه الخصوص، كان من الصعب إعطاء إجابة على ارتفاع معدل الإصابات في صفوف المدنيين.

بعد الحرب، دار جدل حاد بين إسرائيل وحماس حول معدل الخسائر في صفوف المدنيين في قطاع غزة. فبينما زعمت إسرائيل أن القتلى في القطاع كانوا في معظمهم من مقاتلي حماس، زعمت حماس أن معظم القتلى كانوا من المدنيين.

وقد بذلت حماس الكثير من الجهد لنشر روايتها، وقامت من أجل تعزيزها بمنع نشر أسماء الضحايا حتى بعد المعارك، بحيث يستحيل التحقق من كونهم مقاتلين أو مدنيين. وأيا كانت الأرقام الدقيقة، فإن نسبة الضحايا المدنيين في القطاع خلال عملية «الجرف الصامد» كانت الأعلى من بين جميع جولات القتال السابقة. وفي عصر الحرب الموجهة إعلاميًا، تعد هذه بالطبع مشكلة خطيرة يصعب حلها.

وفقًا للمبادئ التوجيهية الواردة في وثائق سياسة الجيش الإسرائيلي، تم بالفعل توسيع وتعميق التواصل مع الصحفيين، وفتح المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي الساحة أمامهم للتغطية، وسمح لهم بمزيد من المقابلات والمحادثات الخلفية، وزاد من عدد الضباط المسموح لهم بمقابلة الصحفيين. كما تم إلحاق ٣٠ مراسلاً بالقوات الميدانية - بالإضافة إلى المراسلين التسعة عشر المنضمين إلى كبار القادة الذين دخلوا الميدان. وبمعنى آخر: بينما انضم إلى القوات المقاتلة خلال عملية «الرصاص المصبوب» أربعة مراسلين فقط (ممثلو صحف قاموا بالتغطية لصالح جميع وسائل الإعلام)، فقد انضم إلى القوات في عملية «الجرف الصامد» ما لا يقل عن خمسين مراسلاً. ومع ذلك، كان هذا الانفتاح محدودًا ومسيطرًا عليه. فكثيرًا ما قام المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي بتغذية المراسلين بالمواد لمنعهم من البحث عن القصص بأنفسهم، وكثيرًا ما استخدم المواد المرئية

التي التقطها الموثقون العملياتيون، وبالتالي تمكن إلى حد كبير من تشكيل محتوى التغطية في وسائل الإعلام الإسرائيلية.

لم يكن هذا هو الحال بين ١٤٠٠ صحفي أجنبي قاموا بتغطية الحرب. حيث تم تغذية هؤلاء من قبل مصادر أكثر تنوعًا ولم يعتبروا أنفسهم مجندين، مثل نظرائهم الإسرائيليين، لنشر الرواية الإسرائيلية. ومع ذلك، كانت معاملتهم أكثر صحة وأكثر فاعلية مما كانت عليه في الماضي: فقد سُمح لهم بدخول القطاع وزيارة الوحدات القتالية، وتم زيادة النشاط بينهم بشكل كبير، وزاد كثيرًا عدد لقاءاتهم مع القادة لإجراء المقابلات والمحادثات الخلفية. وبشكل عام، كانت هذه الإدارة الإعلامية أكثر تطوراً مما كانت عليه في الماضي، وعلى الرغم من ذلك، لم يضعف انتقاد إسرائيل.

كان هناك في عملية «الجرف الصامد» تحسن أيضًا في نظام التواصل الاجتماعي للجيش الإسرائيلي، حيث أشرك في الحملة كل من مكتب رئيس الوزراء ومكتب الصحافة الحكومي وحتى الطلاب. وقد قاد قسم الإعلام الجديد في مكتب المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي حملة مماثلة في مضمونها لتلك التي نفذها في عملية «عمود السحاب» في عام ٢٠١٢م. فمن حيث حجم النشاط، تم تحضير عشرات الرسائل في وقت مبكر للعملية من أجل مختلف المنصات. حيث شملت قوالب لمخططات معلومات بيانية على فيسبوك، استخدمها القسم مرارًا وتكرارًا

بتنسيقات مختلفة، إضافة إلى صياغة دقيقة للتغريدات على تويتر ومقاطع فيديو تم تحميلها على يوتيوب.

على عكس المواجهة السابقة، استخدم قسم الإعلام الجديد علامات التصنيف (هاشتاغ) استخدامًا متطورًا (وإن كان محدودًا)، وقد أدى ذلك في بعض الحالات إلى ارتفاع مستوى الظهور بين الجمهور المستهدف. وخلال المواجهة، تمت إضافة حوالي مليون عضو جديد إلى صفحة الجيش الإسرائيلي على فيسبوك باللغة الإنجليزية، وشوهدت صفحات الجيش الإسرائيلي على فيسبوك باللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والروسية أكثر من ٣٢٠ مليون مرة. كما تم إحصاء أكثر من ١٤ مليون مشاهدة على صفحة الجيش الإسرائيلي على يوتيوب، إضافة إلى إحصاء حوالي ١١٠ مليون مشاهدة على حساب تويتر الخاص بالجيش الإسرائيلي باللغة الإنجليزية.

لكن بينما كان الجيش الإسرائيلي خلال عملية «عمود السحاب» هو الرائد في مجال وسائل التواصل الاجتماعي، فإنه وفي الفترة التي سبقت عملية «الجرف الصامد» تعلمت حماس هذه العقيدة بالفعل ووصلت إلى مستوى الجيش الإسرائيلي. فاندلعت بين الجانبين حرب حقيقية في مجال وسائل التواصل الاجتماعي. وقد اعتقد الجيش الإسرائيلي أنه خرج منتصرًا في هذه الحرب أيضًا، وقدم كدليل على ذلك معدلات الظهور لمختلف المواقع الإلكترونية التي أدارها، والتي كانت أعلى

مـن تلـك الخاصـة بحـماس. ومـع ذلـك، يُظهـر تحليـل أكـثر دقـة لوسـائل التواصـل الاجتماعـي أنـه لا يوجـد أي مـبرر لهـذا الثنـاء الـذاتي الـذي أثنـاه الجيـش الإسرائيـلي عـلى نفسـه، حيـث أنـه ينبغـي التمييـز بـين معـدلات الظهـور ودرجـة الإقنـاع. فمـن السـهل حسـاب عـدد الأشـخاص الذيـن ظهـرت لديهـم كل رسـالة، في حـين أنـه مـن الأصعـب بكثـير قيـاس تأثـير الرسـائل وتحديـد الروايـة التـي كانـت أكـثر إقناعًـا.

إن الجهـود التـي بُذلـت في أعقـاب عمليـة «الجـرف الصامـد» لفهـم أي الرسـائل نجحـت في إقنـاع جمهورهـا المسـتهدف قـد أسـفرت عـن رؤيـة مثـيرة للاهتـمام: نـشر الرسـائل التفاضليـة في العـصر الجـذري (الريزومـاتي) يمكـن أن يكـون إشـكاليًا للغايـة.

منـذ نجـاح الجيـش الإسرائيـلي في عـام ٢٠١٢م، والـذي أشـادت بـه وسـائل الإعـلام الدوليـة، غالبًـا مـا كان أولئـك الذيـن يعملـون في مكتـب المتحـدث باسـم الجيـش الإسرائيـلي يتفاخـرون بحقيقـة أن نشـاطهم عـلى وسـائل التواصـل الاجتماعـي قـد سـمح لإسرائيـل بتأثـير أكـبر عـلى الـرأي العـام. وعـلى مـا يبـدو كان لهـذا الادعـاء أرجـل، ولكـن كـما حـدث في الماضي، فـإن إحدى المشـاكل الرئيسـية للجيـش الإسرائيـلي نبعـت عـلى وجـه التحديـد مـن رغبتـه – التـي تبـدو في ظاهرهـا معقولـة ومنطقيـة – في تقسـيم الرسـائل إلى جماهـير مختلفـة في الداخـل والخـارج. وهنـا، تمامًـا كـما حـدث في حادثـة أسـطول مرمـرة – عندمـا تسـبب تفضيـل الاعتبـارات

الداخلية في فشل النشاط الموجه للخارج - حدث كذلك أيضًا في عملية «الجرف الصامد»: فلقطات القصف العنيف في غزة التي وزعها الجيش الإسرائيلي لأغراض داخلية (رفع المعنويات داخل الجيش، وكسب تأييد الرأي العام في إسرائيل) ولإظهار القوة والعزم تجاه حماس، كان ينظر إليها بشكل سلبي للغاية في الرأي العام الدولي.

حتى في عملية «الجرف الصامد»، كما في جميع الحروب السابقة، اشتكى العديد من الإسرائيليين من أن وسائل الإعلام الدولية تتصرف بشكل غير متساوٍ: فهي غالبًا ما تنشر مشاهد الدمار في جانب العدو ولا تظهر الأضرار التي يلحقها بإسرائيل. ويبدو أن هذا الادعاء صحيح، لكنه يشير إلى سوء فهم لمنطق وسائل الإعلام.

عندما يتعين على محرر الصور - في صحيفة «نيويورك تايمز» على سبيل المثال - أن يختار للصفحة الافتتاحية للصحيفة صورة واحدة تصف المعارك التي وقعت في اليوم السابق، وتوضع أمامه صورة منزل مدمر في سديروت وصورة لحي مدمر في غزة، أيهما سيفضل؟ المحرر لا يسأل نفسه من هو الجانب المحق في الحرب، ولا يهتم بمن بدأها، كما لا يسأل أيضًا عمن يتصرف وفقًا للقانون الدولي ومن ينتهكه. فما يوجهه هو الاعتبار المهني: أي صورة أكثر دراماتيكية، أكثر فاعلية، أي صورة ستصدم القراء أكثر، ستسبب لهم اضطرابا

عاطفيـا. وخلافًـا للاعتقـاد الشـائع، فـإن محـرر الأخبـار أيضًـا لا يأخـذ في الاعتبـار التقييـمات والأربـاح. إنـه يعمـل وفقًـا لمبـادئ مهنيـة: مـا هـي فرصـة أن تقـود الصـورة التـي اختارهـا إلى فـوز المصـور بجائـزة بوليتـزر.

ارتكـب الجيـش الإسرائيـلي أخطـاء أخـرى في الحـرب الموجهـة إعلاميًـا أدت إلى عـدم قدرتـه عـلى تحقيـق الهيمنـة عـلى الخطاب، وانتقـال هـذه الهيمنـة إلى حـماس. فعـلى سـبيل المثـال، اسـتخدم العديـد مـن المنصـات، لكنـه غالبًـا مـا كشـف عـن مصدرهـا - «المتحـدث باسـم الجيش الإسرائيـلي» - وبالتالي أثـار رد فعل تلقائي مـن التشـكك. ولـو كان قـد اسـتخدم المزيد مـن المنصـات وأعطاها أسـماء مختلفـة، لكانـت الرسـائل صبغـت بإضـاءة أكـثر موثوقيـة.

أظهـرت دراسـة تمـت فيهـا مقارنـة النظـام المعـرفي الخـاص بالجيـش الإسرائيـلي بالنظـام المعـرفي لحـماس أن المنظمـة الإرهابيـة قـد تعلمـت مـن الأخطـاء التـي ارتكبتهـا في عمليـة «عمـود السـحاب» واسـتثمرت الكثـير مـن الجهـد في تطويـر وسـائل التواصـل الاجتماعـي الخاصـة بهـا. فعـلى عكـس وحـدة المتحـدث باسـم الجيـش الإسرائيـلي، كانـت تديـر عـلى مواقـع التواصـل الاجتماعـي - إلى جانـب حسـاباتها المعروفـة والمرتبطـة بهـا - العديـد مـن الحسـابات الأخـرى التـي لم تكـن مرتبطـة بهـا. وقـد سـاعدتها كـثرة المواقـع الإلكترونيـة وحقيقـة عـدم ارتباطهـا بحـماس عـلى زيـادة عـدد المشـاهدين للرسـائل التـي نقلتهـا.

وهكـذا، عـلى سـبيل المثـال، تمتلـك المنظمـة موقعـا إلكترونيًـا يحمـل اسـم «حـماس»، وهـو بالطبـع مرتبـط بهـا، ولكـن لديهـا أيضًـا مواقـع تحمـل أسـماء «كتائـب عـز الديـن القسـام» و «مركـز المعلومـات الفلسـطيني» و «فلسـطين المحتلـة» وغيرهـا. وبالفعـل، أظهـرت الدراسـة أن عـدد المتصفحـين الذيـن اسـتخدموا الهاشـتاغ #gazaunderattack كان تقريبًـا ضعـف عـدد المتصفحـين الذيـن اسـتخدموا هاشـتاغ #israelunderfire الـذي يدعـم إسرائيـل. وعـلاوة عـلى ذلـك، فقـد عملـت العديد مـن المجموعات الناشـطة، بمـا في ذلـك مجموعـات غربيـة، لصالـح حـماس عـلى الشـبكة، وقامـوا بتوسـيع دائـرة الأشـخاص الذيـن ظهـرت لهـم رسـائلها.

الصـورة عـلى اليمـين: غـزة، عمليـة «الجـرف الصامـد»، صيـف العـام ٢٠١٤م؛ Mahmud Hams / AFP Photo.

الصـورة عـلى اليسـار: مبنـى أصيـب بصـاروخ كاتيوشـا خـلال حـرب لبنـان الثانيـة، حيفـا، صيـف العـام ٢٠٠٦م؛ ويكيبيديـا، ٤,٠ CC BY-SA.

محرر الأخبار سيفضل نشر الصورة اليمنى.

باختصار، لقد تغير توازن القوى العددي بين الجانبين: فمن الضربة القاضية التي تلقتها حماس على يد إسرائيل في عملية «عمود السحاب»، انتقل إلى أفضلية النقاط في عملية «الجرف الصامد".

إن إضافة عنصر نوعي إلى التحليل الكمي تعزز هذا الاستنتاج. فبالإضافة إلى حقيقة أن حماس نقلت رسائلها عبر قنوات عديدة، بينما اكتفت إسرائيل بعدد قليل من القنوات، كان هناك أيضًا اختلاف في مضمون رسائل الطرفين. حيث كانت رسائل حماس تفيد بأنها هي داود الذي يقاتل جالوت الإسرائيلي وأن جالوت مسؤول عن العديد من جرائم القتل والذبح. وقد كانت شيطنة إسرائيل فعالة بسبب استخدام حماس للصور المروعة. «يُمكن الملاحظة أنه منذ البداية كان هناك استخدام أكبر للوسائل المرئية مثل الصور ومقاطع الفيديو التي تحتوي على محتوى قاس للأطفال القتلى والجرحى، وبث الدمار الذي لحق بأحياء كاملة في غزة. وقد أظهر فحص ردود الأفعال أن هذه العناصر المرئية، ولا سيما صور الأطفال القتلى، تلقت تعليقات وآراء أكثر أهمية".

تظهر دراسة تم فيها فحص درجة تقبل الرسائل المرسلة من قبل إسرائيل وحماس أن المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي تمكن بشكل أساسي من إقناع المقتنعين أصلا. وقد أدت استراتيجية إسرائيل هذه إلى حقيقة أن غالبية الجمهور الذين ظهرت لهم رسائلها كانوا من المواطنين الإسرائيليين والإسرائيليين السابقين الذين يعيشون في الخارج واليهود في مختلف البلدان. أما الجمهور الأجنبي الذي وصل إليه المتحدث من خلال الشبكة فقد كان بشكل أساسي من الجاليات اليهودية في الخارج. ويشير القدر المعتدل من التعليقات الذي تم الحفاظ عليه طوال العملية إلى أنه لم تكن هناك على ما يبدو أي إضافة كبيرة لمؤيدين جدد إلى حساب المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي، وأن أولئك الذين شاركوا تغريداته كانوا نفس الأشخاص في كل مرة. حيث يدور الحديث عن أشخاص من مجتمعات مماثلة.

ومن ناحية التوزع الجغرافي للمتلقين، فيظهر أن معظمهم يعيشون في إسرائيل والولايات المتحدة. وفي مقابل ذلك، حققت حماس وصولًا واسع النطاق ليس فقط في الدول الإسلامية (بما في ذلك الدول العربية) ودول العالم الثالث، ولكن أيضًا في أوروبا، المهمة جدًا لإسرائيل. كما تجدر الإشارة إلى أنه حتى في الولايات المتحدة الأمريكية – حيث يدعم الرأي العام تقليديًا إسرائيل أكثر بكثير من حماس – ازدادت نسبة التأييد لحماس إلى حد ما. وعلاوة على ذلك، مال الأشخاص الذين استخدموا

وسائل التواصل الاجتماعي للتعرف على الصراع إلى القول بأن تصرفات حماس كانت مبررة - كما أظهر استطلاع للرأي أجرته مؤسسة غالوب[1].

أعطيت للصعوبة التي واجهتها إسرائيل في إدارة حرب وعي - التي تمت مناقشتها في وسائل الإعلام الإسرائيلية إلى درجة مثيرة للاشمئزاز تحت عنوان «إخفاقات الدبلوماسية العامة الإسرائيلية / الهسبارا» - العديد من التفسيرات، بما في ذلك نقص الميزانيات والهيكل غير المناسب لنظام الدبلوماسية العامة الإسرائيلي (يرجع ذلك جزئيًا إلى طبيعة نظام الائتلاف وتقسيم السلطات بين كل من مكتب رئيس الوزراء ووزارة الخارجية ووزارة الدفاع والجيش). ولكن هناك تفسير آخر، أعمق بكثير، لعدم فعالية الحرب الموجهة إعلاميًا التي أدارها الجيش الإسرائيلي: عدم التكافؤ في القدرات العسكرية بينه وبين حماس، وبالتالي عدم التكافؤ في حجم الأضرار والخسائر بين إسرائيل وقطاع غزة. فهذه الفوارق الكبيرة وضعت إسرائيل منذ البداية في موقف ضعيف أمام حماس.

(١) مؤسسة غالوب (Gallup, Inc.): هي شركة تحليلات واستشارات أمريكية تتخذُ من واشنطن العاصمة مقرًا لها. أسَّسَ المؤسسة جورج غالوب عام ١٩٣٥م، وأصبحت الشركة معروفة باستطلاعاتِ الرأي العام التي تُجريها في جميع أنحاء العالم. حولت «غالوب» ابتداءً من الثمانينيات أعمالها للتركيز على توفير التحليلات والاستشارات الإدارية للمؤسسات على مستوى العالم. وبالإضافة إلى التحليلات والاستشارات الإدارية واستطلاعات الرأي، تقدم الشركة أيضًا الاستشارات التعليمية وكتب الأعمال والإدارة التي تنشرها وحدة غالوب برِس التابعة لها.

فصل الأسماك عن البحر

حتى مع نهاية عملية «الجرف الصامد» في عام ٢٠١٤م - الجولة الأخيرة (حتى الآن) من الحرب المستمرة - ظل الجمهور الإسرائيلي يشعر بالمرارة كما حدث بعد أول حرب موجهة إعلاميًا، في لبنان عام ٢٠٠٦م. حيث ينبع هذا الشعور بالمرارة من التقدير بأن الحرب انتهت بالمراوحة في المكان، من دون حسم، وأن التساؤلات حول من انتصر فيها ولماذا لم يتم خلالها تحقيق المزيد بقيت مفتوحة. وقد تميزت جميع العمليات منذ عام ٢٠٠٦م بوجود فجوة كبيرة بين التوقعات والنتائج. فعلى الرغم من الأفضلية الهائلة للجيش الإسرائيلي في القوة النارية وأنه يعمل دون عوائق من الجو والبحر، وعلى الرغم من استخباراته المثالية ووسائل الحماية المتطورة، إلا أنه واجه صعوبة في إخضاع بضعة آلاف من المقاتلين الإرهابيين.

عندما ينشأ نقاش عام في أعقاب عملية عسكرية، ويتم طرح أسئلة صعبة، فإن الإجابات على هذه الأسئلة تتأثر بالأولويات السياسية الحزبية لمن يقدمون الأجوبة وبخلفيتهم الأيديولوجية. لكن بين المهنيين - سواء كانوا أشخاصًا عمليين يرتدون زيًا رسميًا أو باحثين في الأوساط الأكاديمية ومعاهد

البحوث - يعكس هذا النقاش أزمة في العقيدة الأمنية الإسرائيلية. ويستخدم عوفر شيلح[1] في كتابه تعبير «كسر مفاهيمي عميق» ويقر بأن عملية «الجرف الصامد» قد عكست «أزمة عميقة للغاية في العقيدة الأمنية وفي ممارسة القوة الإسرائيلية». كما كتب تامير يدعي[2] وعيران أورتال[3] أن «نموذج جولات الردع» الخاص بالجيش الإسرائيلي هو «نمط استراتيجي وعقيدة ذات طريق مسدود». ووفقًا لهما، فإن «مفهوم الردع القائم على الحملات القصيرة ليس فعالًا على الرغم من تحسن الدفاع النشط. ونموذج جولات الردع لن يكون قادرًا على توفير استجابة معقولة للتحديات الأمنية والاستراتيجية لدولة إسرائيل بمرور الوقت".

حتى أولئك الذين لم يستخدموا مصطلح «أزمة» وتبنوا لغة أكثر تحفظًا، وصفوا وضعًا لا يقل خطورة حيث «لا يزال الجيش الإسرائيلي ملزمًا بمفاهيم عملياتية قديمة» وأن هناك «أزمة إدراكية في الجيش البري» و «غموضا في القضايا النموذجية». كما ورد في وثيقة داخلية مهمة في الجيش الإسرائيلي

(١) عوفر شيلح **עפר שלח** (ولد عام ١٩٦٠م): صحفي وسياسي ومعلق رياضي إسرائيلي. شغل في السابق منصب عضو في الكنيست عن حزب «هناك مستقبل»، ورئيس حزب تنوفا.

(٢) تامير يدعي **תמיר ידעי** (ولد عام ١٩٦٩م): هو ضابط في الجيش الإسرائيلي برتبة لواء، يشغل حاليًا منصب قائد القوات البرية الإسرائيلية. وقد سبق له شغل مناصب قائد القيادة الوسطى وقائد قيادة الجبهة الداخلية وقائد فرقة الضفة الغربية ورئيس قسم العقيدة والتدريب في هيئة العمليات وقائد الفرقة ٨٠ «إيدوم» وقائد لواء جولاني.

(٣) عيران أورتال **ערן אורטל** (ولد عام ١٩٧١م): هو ضابط في الجيش الإسرائيلي برتبة عميد، يشغل منصب قائد مركز دادو للدراسات العسكرية متعددة الاختصاصات.

من سبتمبر/أيلول عام ٢٠١٢م، تتناول تعقيدات تصور الحرب في المجتمع الإسرائيلي والمجتمع الفلسطيني والعالم، أن «أساليب عمل إسرائيل في الأحداث القتالية خلال العقد الماضي لم يتم تكييفها مع الواقع الجديد".

ما عزز هذا التقييم هو الشعور بأن الجولة المقبلة هي بالفعل على الأبواب، وأن ما حدث منذ عام ٢٠٠٦م هو ما سيكون كذلك في المستقبل. وقد تم التعبير عن هذا التصور عبر سلسلة طويلة من المقالات والتحقيقات الصحفية المنشورة خلال عام ٢٠١٦م والتي تم تخصيصها لـ «حرب لبنان الثالثة». حيث تم التأكيد في جميع تلك المنشورات على أن السؤال ليس ما إذا كانت هذه الحرب ستندلع ولكن متى سيحدث ذلك. إن الشعور بأن جولة أخرى من الحرب مقبلة لا يثير قلقًا مفرطًا في المجتمع الإسرائيلي. حيث أن هذا هو نمط السلوك النموذجي للمجتمعات التي هي في حالة صراع مستعص (intractable conflict) والتي ترى في الحرب واقعا حتميًا مفروضا من الخارج، ولا يتوقف على سلوك المجتمع أو قادته، كما لا يمكن فعل أي شيء حيال ذلك.

تعزز التفسير الذي تقدمه نظرية الصراع الخارج عن السيطرة خلال السنوات الأخيرة على يد الباحثين في العلاقات الدولية الذين تبنوا نظرية الأمننة (securitization). ووفقًا لها، فإن ما يخلق الشعور بالتهديد ليس الموقف الموضوعي

بـل التصـورات الذاتيـة التـي تعتـبر تفسـيرًا لهـذا الموقـف. حيـث أن هــذه التصــورات أو التقييــمات أو المعتقــدات يتــم نشرهــا وتغذيتهـا مـن قبـل النخـب، وخاصـة السياسـية والأمنيـة. ولذلـك، فـإن مـا يعتـبر في أحـد الأيـام تهديـدًا أمنيًـا وجوديًـا قـد لا يعتبر في يـوم آخـر أكـثر مـن مصـدر إزعـاج لا أهميـة لـه. وبعبـارة أخـرى، فـإن التهديـد هـو موقـف مدمـج، نتيجـة لعمليـة اجتماعيـة.

في جميـع هـذه العمليـات، تلعـب وسـائل الإعـلام دورًا مركزيًـا. ففـي المجتمـع المعـاصر، هـي التـي تلعـب دور وكيـل التنشـئة الاجتماعيـة الرئيـسي، وهـي التـي تشـكل موقـف الجمهـور تجـاه الـصراع والحـرب. حيـث أنهـا تتبنـى تعريفـات النخبـة فيـما يتعلق بالتهديـد الوجـودي وضرورة وجـود الحـرب وتعمـل عـلى تطبيـع الحـرب، فتحولهـا إلى حالـة يمكـن التعايـش معهـا. وتقـوم وسـائل الإعـلام بذلـك بحـماس شـديد، لدرجة أنهـا يمكن أن تعطـي انطباعا بأنهـا حتـى تحـب الحـروب. وفي هـذا المجـال، لا يـزال البحـث الإسرائيـلي في خطواتـه الأولى، وهنـاك مجـال لتطويـره وتوسـيعه.

إذن، مـاذا سـيكون وجـه الحـرب القادمـة، سـواء اندلعـت في غـزة أو في لبنـان؟ مـاذا سـتكون تحركاتهـا، ومـا هـي الشـخصية التـي سـترتديها؟ تقـول شـخصيات عامـة ومسـؤولون عسـكريون، وعـلى رأسـهم رئيـس الأركان، منـذ عقـد مـن الزمـان، أن إسرائيـل سـتتصرف وفقًـا لعقيـدة الضاحيـة: «في كل قريـة سـيطلقون منهـا النـار عـلى إسرائيـل، سنسـتخدم قـوة غـير مكافئـة ونلحـق أضرارًا

ودمارا هائلين هناك. فبالنسبة لنا، هذه قواعد عسكرية... [ستكون هذه] ضربة غير متكافئة، ستضرب النواة الضعيفة للعدو، في حين أن الجهد المبذول لإلحاق الضرر بقدرات إطلاق الصواريخ سيكون ثانويًا. فور اندلاع المواجهة، سيُطلب من الجيش الإسرائيلي التصرف بسرعة وبقوة لا تتناسب مع التهديد وأعمال العدو من أجل إلحاق الضرر والمعاقبة إلى حد يتطلب عمليات إعادة تأهيل طويلة ومكلفة. ويجب أن يتحقق هذا الضرر في أقصر وقت ممكن، مع تفضيل ضرب الأصول على مطاردة كل مطلق للصواريخ".

تم إطلاق دعوة لتبني سياسة «تسطيح القرى» مع نهاية حرب لبنان الثانية ليس فقط من قبل السياسيين اليمينيين، مثل نائب رئيس الوزراء السابق إيلي يشاي[1]، ولكن أيضًا من قبل ممثلي الوسط السياسي، مثل الوزير السابق حاييم رامون[2]. وفي أعقاب ذلك، سارعت جمعية حقوق المواطن في

(١) إلياهو (إيلي) يشاي **אליהו (אלי) ישי** (ولد عام ١٩٦٢م): هو سياسي إسرائيلي. زعيم سابق لحزب شاس اليميني المتطرف، كان عضواً وممثلا للحزب في الكنيست بين عامي ١٩٩٦ - ٢٠١٥م. كما أنه شغل العديد من المناصب الوزارية بما في ذلك نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية ووزير الصناعة والتجارة والعمل. في ديسمبر/كانون الأول عام ٢٠١٤م، غادر حزب شاس لإنشاء حزب يشاد.

(٢) حاييم رامون **חיים רמון** (ولد عام ١٩٥٠م): هو سياسي إسرائيلي من أصل أوكراني، انتخب لعضوية الكنيست عدة مرات عن حزب العمل، وهو المبادر لقانون التأمين الصحي الحكومي في منتصف التسعينات. انتقل بعد عام ٢٠٠٥م إلى حزب كديما برئاسة أرئيل شارون. شغل منصب وزير القضاء ووزير الداخلية في ٤ مايو/أيار عام ٢٠٠٦م وأعلن استقالته من المنصب في ١٨ أغسطس/آب من نفس العام نتيجة مزاعم عن فضيحة جنسية له، وبالرغم من الحكم عليه بأنه مذنب بالتحرش الجنسي إلا أنه تم إعادة تعيينه في

إسرائيل إلى إرسال رسائل عاجلة إلى الوزراء، تفيد بأن «مثل هذه التصريحات تتعارض تمامًا مع أحكام القانون الإنساني، وقد يُنظر إليها على أنها تعبير عن سياسة إسرائيل في ارتكاب جرائم حرب». كما سمعت تصريحات شعبية عامة تحمل نفس هذه الروح أيضًا في صيف عام ٢٠١٦م، عندما تم الاحتفال بمرور عقد على حرب لبنان، هذه المرة دون أي تحفظات عامة. لكن على مستوى أكثر تحليلاً، حتى بعد عملية «الجرف الصامد»، استمر الجدل المهني حول كيفية التغلب على حزب الله وحماس في الجولة القادمة من المعارك. حيث تكمن في صلب هذا النقاش معضلة كيف يمكن من حيث المبدأ التوصل إلى حسم استراتيجي في الحروب ضد التخريب.

على المستوى العملي، كان هذا استمرارًا للجدل حول المفهوم العملياتي للجيش الإسرائيلي - وهو نقاش بدأ في بداية القرن. وحتى بعد نشر وثيقة «استراتيجية الجيش الإسرائيلي» في عام ٢٠١٥م، لم يتم التوصل إلى توافق في الآراء - لا فيما يتعلق بمجرد وجود الأزمة العقائدية ولا فيما يتعلق بالطريقة الصحيحة لحلها. وهذا ما كتبه العميد موني حوريف[1] حول هذا الموضوع:

يوليو/تموز عام ٢٠٠٧م كنائب لرئيس الحكومة الإسرائيلية.

(١) موني حوريف **מוני חוריב**: هو عميد احتياط في الجيش الإسرائيلي. سبق وتولى قيادة كل من لواء جفعاتي ومدرسة الضباط التابعة للجيش الإسرائيلي والفرقة ٥٦٠.

"عندما لا يكون لدى الخصم مراكز ثقل ذات أهمية جغرافية دقيقة، فإن انتشاره الموزع يعني أن المناورة الضخمة ستستنفد نفسها بسرعة كبيرة. ثم نصل إلى حالة من الإرهاق والتعب وتآكل الشرعية وتطور الجدل الداخلي في إسرائيل حول موضوع: ‹ما الذي نفعله هنا أصلاً، وماذا يخدم ذلك؟›"

"في الواقع، منذ حرب لبنان الثانية وحتى اليوم (ربما باستثناء عملية ‹السور الواقي›)، فإن نمط العمل الرئيسي للجيش الإسرائيلي هو العمليات التي لا تهدف إلى تحقيق حسم. عملية محدودة في أهدافها وفي جدولها الزمني والموارد المسخرة لها وتحديد الإنجازات التي يتطلبها المستوى السياسي. والمفهوم العملياتي في هذه العمليات جدير بالبحث والمناقشة التي تمكن من تطوير نهج عملياتي واستراتيجي يختلف عن مفاهيم العمليات والحروب التي تهدف إلى تحقيق منطق الحسم... النهج المألوف في عملية ‹عمود السحاب› وعملية ‹الرصاص المصبوب› [كان] عبارة عن ضربة نارية افتتاحية قوية تستمر لمدة يومين إلى ثلاثة أيام، إلحاق أضرار بالغة بمعظم الأهداف الموضوعة في ‹بنك الأهداف›، على أمل تحقيق إنهاء سريع للحملة بتهدئة مع الردع. وإذا لم يتحقق إنهاء الحملة، يتم تنفيذ الخطوة التالية – المناورة. في عملية ‹عمود السحاب›، لم يتم تنفيذ المناورة، لكن القوات المناورة تجمعت في مناطق التحشد ونظمت نفسها للتحرك الهجومي. حيث

تـم تجنيـد عـشرات الآلاف مـن الأشـخاص وتدريبهـم في مناطـق التحشـد اسـتعدادًا للمنـاورة، لكـن يبـدو أنـه حتـى بالنسـبة للخصـم كان واضحًـا أنـه لا توجـد نيـة لتنفيـذ التهديـد...“

حـل مـوني حوريـف للمعضلـة هـو تبنـي المفهـوم المقبـول في الاسـتراتيجية العسـكرية الـذي يطلـق عليـه اسـم «هيمنـة التصعيـد“ (escalation dominance): ”عـدم البـدء بضربـة افتتاحيـة قويـة تسـتنزف وتضعـف بنـك الأهـداف، بـل التعامـل تحديـدًا مـع مسـألتي الحفـاظ عـلى التهديـد خـلال العمليـة والشرعيـة الدوليـة كعنـاصر تحـدد وتخلـق حـدود حريـة المنـاورة ومرونـة العمـل في الحملـة. أي بـدء الحملـة بقـوة ناريـة منخفضـة نسـبيًا وزيـادة مسـتويات الشـدة نحـو ‹نقطـة الـذروة›، والتـي يجـب دفعهـا إلى الأمـام لأطـول فـترة ممكنـة. وبهـذه الطريقـة، يمكـن الحفـاظ عـلى التهديـد الفعـال للتصعيـد الخاضـع للسـيطرة طـوال جميـع مراحـل الحملـة، وهـو تهديـد يوضـح للخصـم عـدم جـدوى مواصلـة القتـال وقـد يـؤدي إلى تحقيـق تهدئـة تتوافـق مـع التعريفـات المحـدودة للمسـتوى السـياسي: اسـتعادة الـردع وإعـادة الاسـتقرار لفـترة طويلـة مـن الزمـن“.

يبـدو أن الوثيقـة الاسـتراتيجية التـي نشرهـا رئيـس الأركان في عـام ٢٠١٥م قـد حسـمت ظاهريـا الجـدل بنـوع مـن التسـوية.

وقد كتب يهودا بن مئير[1] وجابي سيبوني[2] في كتاب نشره معهد دراسات الأمن القومي ما يلي: «تخلق الوثيقة معادلة محدثة فيما يتعلق بالعلاقة الصحيحة بين المناورة والنيران. إن مفهوم استخدام القوة الوارد في ‹استراتيجية الجيش الإسرائيلي›... مبني على توجيه ضربة متكاملة فورية ومتزامنة من خلال عنصرين أساسيين:

الأول - مناورة فورية تهدف إلى ضرب العدو واحتلال الأراضي والحد من إطلاق النار من الأراضي المحتلة والاستيلاء على البنية التحتية العسكرية فيها وتدميرها والإضرار بقدرة حكومة العدو على البقاء. والعنصر الأساسي الثاني - تفعيل قوة نارية استراتيجية منهجية واسعة النطاق قائمة على حرية العمل الجوي والاستخبارات عالية الجودة... ويختلف هذا المفهوم اختلافًا جوهريًا عن المفهوم الذي تم على أساسه استخدام القوة في المواجهات الأخيرة. ففي تلك المواجهات، تم استخدام القوة بشدة متزايدة (‹درجات تصعيد› باللغة العسكرية)، في حين كانت المناورة هي آخر عناصر العملية

(١) يهودا بن مئير **יהודה בן מאיר** (ولد عام ١٩٣٩م): هو عالم نفس وأستاذ جامعي ومحامي وناشط اجتماعي وسياسي إسرائيلي، وعضو سابق في الكنيست. يعمل حاليًا كزميل باحث في معهد دراسات الأمن القومي.

(٢) جابي سيبوني **גבי סיבוני** (ولد عام ١٩٥٧م): هو عقيد احتياط في الجيش الإسرائيلي. ترأس البرامج البحثية في معهد دراسات الأمن القومي في المجالات العسكرية والاستراتيجية والأمن السيبراني، وهو حاليًا زميل باحث أول في معهد القدس للاستراتيجية والأمن. كما أنه أستاذ في جامعة فرانسيسكو دي فيتوريا بمدريد.

التـي يتـم اسـتخدامها مـن ضمـن سـلة القـدرات العسـكرية".

وأضـاف شـموئيل إيفـن[1] وكـوبي ميخائيـل[2] في نفـس الكتيـب أن: «الاسـتراتيجية الجديـدة تختلـف اختلافًـا جوهريًا عن سـابقتها، خاصـة وأن البيئـة الأمنيـة قـد تغيرت: فالحـروب الجديـدة تختلف في خصائصهـا عـن الحـروب السـابقة، وتتوقـف عنـد نقطـة زمنيـة معينـة وعـلى خـط معـين، بعـد أن يكـون العـدو قـد تكبـد أضرارا كافيـة وبـدون حسـم – حتـى الجولـة التاليـة. فالـردع لا يمنـع الإرهـاب وجـولات القتـال العنيفـة، والتحذيـر ليـس معيـاراً كـما في السـابق لتعبئـة الاحتيـاط، ولا يتـم تحديـد بـأن الحسـم هـو هـدف الحملـة. أمـا مـكان الحسـم فقـد أصبـح النـصر، الـذي يجـب تحديـده مسـبقًا مـع المسـتوى السـياسي".

لكـن هـذا الحـل الوسـط يتجاهـل مفارقـة القـوة. حيـث يبـدو أن عـددًا غـير قليـل مـن المشـاركين في المناقشـة – سـواء أولئـك

(١) شـموئيل إيفـن **שמואל אבן**: كان باحثـا في معهـد أبحـاث الأمـن القومـي، ويعتـبر اقتصاديـا لامعـا ومختصـا في مجـالات الأمـن القومـي في منطقـة الـشرق الأوسـط، وقـد أصـدر سلسـلة مـن المؤلفـات التـي تعنـى أساسـا باقتصاديـات الـشرق الأوسـط والموازنـات الماليـة التـي تنفـق لصالـح المجـالات الأمنيـة، إلى جانـب اهتمامـه بالنفـط العالمـي والاسـتخبارات والإرهـاب. عمـل مستشـارا للشـؤون الاسـتراتيجية والاقتصاديـة للـوزارات الحكوميـة والـشركات الخاصـة العاملـة في إسرائيـل. حصـل عـلى شـهادة الدكتـوراه مـن معهـد التخنيـون وجامعـة حيفـا، وأنهـى خدمتـه العسـكرية في صفـوف الجيـش برتبـة عميـد متقاعـد، بعـد أن أمـضى سـنين طويلـة في سـلاح المخابـرات.

(٢) كـوبي (يعقـوب) ميخائيـل **קובי (יעקב) מיכאל** (ولـد عـام ١٩٦٠م): هـو باحـث أول في معهـد دراسـات الأمـن القومـي، متخصـص في دراسـات السـلام والحـرب، والاسـتراتيجية، والأمـن القومـي، والعلاقـات بـين المسـتوى السـياسي والمسـتوى العسـكري، وبـين الجيـش والمجتمـع، وحفـظ السـلام، والـصراع الإسرائيـلي الفلسـطيني.

الذين يدعمون المناورة البرية أو أولئك الذين يفضلون إطلاق النار عن بعد - يتجاهلون المعضلة الأساسية للصراع الإسرائيلي الفلسطيني: كونه صراعًا موجهًا إعلاميًا.

عبّر إدوارد لوتواك[1] عن المجموعة الأولى، وكعادته فعل ذلك بشكل قاطع. حيث جادل بأنه يجب التخلي عن استخدام سلاح الجو واستخدام المشاة فقط، وعندئذ لن يكون هناك «وضع داود مقابل جالوت. لا عمليات قصف، ولا قوة جوية ضد المدنيين على الأرض، كما لن يستطيع حزب الله أن ينشر لوسائل الإعلام صور الأطفال القتلى في بيروت. فالأداة هي أداة تعطي الشرعية». وعن طريق استخدام المشاة «يتم تقليل فقدان الشرعية إلى الحد الأدنى، لأن العالم يرى أشخاصًا يدافعون عن أنفسهم ضد الصواريخ باستخدام البنادق وليس أشخاصًا يقصفون مدنا وتجمعات سكنية كاملة".

ألا يشعر لوتواك بالقلق من أن تؤدي المناورة البرية إلى زيادة كبيرة في عدد الإصابات بين مقاتلي الجيش الإسرائيلي؟ يجيب: «بالطبع، هناك قضية الإصابات، سأسميها ‹الشرعية الداخلية›»، لكنه يرفض بازدراء هذا الاعتبار. ويضيف: «عندما تتعامل مع الاستراتيجية، فأنت لست في نفس موقف ربة المنزل. إذا كنت تخطط لتشكيل عقلية ربة منزل فيما يتعلق

(١) إدوارد نيكولاي لوتواك Edward N. Luttwak (ولد عام ١٩٤٢م): هو باحث استراتيجي عسكري أمريكي ومؤلف معروف بأعماله في الاستراتيجية الكبرى وعلم الاقتصاد الجغرافي والتاريخ العسكري والعلاقات الدولية. أشهر مؤلفاته كتاب «الانقلاب: دليل علمي».

بالإصابات، فلن تتمكن حتى من دخول ‹منزل الاستراتيجية›، ومن الأفضل أن تبقى خارجا".

إن لوتواك مخطئ بالطبع عندما يقلل من أهمية الشرعية الداخلية. ففي نظر معظم الإسرائيليين، الحرب ضد حماس لها ما يبررها لأنها منظمة إرهابية، ولكن عندما يرتفع ثمن الحرب، سيزيد ثقل أولئك الذين لن يكونوا مستعدين لدفع الثمن الباهظ لما يسمونه «حرب المستوطنات» وسيفضلون التخلي عنها. هذا ما حدث في جنوب لبنان ودفع رئيس الوزراء إيهود باراك إلى اتخاذ قرار الانسحاب من الحزام الأمني عام ٢٠٠٠م.

علاوة على ذلك، لا تكمن المشكلة في الخسائر في صفوف قوات الجيش الإسرائيلي فحسب، بل تكمن أيضًا في الأضرار الجانبية التي تلحق بالخصم. حيث أنه من شأن المناورة البرية أن تؤدي إلى سقوط المزيد من الضحايا المدنيين على الجانب الآخر أكثر من القصف الجوي الدقيق وأن تضر بالشرعية التي يمنحها العالم للعملية الإسرائيلية. وبعبارة أخرى: قد تؤدي المناورة البرية إلى زيادة كل من الإصابات في صفوف جنود الجيش الإسرائيلي والأضرار الجانبية التي ستلحق بالخصم، بحيث تجد إسرائيل نفسها متضررة مرتين: تتكبد خسائر فادحة وتفقد الشرعية الدولية.

ربما يكون الادعاء بأن وقت حروب الحسم لم ينته

صحيحًـا بالنسـبة للحـروب المتكافئـة مـن النـوع A أو الحـروب غـير المتكافئـة مـن النـوع B (الجـدول في الصفحـة ٣٧) – وهـما حالتـان يكـون فيهـما مسـتوى التعـرض الإعلامـي منخفضًـا. لكـن هـذا ليـس صحيحًـا عندمـا يتعلـق الأمـر بحـروب مـن النـوع C و D، وهـما النوعـان الخاصـان بالحـروب الإعلاميـة. وهـذه الأخـيرة هـي حـرب إعلاميـة مـن النـوع الـذي تخوضـه إسرائيـل.

سـتجري جـولات القتـال القادمـة – سـواء في لبنـان أو في غـزة – في منطقـة مشـبعة بوسـائل الإعـلام. حيـث سـتؤدي صـور المدنيـين القتـلى والأهـداف المدنيـة المدمـرة إلى الإضرار بالشرعيـة الدوليـة لإسرائيـل. فالعـالم ربمـا يتقبـل بـلا مبـالاة الصـور المروعـة للإبـادة الجماعيـة في سـوريا أو اليمـن، ولكـن، كـما تظهـر التجربـة المكتسـبة في العقـد المـاضي، مـن المشـكوك فيـه للغايـة مـا إذا كان سـيكون غـير مبـال بنفـس القـدر في مواجهـة الصـور المماثلـة القادمـة مـن لبنـان أو غـزة. وكلـما زادت القـوة التـي تسـتخدمها إسرائيـل، فإنهـا سـتخسر أكـثر في حـرب الصـور. وقـد يـؤدي هـذا الأمـر أيضًـا إلى خسـارة المعركـة القانونيـة، وهـذا، عـلى الأرجـح، سـيؤدي أيضًـا إلى قيـام المؤسسـات الدوليـة بفـرض اتفـاق لوقـف إطـلاق النـار عـلى إسرائيـل ضـد إرادتهـا.

وربمـا لا يكـون السـؤال مـا هـو مقـدار القـوة التـي سـيتم اسـتخدامها ولكـن كيـف سـيتم اسـتخدامها؟ ويعـبر وزيـر الدفـاع السـابق موشـيه يعلـون عـن أولئـك الذيـن يعتقـدون أن الابتكارات

التكنولوجيـة سـتكون قـادرة عـلى تقليـل ضرر السـمعة وبالتـالي ستسـاعد في التعامـل مـع مفارقـة القـوة. حيـث يقـول: «الأسـلحة الدقيقـة تجعـل الأمـر أسـهل بالنسـبة لنـا، لأننـا إذا أردنـا ألا نلحـق الـضرر بأولئـك الذيـن ليسـوا متورطـين أو نتجنـب مـا نسـميه ‹الأضرار الجانبيـة›، فإنهـا تتيـح لنـا أن نكـون أكـثر دقـة وألا نطلـق النـار بالأسـلحة التقليديـة التـي يمكـن أن تلحـق الـضرر بالمزيـد مـن غـير المتورطـين".

حـل آخـر للمعضلـة يقدمه عوفر شـيلح، الـذي يـوصي بالانتقال إلى أسـلوب تنفيـذ الغـارات. حيـث يقـول: «لقـد فقدنـا المنـاورة كأداة عمليـة بسـبب قضيـة الخسـائر ولأننـا لا نعـرف مـا العمـل مـع حقيقـة أن معنـى احتـلال الأرض والاحتفـاظ بهـا بمـرور الوقت قـد تغـير. في نظـري، هنـاك حـل واضـح للغايـة لهـذا الأمـر: لقـد نشـأ الجيـش الإسرائيـلي عـلى مفهـوم الإغـارة. فيمكـن أن تكـون الغـارة بواسـطة مجموعـة مـن الجنـود، ولكـن أيضًـا بواسـطة لـواء مـدرع أو فرقـة مدرعـة تتحـرك بسرعـة كبـيرة في الميـدان وتغـادر، وبالتـالي يكـون هنـاك سـيطرة عـلى عنـصر الوقـت".

لكـن لمـاذا سـتؤدي الإغـارة إلى تحييـد مفارقـة القـوة؟ وبـأي طريقـة سـتقلل مـن الأضرار الجانبيـة وتمنـع تغطيتهـا الصحفيـة مقارنـة بضربـة جويـة أو منـاورة بريـة مـن النـوع القديـم؟ وهـل منعـت الأسـلحة الدقيقـة الجيـش الأمريـكي مـن إلحـاق أضرار جسـيمة بالمدنيـين في سـوريا والعـراق خـلال الأشـهر الثلاثـة الأولى

مـن عـام ٢٠١٧م؟

خـلال الجـولات الثلاثـة مـن المواجهـة واسـعة النطـاق في قطـاع غـزة، تمكـن الجيـش الإسرائيـلي مـن إيجـاد رد مهـم للتحـدي الهجومـي الـذي تشـكله حـماس: فقـد حسّـن القـدرة عـلى الدفـاع ضـد الأسـلحة منحنيـة المسـار، وعـلى الأرجـح وجـد أيضًـا الحـل للتهديـد مـن تحـت الأرض. حيـث مـن المفـترض أن يكتمـل تنفيـذ هـذا الحـل في أوائـل عـام ٢٠١٩م. كـما تحقـق المعركـة بـين الحـروب أيضًـا نجاحًـا كبـيرًا: فهـي تلحـق الـضرر بعمليـة تـزود الخصـوم بالأسـلحة، وتبطـئ وتـيرة تنظيمهـم، وتقطـع رأس قيادتهـم العليـا، وقـد تتمكـن أيضًـا مـن تأجيـل انـدلاع العنـف الكبـير التـالي لبضـع سـنوات.

وعـلى الرغـم مـن كل ذلـك، لا تقـدم العقيـدة الدفاعيـة إجابـة شـاملة. فـماذا سـيحدث في المسـتقبل، عندمـا تـأتي الجولـة التاليـة مـن الحـرب مـرة أخـرى؟ مـا سـتكون نتائجهـا؟ ألـن تكـون تكـرارًا لمـا حـدث في الجـولات الخمسـة السـابقة؟ ألا ينبغـي الاسـتفادة مـن الفـترة الانتقاليـة بـين الجـولات بطريقـة مختلفـة: فبـدلاً مـن تأجيـل الجولـة التاليـة، يجـب التعامـل بشـكل أعمـق مـع جـذور الـصراع مـع الحركـة الوطنيـة الفلسـطينية الـذي يؤثـر عـلى علاقـات إسرائيـل مـع العـالم الإسـلامي بشـكل عـام ومـع العـالم العـربي بشـكل خـاص؟ وإذا لم يكـن مـن الممكـن إنهـاؤه، ألا يمكـن عـلى الأقـل خفـض ارتفـاع اللهـب وتخفيفـه؟ أليـس مـن الأفضـل

التوقف عن محاربة البعوض والبدء في تجفيف المستنقع؟ تعتبر القيادة السياسية في إسرائيل اليوم هذا الاحتمال غير واقعي بل وساذجا أيضًا، وهو مرفوض تمامًا.

تقف في مواجهة هذا المفهوم مدرستان فكريتان: مدرسة «بضربة واحدة / زبينغ فيجامرنو **זבנג וגמרנו**»[1] والمدرسة الفكرية الخاصة ب «إدارة الصراع». حيث يوصي أتباع المدرسة الفكرية الأولى، المحبطون من حقيقة أن التهديد المستمر لمنظمات المقاومة لم تتم إزالته بعد، باستخدام القوة المكثفة للقضاء عليهم تمامًا. وهذا هو موقف وزير الدفاع أفيغدور ليبرمان[٢] الذي صرح في خريف عام ٢٠١٦م أن الجولة القادمة من العنف يجب أن تكون الجولة الأخيرة لحكومة حماس.

لا يشير هذا التصور إلى فهم عميق بشكل خاص لجوهر الصراع بين إسرائيل وحماس. فاستخدام القوة المكثفة بأسلوب «في ضربة واحدة» لن يكون قادراً على القضاء على حماس في غزة، لأن حماس لها جذور عميقة في المجتمع الفلسطيني. وحتى لو تعرضت الآلة العسكرية لحماس للضرب المبرح، فسيتم استيعابها بين السكان المدنيين، وستستمر بنيتها التحتية

(١) زبينغ فيجامرنو **זבנג וגמרנו** (بضربة واحدة): تعبير يدل على فعل سريع ولمرة واحدة، يتم تنفيذه بضربة واحدة.

(٢) فيغدور ليبرمان **אביגדור ליברמן** (ولد عام ١٩٥٨م): هو سياسي إسرائيلي وزعيم يميني متطرف، يشغل منصب وزير المالية ورئيس حزب «إسرائيل بيتنا». سبق له شغل المناصب التالية: نائب رئيس الوزراء، ووزير الدفاع، ووزير الخارجية، ووزير الطاقة والبنية التحتية، ووزير المواصلات، ورئيس لجنة الخارجية والأمن، ومدير عام مكتب رئيس الوزراء

المدنيـة في الوجـود. وبشـكل محـق كتـب أفرايـم عنـبر[1]، وهـو بعيـد كل البعـد عـن أن يكـون حمامـة أمنيـة: «مخطـئ مـن يظـن أنـه يمكـن إخـراج حركـة حـماس مـن غـزة بضربـة واحـدة وتدمـير قدراتهـا مـرة واحـدة وإلى الأبـد... إن إنهـاء حكـم حـماس ليـس هدفـا عسـكريا يسـهل تحقيقـه... لا توجـد طريقـة لتدمـير حـماس مـن خـلال احتـلال عسـكري ترافقـه ‹إعـادة هندسـة سياسـية› للمجتمـع الفلسـطيني. ولا توجد طريقة لاسـتيراد قيـادة منتخبة...“

إن الادعـاء بـأن اسـتخدام القـوة المفرطـة لا يمكـن أن يحقـق النتائـج المرجـوة في الحـرب ضـد التخريـب كان صحيحًـا حتـى قبل أن يدخـل العنـصر الإعلامـي في الصـورة. في الواقـع، كان هـذا هـو الاسـتنتاج الـذي توصـل إليـه القـادة الأمريكيـون الذيـن حاربـوا خـلال السـنوات الأخـيرة في أفغانسـتان أو العـراق. وهـو يعكـس المعرفـة المتراكمـة لـدى معظـم الخـبراء الذيـن حاولـوا فهم أسـباب فشـل الجيـوش الغربيـة في قمـع الحـركات الثوريـة.

حتـى الجيـش الإسرائيـلي ينـشر منـذ سـنوات بـين قادتـه المعرفـة بهـذه الـروح التـي كتبهـا الباحثـون في مجـال الانتفاضـات في حقبـة مـا بعـد الاسـتعمار بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة. كـما أن مـن بـين هـؤلاء العلـماء أيضًـا الضابـط اليهـودي الفرنـسي ديفيـد

(١) أفرايـم عنـبر **אפרים ענבר** (ولـد عـام ١٩٤٧م): هـو أسـتاذ فخـري في قسـم العلـوم السياسـية بجامعـة بـار إيـلان، ورئيـس معهـد القـدس للاسـتراتيجية والأمـن (JISS). وقـد كان المديـر المؤسـس لمركـز بيغـن والسـادات للدراسـات الاسـتراتيجية.

جالـولا[1] (١٩١٩ – ١٩٦٧م)، الـذي أثـرت كتبـه بشـكل كبـير عـلى مؤلفـي العقيـدة القتاليـة الأمريكيـة في مجـال مكافحـة التمـرد – وهـي عقيـدة تـم تلخيصهـا في كتيـب «عمليـات مكافحـة التمـرد» الـذي نـشره الجيـش الإسرائيـلي في عـام ٢٠٠٦م.

في وقـت مبكـر مـن عـام ١٩٦٣م، وضـع جالـولا قاعـدة (قـام الجـنرال ديفيـد بترايـوس[2]، الـذي تـرأس القـوة متعـددة الجنسـيات في العـراق بـين عامـي ٢٠٠٧ – ٢٠٠٨م، بتكرارهـا عـدة مـرات بعاطفـة كبـيرة، كـما لـو كان أول مـن صاغهـا)، تقـول: «إن انتصـار الحـرب عـلى التمـرد ليـس تدمـير قـوى التمـرد وتنظيمـه السـياسي. وإذا تـم تدمـير قواتـه أو تنظيمـه السـياسي، فـإن مـا تبقـى سـيعيد بنـاء الآخـر. كـما أنـه إذا تـم تدمـير كليهـما معًـا، فسـيتم إعـادة بنـاء كليهـما مـن قبـل متمردين جـدد يصلـون مـن خـارج المنطقـة. وهـذا بالضبـط مـا حـدث في العديـد مـن عمليات التطهـير التـي نفذتهـا فرنسـا خـلال الحـرب الهندوصينيـة".

عـزا جالـولا صعوبـة القضـاء عـلى التمـرد بالوسـائل العسـكرية إلى حقيقـة أن الأمـر يتعلـق بحـرب ذات طبيعـة سياسـية. حيـث يقـول: «في الحـرب الثوريـة، يكـون الهـدف هـو السـكان أنفسـهم،

(١) ديفيـد جالـولا David Galula (١٩١٩ – ١٩٦٧م): أو داود قلالـة، كان ضابطًـا عسـكريًا وباحثـا فرنسـيا، وكان لـه أثـر كبـير عـلى تطويـر نظريـة مكافحـة التمـرد وتنفيذهـا.

(٢) ديفيـد بترايـوس David Petraeus (ولـد عـام ١٩٥٢م): هـو ضابـط أمريـكي، شـغل منصـب رئيـس وكالـة المخابـرات المركزيـة CIA مـن ٦ سـبتمبر/أيلول عـام ٢٠١١م وحتـى ٩ نوفمبر/تشريـن الثـاني عـام ٢٠١٢م. وقبـل ذلـك كان قائـد القيـادة المركزيـة الأمريكيـة وقائـد القـوة المتعـددة الجنسـيات في العـراق وقائـد قـوات الناتـو والقـوات الأمريكيـة في أفغانسـتان.

وتكـون العمليـات ذات طبيعـة سياسـية في جوهرهـا. ولذلك، تبقى العمليـة السياسـية هـي العمليـة الرائـدة طـوال مسـار الحـرب. وتصبـح السياسـة أداة فعالـة للعمليـات. فالعلاقـة بـين العمليـات السياسـية والعمليـات العسـكرية معقـدة للغايـة إلى درجـة أنـه يسـتحيل الفصـل بينهـما بدقـة. ولذلـك يجـب أن تأخـذ كل خطـوة عسـكرية بعـين الاعتبـار نتائجهـا السياسـية، والعكـس صحيـح".

مـا كان صحيحًا بالنسـبة للحـروب الماضية أصبح صحيحًا بشـكل مضاعـف في عـصر الحـرب الموجهـة إعلاميًـا، العـصر الـذي يشـمل فيـه نطـاق الحـرب أيضًـا الحـرب الإعلاميـة والحـرب القانونيـة – الأمـر الـذي ولـد مفارقـة القـوة. كـما أن اسـتنتاجات جالـولا في أعقـاب الحـرب الهندوصينيـة واسـتنتاجات بترايـوس في أعقـاب حـرب العـراق صحيحـة أيضًـا فيـما يتعلـق بالحـروب الإسرائيليـة.

في أبريل/نيسـان عـام ٢٠١٦م، كتـب الجـنرال ديفيـد بترايـوس عـن أسـباب إنجـازات الولايـات المتحـدة في العـراق: «مـن أجـل إنشـاء سياسـة أمـن قومـي ناجحـة، تحتـاج إلى تطويـر تصـور شـامل، وإيجـاد أفـكار كبـيرة... إن قفزتنـا إلى الأمـام التـي كانـت ناجحـة للغايـة لم تكـن في زيـادة تشـكيل المعركـة، بـل في تبنـي الأفـكار الأصليـة التـي وجهـت الاسـتراتيجية. ففـي نهايـة المطـاف، هـي التـي قللـت مـن العنـف في البـلاد». ثـم سرد بعـد ذلـك الأفـكار الخمسـة الكـبرى، التـي صـاغ أولهـا عـلى النحـو التـالي: «كان مجـال عملنـا الرئيـسي هـو المجـال البـشري، وقـد أدركنـا أن

مهمتنا الرئيسية يجب أن تكون تحقيق الأمن للسكان. وبدون ذلك، لم يكن بالإمكان تحقيق أي هدف آخر".

في مواجهة أنصار مدرسة «بضربة واحدة» - أو بالصيغة الأكثر حداثة «دعوا الجيش الإسرائيلي ينتصر» - يزعم أنصار العقيدة الأخرى، وهي العقيدة المهيمنة في إسرائيل اليوم، أنه لا توجد حاليًا إمكانية لحل الصراع. ولذلك، كل ما يجب القيام به هو إدارته، ومن وقت لآخر من الضروري «تشذيب العشب». ويدعي مؤيدو هذا النهج لإدارة الصراع أن الحديث يدور عن حرب لا نهاية لها. حيث استخدم يعلون مصطلح «جيل كامل». ففي رأيهم، سينهي الطرف الآخر الصراع في نهاية المطاف بسبب منطق «الجدار الحديدي». حيث يقولون أن الحقيقة هي أن مصر والأردن قد أصابهما اليأس من إخضاع إسرائيل بسبب قوتها العسكرية وبالتالي وقعتا معها اتفاقيات سلام. وفي المستقبل، ستفعل المملكة العربية السعودية ودول أخرى الشيء نفسه أيضًا بسبب المصالح المشتركة والعدو المشترك، إيران، وهناك بالفعل تعاون سري معهم. ثم في النهاية، سيتصالح الفلسطينيون أيضًا مع مستقبلهم كما تحدده إسرائيل القوية.

وعلى الرغم من ذلك، فإنه من الخطأ الافتراض بأن نظرية «الجدار الحديدي»، التي أثبتت نفسها في العلاقات مع الدول العربية، ستنطبق أيضًا على منظمات المقاومة. بادئ

ذي بـدء، بسـبب خلفيتهـم الدينيـة – النضاليـة، والتـي لم تكـن عامـلاً رئيسـياً في الجيـوش الصناعيـة لأي مـن مـصر أو الأردن أو سـوريا أو العـراق. وعـلاوة عـلى ذلـك – ويـدور الحديـث هنـا عـن قضيـة تتعلـق بحـماس أكـثر مـن ارتباطهـا بحـزب اللـه – فـإن للـصراع الإسرائيـلي الفلسـطيني وجهـان اثنـان. الوجـه الأول هـو أن الفلسـطينيين ليسـوا مسـتعدين لقبـول وجـود دولـة يهوديـة في المنطقـة. أمـا الوجـه الآخـر فهـو أنهـم يخوضـون أيضًـا حربًـا مـن أجـل التحريـر الوطنـي. حيـث يسـمح وجهـا يانـوس[1] هـذان لحـماس ومنظـمات المقاومـة الأخـرى بكسـب قلـوب العـالم مـن خـلال الادعـاء بـأن حربهـم هـي فقـط ضـد الاحتـلال. ومـن ناحية أخـرى، فإنهـما يسـمحان لإسرائيـل بالادعـاء بـأن هـذه في الواقـع حـرب ضـد وجودهـا.

في الـصراع بـين هاتـين الروايتـين، تميل وسـائل الإعـلام إلى تفضيل الروايـة الفلسـطينية تحديـدًا بسـبب ضعف الفلسـطينيين، بسـبب صـور داود الفلسـطيني مقابـل جالـوت الإسرائيـلي. فالمجتمـع الـدولي يقبـل حـق دولـة إسرائيل في الوجـود – على عكـس الانطباع الـذي يحـاول المتحدثـون باسـم الحكومـة الإسرائيليـة خلقـه حاليًـا – لكنـه أيضًـا تبنـى بأغلبيـة سـاحقة روايـة الفلسـطينيين عـن

(١) يانـوس أو جانـوس (باللاتينيـة: Ianus): هـو إلـه البوابـات والمداخـل والانتقـالات والطـرق والممـرات والمخـارج في الميثولوجيـا الرومانيـة، هـذا الإلـه لـه وجهـين، وجـه ينظـر للمسـتقبل ووجـه ينظـر للـماضي، وهـو الإلـه التقليـدي لشـهر يناير ويعتـبر أصـل اسـمه، ويعتـبر حسـب الميثولوجيـا أنـه مثـير وحاسـم النزاعـات والحـروب والسـلام.

الاحتلال. والأهم من ذلك أن الفلسطينيين أنفسهم مقتنعون بهذه الرواية. إن شعبا حارب كل هذه السنوات من أجل الاستقلال وكان على استعداد لأن يدفع في سبيل ذلك مثل هذا الثمن الباهظ، لن يوقف نضاله.

يستند كلا النهجين - الأول، أنه يمكن هزيمة منظمات المقاومة الفلسطينية عسكريًا بضربة حاسمة، والآخر، أنه يمكن قمعها في حملة طويلة الأمد - في نهاية المطاف إلى فرضية عميقة للغاية تتعلق بالوضع الأمني السياسي لإسرائيل. فهما يستندان إلى مفهوم أن القوة هي الأداة الرئيسية، إن لم تكن الأداة الوحيدة، للتعامل مع الصراع، ويتجاهلان مفارقة القوة.

في السنوات الأخيرة، بدأت تُسمع أيضًا أصوات أخرى، في الوقت الراهن من قبل عدد محدود وحتى الآن من دون أي تأثير على السياسة. ففي وقت مبكر من عام ١٩٩٨م، كتب شمعون نافيه[1]، الذي شغل سابقًا منصب رئيس مركز بحوث النظرية التشغيلية في الجيش الإسرائيلي (أصبح اسمه حاليًا: مركز دادو للدراسات العسكرية متعددة الاختصاصات): «في الماضي، كان الجيش الإسرائيلي يميل إلى تبني سياسة استخدام القوة المفرطة حرصا على أمن مواطني إسرائيل. وبعبارة أخرى، كلما سنحت فرصة لضرب هدف محتمل، كان يتم التخطيط

(١) شمعون نافيه שמעון נווה (ولد عام ١٩٤٨م): هو ضابط احتياط في الجيش الإسرائيلي برتبة عميد. أنشأ وترأس مركز دادو للدراسات العسكرية متعددة الاختصاصات التابع للجيش الإسرائيلي، ويعتبر مفكرًا رائدًا ومثيرًا للجدل في مجال الفن التشغيلي للحرب.

لضربة ميكانيكية دون إيلاء الكثير من الاهتمام لاعتبارات مثل الشرعية السياسية أو الحساسية الدبلوماسية. وعلاوة على ذلك، نظرًا لأن القيادة العسكرية الإسرائيلية كان لها توجه تكتيكي، ولأنه كان لها بشكل تقليدي تأثير كبير على القيادة السياسية، فقد أصبحت أنماط العقاب السياسي من خلال الأعمال الانتقامية الدعامة الأساسية للاستراتيجية الإسرائيلية".

كان هذا أيضًا هو الاستنتاج الذي خلص إليه البحث اللاحق لسامي كوهين[1] والذي استعرض تاريخ حروب إسرائيل ضد المقاومة الفلسطينية لأجيال. فحسب زعمه، إن تفضيل استخدام القوة المفرطة هو ما يفسر سبب نجاح إسرائيل في قمع كل اندلاع في حربها الطويلة ضد الإرهاب الفلسطيني. لكن هذا أيضًا هو سبب عدم قدرتها على إنهاء الصراع. بل على العكس من ذلك، تسببت هذه الاستراتيجية بالفعل في استمراره.

لا يشارك الأكاديميون وحدهم في هذا النقد؛ بل هو موجود أيضًا داخل الجيش، على الرغم من أنه قد تمت صياغته بلغة أكثر دقة. وهكذا، على سبيل المثال، كتب المقدم أريئيل فاينر، الأخصائي النفسي السابق للقيادة الجنوبية وفرقة الضفة الغربية: «إن جوهر الهوية المهنية للقادة هو في الأساس قتالي... وحجر الزاوية المركزي للهوية العسكرية القتالية هو

(١) سامي كوهين סמי כהן (ولد عام ١٩٤٣م): هو باحث ومحاضر في معهد الدراسات السياسية بباريس، وباحث مشارك في معهد أبحاث CERI.

الافتراض أن حل المشاكل الأمنية هو مواجهة عنيفة: استخدام قوة كبيرة ضد العدو حتى يُجبر على إخضاع إرادته لإرادتنا. وهذا هو السبب في أن العسكريين الذي يشاركون في التخطيط للحملة يركزون جهودهم على التخطيط لتحركاتها القتالية... [ومع ذلك] فإن طبيعة المواجهات على مدى العقدين الماضيين تتحدى بشكل كبير الهوية المهنية الرئيسية للجيش الإسرائيلي – وهي هوية قتالية – وتخلق عدم توافق بين هذه الهوية والأفعال التي يقوم بها القادة والقوات في الواقع. حيث أن عدم التوافق هذا هو نتيجة التباين (وأحيانًا التناقض) بين منطق العمل المطلوب في المواجهات الهجينة وذلك المطلوب في العمل العسكري القتالي".

بحسب المقدم فاينر، فإن الحروب الجديدة تشمل ساحات جديدة، بما في ذلك الوعي والإعلام والقانون والسايبر والسياسة والدبلوماسية، حيث يقول: «إن السمة الرئيسية لساحات العمل هذه هي أنها يتم العمل فيها بإجراءات ذات منطق تنظيم مختلف، يتعارض مع المنطق الحربي لاستخدام القوة [الذي ميز الحروب التقليدية]. وهكذا، على سبيل المثال، فإن إجراءات مثل الحوار وضبط النفس وتقديم الحجج والحصول على الشرعية وغيرها من الأنشطة المماثلة، التي تميز العمل في ساحات الصراع الجديدة، تستند إلى منطق غير حربي. وبعبارة أخرى: إن كل هذه ممارسات لا تميز العمل في ميدان القتال،

الـذي يتـم فيـه التعبـير عـن الهويـة القتاليـة بوضـوح".

عـلى الرغـم مـن طـرح توصيـات بتبنـي منطـق مختلـف وممارسـات غـير قتاليـة في السـنوات الأخـيرة مـن خـارج المؤسسـة الأمنيـة وحتـى داخلهـا، إلا أنهـا لا تحظـى باهتـمام عـلى المسـتوى السـياسي، الـذي يتأثـر أكـثر بالاعتبـارات الأيديولوجيـة والضغـوط السياسـية. وقـد كان هـذا هـو الحـال، عـلى سـبيل المثـال، في عـام ٢٠١٥م عندمـا أظهـر عـدم حماسـه لتوصيـات قيـادة الجيـش بتقديـم تنـازلات لسـكان الأراضي الفلسـطينية المحتلـة (أراضي ٦٧) مـن أجـل منـع تجـدد انـدلاع العنـف. ثـم اندلعـت بعـد ذلـك موجـة اعتـداءات فرديـة («انتفاضـة السـكاكين»). وعـلى الرغـم مـن أن العديـد مـن الـوزراء وأعضـاء الكنيسـت انتقـدوا قـرار السـلطات الأمنيـة بممارسـة ضبـط النفـس وعـدم فـرض عقوبـات واسـعة النطـاق عـلى السـكان الفلسـطينيين بعـد انـدلاع موجـة الإرهـاب، فقـد تبـين أن طريقـة ضبـط النفـس عـلى وجـه التحديـد سـاهمت في التخفيـف مـن حدتهـا.

إذن مـا هـو البديـل المقـترح؟ مـن أجـل تحقيـق النجـاح في الحـروب الجديـدة، لا بـد بالفعـل مـن تطبيـق مبـادئ مكافحـة الإرهـاب، ولكـن بشـكل أسـاسي يجـب تطبيـق مبـادئ مكافحـة التمـرد (counter-insurgency)، وعـلى رأسـها فكـرة فصـل الأسـماك عـن البحـر، التـي صاغهـا مـاو تـسي تونـغ[1] جيـدًا. وعـلى

(١) مـاو تـسي تونـغ (١٨٩٣ - ١٩٧٦م): هـو ثـوري شـيوعي صينـي ومؤسـس جمهوريـة الصـين

حد تعبير جالولا: «إن المشكلة الرئيسية في الحرب الثورية هي كيفية كسب دعم السكان. والتقنية هي الاعتماد على الأقلية المتعاطفة لدعوة الأغلبية المحايدة إلى صفها وتحييد الأقلية المعادية أو القضاء عليها... يتمثل تحقيق النصر في تدمير قوى المتمردين وتنظيمهم السياسي إضافة إلى عزلهم الدائم عن السكان، عزلة لا تُفرض على السكان، بل تتحقق من خلالهم وبالتعاون معهم".

وبمفاهيم اليوم: إن السبيل للتغلب على تنظيمات المقاومة هو كسب المعركة من أجل وعي المجتمع المدني الذي تأتي منه وتحصل منه على شرعيتها وتستمد قوتها. بل إن الجيش الإسرائيلي قد أعد وثائق تتناول عمليات تحقيق الاستقرار وهي مكتوبة بهذه الروح. غير أن هذا المبدأ لا يطبق عمليا، وفي الحالات التي توصي فيها الأجهزة الأمنية باتخاذ خطوات بهذه الروح، مثل تشجيع النشاط الاقتصادي في الأراضي الفلسطينية المحتلة (أراضي ٦٧)، فإنها تصطدم بتجاهل ورفض المستوى السياسي. وهذا ما حدث في عام ٢٠١٧م، عندما سعى الجيش لمكافأة سكان قلقيلية على سلوكهم المعتدل ووافق على خطط بناء واسعة النطاق للمدينة، لكن وزراء الحكومة

الشعبية، والتي حكمها من خلال قيادته للحزب الشيوعي منذ تأسيسه عام ١٩٤٩م وحتى وفاته عام ١٩٧٦م. يُعرف أيضاً باسم الرئيس ماو. اشتهر ماو بأيديولوجيته الماركسية اللينينية واستراتيجياته العسكرية الخاصة ونظرياته وسياساته، إذ شكلت كل هذه الأفكار مجتمعة ما بات يعرف بالماوية

رفضوا المبادرة.

هناك من يرون هذا على أنه حقيقة واقعة ويدركون الحاجة إلى استخدام ما أسماه جوزيف ناي[1] في البداية «القوة الناعمة» ثم «القوة الذكية»، أي بنسب ملائمة وباستخدام أساليب غير عسكرية بشكل أساسي. غير أن أصواتهم قد ابتلعها الضجيج المنبعث من الساحة العامة. وهذا صحيح أولاً وقبل كل شيء على المستوى السياسي، لكنه لا يمتد إلى المستوى العسكري أيضًا. «لا يزال الجيش الإسرائيلي ملتزماً بالمفاهيم العملياتية القديمة. وعلى الرغم من إدراكه للتغييرات الأساسية التي حدثت في البيئة الاستراتيجية، إلا أنه لم يتخذ بعد الخطوات اللازمة لإكمال الانتقال من العالم القديم إلى العالم الجديد... لم يتم بعد استيعاب مفهوم العمليات متعددة التخصصات في ‹استراتيجية الجيش الإسرائيلي›... والتي تتضمن، من بين أمور أخرى، مزيجا من الجهود ‹الناعمة› جنبًا إلى جنب مع استخدام القوة العسكرية".

يقترح العميد (احتياط) أودي ديكل[2]، مدير معهد دراسات

(١) جوزيف صموئيل ناي، الابن Joseph Nye (ولد عام ١٩٣٧م): سياسي أمريكي وأستاذ العلوم السياسية وعميد سابق لمدرسة جون كينيدي الحكومية في جامعة هارفارد. أسس بالاشتراك مع روبرت كوهين، مركز الدراسات الليبرالية الجديدة في العلاقات الدولية. وتولى عدة مناصب رسمية منها مساعد وزير الدفاع للشؤون الأمنية الدولية في حكومة بل كلينتون ورئيس مجلس الاستخبارات الوطني.

(٢) إيهود (أودي) ديكل אהוד (אודי) דקל (ولد عام ١٩٥٧م): هو ضابط احتياط في الجيش الإسرائيلي، حيث تسرح من الجيش برتبة عميد، بعد أن شغل منصب رئيس فرع

الأمـن القومـي، اتبـاع نهـج متعـدد التخصصـات، تكـون فيـه العناصر المدنيـة قويـة ومتنوعـة. حيـث يجـب أن تشـمل الجهـود متعـددة التخصصـات، مـن بـين أمـور أخـرى، الوصـول المبـاشر إلى البيئـة السـكانية للخصـم مـن خـلال الدبلوماسـية العامـة، وبمسـاعدة وسـائل الإعـلام الجديـدة وتوفـير المسـاعدة الإنسـانية حتـى مسـتوى المجتمعـات المحليـة، واسـتخدام التدابـير الناعمـة مثـل حـرب المعلومـات والرافعـات الاقتصاديـة والتدابـير القانونيـة وأدوات التخريـب السـياسي واتفاقيـات الميـاه والطاقـة والمسـاعدة الأمنيـة والتكنولوجيـة ومبـادرات السـوق الخاصـة والمدنيـة. كـما يجـب أن تشـمل أيضًـا التعـاون مـع الأطـراف التـي تتداخـل مصالحهـا مـع مصالـح إسرائيـل، والحـرب السـيبرانية لتحييـد قـدرات الأعـداء وخلـق النفـوذ، وبنـاء نظـام قانـوني ودعـائي يهدف إلى الحـد مـن عزلـة إسرائيـل عـلى السـاحة الدوليـة.

كـما أعـرب البروفيسـور إسـحاق بـن يسرائيـل[1](٢٣) عـن موقـف مماثـل، حيـث قـال: «عندمـا يكـون الـصراع وجوديًـا، فـإن قيمـة التناسـب لا معنـى لهـا تقريبًـا. وليـس هـذا هـو الحـال

التخطيط الاستراتيجي في هيئة التخطيط. وعمل مديرا لمعهد دراسات الأمن القومي.

(١) إسـحاق بـن يسرائيـل **יצחק בן ישראל** (ولـد عـام ١٩٤٩م): هـو مؤلـف وسـياسي إسرائيـلي ولـواء احتيـاط في الجيـش الإسرائيـلي. نشـط حزبيـاً في كاديمـا. وقـد انتخـب عضـوا في الكنيسـت وانضـم خـلال فترتـه النيابيـة (١٣ يونيو/حزيـران ٢٠٠٧م - ٢٤ فبراير/شـباط ٢٠٠٩م) للكتلـة البرلمانيـة كاديمـا. وهـو أسـتاذ فخـري في جامعـة تـل أبيـب، ورئيـس ورشـة يوفـال نئـمان للعلـوم والتكنولوجيـا والأمـن، ورئيـس مركـز السـايبر في جامعـة تـل أبيـب. كـما شـغل منصـب رئيـس وكالـة الفضـاء الإسرائيليـة في وزارة العلـوم والتكنولوجيـا بـين عامـي ٢٠٠٥ - ٢٠٢٢م.

عندما نكون الكبار والأقوياء، والعدو هو الصغير والضعيف. حيث دعا المفهوم الأمني في الفترة الثانية [من تأسيس الدولة وحتى منتصف التسعينيات من القرن الماضي] إلى استخدام أقصى درجات القوة كلما فرضت علينا حرب. وهذا المبدأ غير صالح في الوضع الحالي... فإسرائيل، مثل قطرة في البحر العربي الكبير، بحاجة إلى دعم العالم الحر لها".

"لقد دعمنا هذا العالم بشكل تلقائي تقريبًا عندما حاربنا من أجل وجودنا، وتجد أجزاء منه صعوبة في دعمنا اليوم، عندما تكون الحرب ضد تهديد لا يُنظر إليه على أنه خطر وجودي. حيث أن التناسب والشرعية الدولية مترابطان: فكلما تمسكنا بالتناسب، سيكون من الأسهل بالنسبة لنا كسب دعم العالم الأوسع... لا يكفي التحضير والاستعداد والقتال في ساحة المعركة. وفي الوقت نفسه، من الضروري إعداد وإدارة نظام سياسي وقانوني واقتصادي وإعلامي".

تنبع صعوبة تطوير عقيدة ضد التخريب، كما يعرف قراء جالولا جيدًا، من حقيقة أن هذه الحرب ذات طبيعة سياسية في المقام الأول. وأهم إجراء سياسي يمكن أن تقوم به إسرائيل هو أن تُظهر للفلسطينيين أن هناك مسارًا سياسيًا مغريًا، يفتح أمامهم نافذة على مستقبل يوجد فيه أمل وأنه يستحق التخلي من أجله عن طريق الانتفاضة. غير أن المستوى السياسي خلال العقد الثاني من القرن الحالي غير مستعد

لتقديم هذا المسار، لأنه يتعارض مع طريقه الأيديولوجي. أما انتقاد عدم وجود سياسة إيجابية تجاه الفلسطينيين فإنه يأتي من المعارضة السياسية والأيديولوجية، البرلمانية وغير البرلمانية على حد سواء، كما أنه يأتي أيضًا من الجيش والأجهزة الأمنية الأخرى ويستند إلى نهج مهني. ومع ذلك، تشك الحكومة عن طريق الخطأ في أنه يتغذى على المفاهيم السياسية وبالتالي ترفضه تمامًا. والنتيجة: إذا لم تكن هناك فرصة «لتجفيف المستنقع»، فكل ما تبقى هو الاستمرار في قتل البعوض في كل مرة يتكاثر فيها كثيرًا. كما يمكن أيضًا استخدام استعارة أخرى يستخدمها الجيش في كثير من الأحيان: يجب الاستمرار في تشذيب العشب كلما زاد طوله أكثر من اللازم.

حتى لو افترضنا أن حالة الصراع الإسرائيلي الفلسطيني لا تعتمد على إسرائيل إطلاقاً، ولكنها ناتجة فقط عن سلوك الجانب الفلسطيني؛ وحتى لو افترضنا أن الوضع الراهن يمكن أن يستمر لفترة طويلة، فإنه من خلال السياسة التي تتبناها إسرائيل حاليًا، لن تتمكن من فصل الأسماك عن البحر. حيث لن تؤدي هذه السياسة إلى الانتصار في الحرب على القلوب والعقول، بل على العكس من ذلك، ستؤدي إلى تجنيد أجيال جديدة من الفلسطينيين في دائرة المقاومة والانتفاضة. كما أن الرواية الإسرائيلية لن تنجح أيضًا في التغلب على الرواية الفلسطينية في الرأي العام العالمي، وستكون وسائل الإعلام

الدوليـة، التـي سـتغطي الجـولات المقبلـة التـي سـتأتي حتـماً، ناقدة مـرة أخـرى. وسـوف تسـتمر مفارقة القـوة في إملاء طبيعـة الصراع.

الخاتمة

منـذ أن بـدأت حقبـة الحـروب الموجهـة إعلاميًـا (mediatized wars) في عـام ٢٠٠٦م، عـلى عكـس الحـروب التـي توسـطت فيهـا وسـائل الإعـلام (mediated wars)، شـهدت إسرائيـل – أكـثر مـن أي دولـة أخـرى في العـالم – سلسـلة مـن هـذه الحـروب: أولاً ضـد حـزب اللـه في لبنـان ولاحقًـا ضـد حـماس في قطـاع غـزة. وعـلى النقيـض مـن الحـروب الصناعيـة ضـد جيـوش الـدول العربيـة، والتـي انتهـت بانتصـار الجيـش الإسرائيـلي، كانـت نتائـج الحـروب غـير المتكافئـة مختلفـة. حيـث كان كل طـرف ينظـر إلى الحـروب ونتائجهـا بشـكل مختلـف، وحتـى في المجتمـع الـدولي لم يكـن هنـاك إجـماع حـول هـذه القضايـا.

كانـت هنـاك مرحلتـان في تطـور الحـرب الموجهـة إعلاميًـا: ففـي المرحلـة الأولى، تجـلى التحـول البـصري الـذي نشـأ مـع ظهـور التلفزيـون. فيـما جـاءت المرحلـة الثانيـة مـع تطـور الإنترنـت وتحسـن عمليـات الرقمنـة والتطـور المتسـارع لوسـائل لإعـلام الجديـدة، وخاصـة وسـائل التواصـل الاجتماعـي. وقـد خلقت هذه التغيـرات التكنولوجيـة وسـائل الإعـلام الجذريـة (الريزوماتيـة)، والتـي تختلـف تمامًـا عـن وسـائل الإعـلام الجماهيريـة. حيـث

يتمتع النظام الشبكي الجديد بطبيعة تفاعلية، ويفتقر إلى المناطقية، وهو غير مبني بشكل هرمي، كما أنه لا يحتوي على أجهزة إرسال واستقبال، بل يكون التدفق فيه من أي عقدة (node) إلى أي عقدة، حيث تكون كل منها في نفس الوقت منتجة ومستهلكة للمعلومات – prosumer على حد تعبير توفلر[1]. وفي هيكل شبكي كهذا، يكاد يكون من المستحيل المراقبة والسيطرة عليه، بالتأكيد ليس من قبل دولة ديمقراطية، على عكس البلدان ذات الطبيعة الاستبدادية.

في الحروب غير المتكافئة، ازدادت مشاركة المجتمعات المدنية بشكل كبير، وبالتالي ازداد وزن الإعلام أيضًا. حيث بدأت الحروب تدور حول الروايات والشرعية، ولذلك أضيف إلى البعد الحركي التقليدي للحرب بعدان جديدان – الإعلامي والقانوني. ونتيجة لذلك، أصبح الصراع من أجل الوعي أكثر تعقيدًا من ذي قبل.

إن الحرب الموجهة إعلاميًا تعني أن منطق الإعلام – أنماط الإنتاج، ومبادئ العمل، والأساس المنطقي، وطرق التشغيل (مودوس أوبيراندي) – يتغلغل في الميادين الاجتماعية الأخرى ويجعلها تغير طابعها. هذا هو معنى عملية الأعلمة (me-

(١) آلفين توفلر Alvin Toffler (١٩٢٨ – ٢٠١٦م): كاتب ومفكر أمريكي وعالم في مجال المستقبليات تم ترجمة كتبه إلى عدة لغات عالمية. قام بتدريس رؤساء دول مثل ميخائيل غورباتشوف رئيس الاتحاد السوفييتي الأخير والرئيس الهندي أبو بكر زين العابدين عبد الكلام ورئيس وزراء ماليزيا السابق مهاتير محمد.

diatization) التي بدأت في أواخر القرن الماضي في السياسة والثقافة ووصلت إلى عالم الحرب في بداية القرن الحادي والعشرين. ويتطلب هذا التطور من أولئك المنخرطين في فن الحرب أن يفهموا هذا المنطق بشكل أفضل. فبدون هذا الفهم لن يتمكنوا من تحقيق إنجازات عسكرية.

إن الأداة الرئيسية التي من خلالها تؤثر وسائل الإعلام على مستهلكيها هي الصورة. فبمساعدتها، لم تكتف بتقديم التقارير فحسب ولكنها أيضًا تعطي الأشياء معنى رمزيًا وتحدد النظام الرمزي. كما تبنت وسائل الإعلام أيضًا منصب القاضي: فهي تحدد أيا من أطراف النزاع على حق ومن هو المذنب. وهي تفعل ذلك وفقًا لمنطقها الخاص: حيث تميل الكاميرا إلى التعاطف مع الطرف الذي يعاني وتوجه أصابع الاتهام إلى من تسبب في المعاناة. ولذلك، وفقًا لهذا المنطق، فإن البائس هو صاحب الحق. ولا يتم الحصول على هذا الاستنتاج من خلال عملية منطقية، تحليلية، وإنما نتيجة لعملية نفسية تتطور وتتجذر في الثقافة القائمة على الصور.

تختلف سياسة الرحمة عن سياسة العدالة. فهي لا تحقق في أصول وأسباب الصراع الذي تسبب في المعاناة. حيث تحظى الصور الفوتوغرافية ومقاطع الفيديو التي تُظهر الضحايا والأضرار والدمار والألم بتقييمات عالية على شاشات التلفزيون وعلى جميع شاشات الوسائط المرئية الأخرى التي يشاهدها

الجمهـور لمـدة تزيـد في المتوسـط عـن ثمـاني سـاعات ونصـف في اليـوم. كـما يسـتخدم أولئـك الذيـن يقفـون وراء صـور المـوت والمعانـاة والدمـار أيضًـا اسـتراتيجيات بصريـة لتكثيـف ردود الفعل العاطفيـة للمشـاهدين قـدر الإمـكان.

بسـبب ميـل وسـائل الإعـلام الإلكترونيـة هـذه إلى دعـم الضعيـف، والمسـتضعف، والضحيـة، فـإن الطـرف في الـصراع الـذي ينجـح في أن يخلـق لنفسـه مثـل هـذه الصـور أكـثر مـن خصمـه هـو الـذي يكسـب دعـم الإعـلام ويفـوز بمعركـة الشرعيـة. وهكذا تنشـأ في الحـرب الموجهـة إعلاميًـا مفارقـة القـوة: ففـي حـين يسـتطيع القـوي بالفعـل أن يـضرب الضعيـف ويمنـع انتصـاره، إلا أنـه عـلى الرغـم مـن التفـاوت في ميـزان القـوى بينهـما، لـن ينجـح - بسـبب منطـق الإعـلام - في هزيمتـه. وكلـما زاد الطـرف القـوي مـن اسـتخدام القـوة - كلـما ألحـق الـضرر بنفسـه أكـثر.

وبقـدر مـا قـد تبـدو الأمـور سـاخرة، فـإن لقيـادات طـرفي الـصراع مصلحـة في إثـارة الشـعور بأنهـم ضحايـا في أعـين الكامـيرا. وهـذا أحـد أسـباب قيـام قـادة التنظيـمات غـير الحكوميـة، المتمـردة، بدمـج مقاتليهـم بـين المواطنـين. فهـم يفعلـون ذلـك ليـس فقـط لحمايتهـم مـن الأذى، ولكـن أيضًـا بشـكل متعمـد لدفـع الخصـم الحكومـي، القـوي، لإلحـاق الأذى بالسـكان المدنيـين. حيـث أن الأضرار الجانبيـة التـي تلحـق بالسـكان، ولا سـيما الضعفـاء منهـم - النسـاء وكبـار السـن والأطفـال - تعـزز صـورة البـؤس. وكـما تـم

التأكيد عليه بالفعل، فإنه بالنسبة لوسائل الإعلام، البائس هو أيضًا يشكل تلقائي صاحب الحق.

من المفهوم أن قيادة المتمردين يجب أن تكون حساسة لعدد الضحايا بين مواطنيها. حيث أن المعدل المرتفع جدًا للضحايا المدنيين والدمار الواسع النطاق يمكن أن يؤدي إلى انخفاض الدعم الشعبي لها، ولكن من المتوقع أن يؤدي المعدل «المعقول» إلى زيادة الدعم المحلي والدولي على حد سواء. ولهذا السبب، فشلت إسرائيل في كل مرة قامت فيها بضرب الجبهة الداخلية للخصم على أمل أن يؤدي ذلك إلى إضعاف النظام والقيادة. وهذا ما جرى بدءاً من قصف عمق الأراضي المصرية في حرب الاستنزاف، مروراً باستخدام أسلوب الضغط على السكان المدنيين في جنوب لبنان لدفع حكومة بيروت إلى كبح جماح حزب الله («مبدأ النفوذ» الذي صاغه إيهود باراك) وانتهاء بالقتال ضد حماس في غزة. حيث أنه على الرغم من أن الجيش الإسرائيلي قد حاول الحد من الضرر الذي يلحق بغير المتورطين وعدم التسبب إلا بمعدل «معقول» من الإصابات في صفوفهم، إلا أنه في جميع هذه الحالات لم يضعف دعم السكان المحليين لقيادتهم، في حين خرجت إسرائيل ملوثة السمعة في الرأي العام العالمي.

لكن ألم تتبنى إسرائيل أيضًا سياسة لعب دور الضحية؟ إن الادعاء بأن إسرائيل ضحية للعنف العربي والفلسطيني، وأن

سياستها الأمنية ليست أكثر من رد دفاعي على الوضع المفروض عليها، كان دائمًا في صميم الدعاية الإسرائيلية وكان بمثابة أساس لشرعنة وتبرير استخدام القوة العسكرية. كما رافقت أطروحة لعب دور الضحية أيضًا الصراع مع حماس في غزة.

أليس من الممكن تفسير سياسة الحكومة، التي لم تبذل جهدا سريعًا وكبيرًا لحماية المستوطنات المحيطة بغزة، رغم تعرضها على مدى سنوات عديدة لهجمات بالصواريخ والقذائف، بنفس منطق لعب دور الضحية؟ لقد كان عدد الضحايا قليلًا نسبيًا، وكان هؤلاء من المدنيين الذين يعيشون في الأطراف وليس في وسط البلاد، وقد جعلت الهجمات التي تستهدفهم من الممكن إثارة دعم الرأي العام العالمي ضد الطبيعة "الإرهابية" الوحشية لحركة حماس. وهكذا أصبحت مدينة سديروت، القريبة من حدود القطاع، معلمًا بارزا على طريق الضيوف رفيعي المستوى القادمين من الخارج، الطريق الذي يبدأ بزيارة «ياد فاشيم»[1]

بعد فترة طويلة من اندلاع الحروب الموجهة إعلاميًا، لم يفهم الجيش الإسرائيلي بعد عمق التغيير الذي عبرت عنه هذه

(١) ياد فاشيم יד ושם: هي مؤسسة إسرائيلية رسمية أقيمت عام ١٩٥٣م بموجب قرار الكنيست الإسرائيلي كمركز أبحاث في أحداث الهولوكوست (المحرقة اليهودية، أي إبادة اليهود خلال الحرب العالمية الثانية) ولتخليد ذكر ضحاياها. ويقع مركز مؤسسة «ياد فاشيم» على جبل هرتسل في الجزء الغربي من مدينة القدس، وهو عبارة عن مجمع يحتوي على متاحف ومعارض ومعاهد تعليم وأبحاث ونصب تذكارية.

الحرب الجديدة. وقد تعلم ذلك من خلال التجربة والخطأ وأتقن تدريجيًا الأدوات المناسبة للنوع الجديد من الحروب. حيث أن مراجعة كل من الحروب الخمسة والنزاعين البحريين التي شاركت فيها إسرائيل خلال العقد الأخير، والتي تم تحليلها بتفصيل كبير في هذا العمل، قد أظهرت المسار الملتوي الذي سلكه الجيش الإسرائيلي. ولكن على الرغم من تطوير وصقل عقيدة الحرب الموجهة إعلاميًا، لا يزال هذا الجيش يجد صعوبة في تحقيق النصر بسبب مفارقة القوة. ومن ناحية أخرى، فإن هذه المفارقة تجعل من السهل على منظمات المقاومة تسويق روايتها بنجاح أكبر - داخل المنظمات نفسها وفي المجتمع الذي تعمل فيه وللجمهور الدولي.

تفسر مفارقة القوة أيضًا سبب عدم قدرة استخدام القوة المفرطة على حل المشكلة التي يتعرض لها الطرف الذي يواجه مقاتلي المقاومة. والتفسير هو أن استخدام القوة المفرطة في حروب مكافحة التمرد أكثر ضررًا من نفعه. وبالأحرى، إن ضبط النفس هو القوة، كما اعترف العديد من الأفراد العسكريين علانية، وأحدهم - موشيه (تشيكو) تامير، بعد الخبرة العملياتية التي اكتسبها في لبنان - فعل ذلك بطريقة مقنعة للغاية.

لا تنتهي الحروب الموجهة إعلاميًا فقط بسبب حالة القوات على الأرض، ولكن بشكل أساسي بسبب العمليات المتعلقة

بالبيئة الاجتماعية المدنية. حيث تشمل هذه العمليات: الاحتجاج العام (الذي ينبع بشكل أساسي من الحساسية للضحايا ومدى الضرر الذي يلحق بالجبهة المدنية)، ومفهوم الإنجاز، والجوانب الإنسانية الأخلاقية، والشرعية الدولية (والتي تشمل موقف المنظمات الدولية مثل الأمم المتحدة). وما يشكل الموقف تجاه كل هذه القضايا - سواء محليا أو خارجيا - هو المعلومات التي تتدفق من ساحة المعركة كما يتم نقلها عبر وسائل الإعلام.

إذا فرض الخصم حربًا، ولم يكن هناك مفر منها، فيجب تذكر وجود مفارقة القوة. حيث يجب أن تؤخذ قيود الحرب الموجهة إعلاميًا في الاعتبار بالفعل في مرحلة التخطيط للحرب، وينبغي تفضيل الحرب التي يصعب تصويرها. وبهذه الطريقة، يمكن الحد نسبيًا من الضرر القانوني والإعلامي والتصويري والأخلاقي والشرعي المتوقع أن يلحق بالطرف الأقوى. كما يجب استخدام مجموعة واسعة من الوسائل غير الفتاكة وغير المدمرة - مثل الحرب الإلكترونية وحرب الكمبيوتر والحرب السيبرانية والخداع والحرب النفسية - التي لا تترك صورًا لمنازل مدمرة وأطفال قتلى.

أصبح الطيف الإلكتروني، أو باسمه الأبسط الوسط اللاسلكي، مساحة قتالية جديدة بالإضافة إلى ساحات القتال التقليدية. حيث يكتب العقيد أفراهام هكوهين: «إن مصطلح ‹هجوم

الطيف، يعني استخدام الطاقة الكهرومغناطيسية أو الأسلحة الإلكترونية لضرب البنية التحتية أو الوسائط القتالية أو المعدات وما إلى ذلك، من أجل تعطيل، وتحييد، وعرقلة، وخداع وحتى تدمير قدرات وأسلحة العدو أو أي كيان آخر»، ويضيف: إن تفرده يكمن في حقيقة أنه «أداة هجوم حديثة تحقق إنجازات عملياتية مع عدم تدمير أو إحداث أضرار مادية مباشرة أو عرضية... إنها أداة هجوم فعالة حديثة ومناسبة جدًا للبيئة القانونية العامة والدولية".

يمكن بالتالي تحسين عدم التوازن في حرب الروايات والمعركة من أجل الوعي إذا حاربنا من أجل الصور بقدر ما نحارب من أجل الأهداف المادية في الساحة الجغرافية. ويجب ألا تكون قيود هذه الحرب الجديدة عاملاً هامشيًا وثانويًا في التخطيط للحرب. فتجاهل البعد الإعلامي وحتى مجرد الاستهانة به يضمن فشل الحملة.

غير أن مفارقة القوة في الحرب الموجهة إعلاميًا، والتي لا يمكن إلغاؤها، تتطلب الاعتراف بأنه من الأفضل أولا وقبل كل شيء منع الحرب. ويمكن تحقيق خفض إرادة الطرف الآخر ودوافعه للقتال إذا ما وضع أمامه أفق سياسي مغر. ومن الممكن والضروري وضع مثل هذا الأفق أمام الشعب الفلسطيني. حيث سيكون أحد الآثار الجانبية لتقديم مثل هذا الخيار هو تحقيق الانتصار بالنقاط في المعركة على الروايات، وقد

يـؤدي أيضًـا إلى تقليـل العـداء تجـاه إسرائيـل في العـالم - عـلى الأقـل مـن قبـل الكيانـات التـي تتعاطـف معهـا بشـكل أسـاسي، ولكنهـا قلقـة حقـا بشـأن مصـير الفلسـطينيين.

تم بحمد الله وهو الموفق والمستعان

تراجم الشخصيات الواردة بالكتاب

١- مارفين كالب Marvin Kalb (ولد عام ١٩٣٠م): هو أكاديمي وصحفي أمريكي، ومؤسس مركز شورنشتاين للإعلام والسياسة والسياسة العامة، مع «إدوارد آر مورو» أستاذ الصحافة والسياسة العامة. وهو حاليًا زميل كلية جيمس كلارك ويلينج التابعة لجامعة جورج واشنطن، كما أنه عضو في الهيئة الاستشارية لمشروع المجتمع الأطلسي.

٢- فيت كونغ Viet Cong (الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام): حركة مقاومة مسلحة فيتنامية نشطت بين عامي ١٩٥٤ – ١٩٧٦م.

٣- هجوم تيت Tet Offensive: هجوم شنه الثوار الفيتناميون «الفيت كونج» بتخطيط من الجنرال جياب وقيادته فيما بين ٢٩ يناير/كانون الثاني و٢٥ فبراير/شباط عام ١٩٦٨م، واستمد اسمه من الاحتفالات الفيتنامية ببداية السنة القمرية حسب التوقيت المحلي. وقد اكتسح فيه المهاجمون أكثر من ٩٠ موقعا ومركز قيادة للقوات الأمريكية وكبدوها خسائر كبيرة في المعدات والأفراد، كما تكبدوا خسائر أكثر ولكن الأمر دفع القيادة الأمريكية إلى إعادة النظر في استراتيجيتها حول الحرب

و «فتنمت» الحرب (أي ترك الحرب لأصحابها الأصليين من الفيتناميين)، الأمر الذي كان له الأثر البالغ في نتيجة الحرب عند نهايتها.

٤- بيير بورديو Pierre Bourdieu (١٩٣٠ – ٢٠٠٢م): عالم اجتماع فرنسي، أحد الفاعلين الأساسيين بالحياة الثقافية والفكرية بفرنسا، وأحد أبرز المراجع العالمية في علم الاجتماع المعاصر، بل إن فكره أحدث تأثيرًا بالغا في العلوم الإنسانية والاجتماعية منذ منتصف الستينيات من القرن العشرين.

٥- بنيامين نتنياهو בנימין נתניהו (ولد عام ١٩٤٩م): سياسي إسرائيلي شغل منصب رئيس الوزراء التاسع لإسرائيل بين عامي ٢٠٠٩ – ٢٠٢١م، وسابقًا بين عامي ١٩٩٦ – ١٩٩٩م. نتنياهو أيضًا رئيس حزب الليكود - الحركة الوطنية الليبرالية. يُعتبر صاحب أطول مدة كرئيس حكومة إسرائيل في التاريخ.

٦- شمعون بيريز שמעון פרס (١٩٢٣ – ٢٠١٦م): كان سياسيًا إسرائيليا، شغل منصب رئيس الدولة (وهو منصب فخري في إسرائيل) بين عامي ٢٠٠٧ – ٢٠١٤م، كما تولّى رئاسة وزراء إسرائيل مرتين، الفترة الأولى بين عامي ١٩٨٤ – ١٩٨٦م، والثانية لسبعة أشهر بين عامي ١٩٩٥ – ١٩٩٦م بعد اغتيال إسحق رابين.

٧- كارلوس منعم Carlos Saúl Menem (١٩٣٠ – ٢٠٢١م): هو محامٍ وسياسي أرجنتيني من أصل سوري، شغل منصب الرئيس الرابع والأربعين للأرجنتين بين عامي ١٩٨٩ – ١٩٩٩م.

٨- سيلفيو برلسكوني Silvio Berlusconi (ولد عام ١٩٣٦م): هو سياسي ورجل أعمال إيطالي كان رئيس وزراء إيطاليا لثلاث مرات، ويُلقب باسم «الفارس» بسبب التكريم الذي حصل عليه في عام ١٩٧٧م من الرئيس جيوفاني ليوني كفارس للعمل والذي تخلى عنه في عام ٢٠١٤م. في عام ١٩٧٥م، قام بإنشاء شركة «فينينفيست Fininvest»، وفي عام ١٩٩٣م أنشأ شركة إنتاج الوسائط المتعددة «ميدياست Mediaset».

٩- دونالد ترامب Donald Trump (ولد عام ١٩٤٦م): هو سياسي أمريكي شغل منصب الرئيس الخامس والأربعون للولايات المتحدة بين عامي ١٩١٧ - ٢٠٢١م. قبل دخوله السياسة، كان رجل أعمال وشخصيّة تلفزيونية.

١٠- رافي مان רפי מן (ولد عام ١٩٥٢م): هو أديب إسرائيلي وأستاذ مشارك في مدرسة الإعلام بجامعة أرئيل، وباحث في الإعلام والصحافة، ومؤرخ. له كتاب ومقالات في مجالات الإعلام والتاريخ.

١١- جورج والكر (دبليو) بوش George W. Bush (ولد عام ١٩٤٦م): أو جورج بوش الابن، هو سياسي ورجل أعمال أمريكي ينتمي إلى الحزب الجمهوري، شغل منصب الرئيس الثالث والأربعين للولايات المتحدة في الفترة بين عامي ٢٠٠١ - ٢٠٠٩م.

١٢- نحمان شاي נחמן שי (ولد عام ١٩٤٦م): إعلامي وسياسي إسرائيلي، يشغل منصب وزير الإعلام والشتات. وهو عضو

كنيست سابق ثلاث مرات، كما شغل قبل ذلك مناصب: مدير إذاعة الجيش الإسرائيلي، والمتحدث باسم الجيش الإسرائيلي، ومدير عام الهيئة الثانية للإذاعة والتلفزيون، ومستشار إعلامي، ورئيس شركة الأخبار على القناة الثانية، ورئيس هيئة البث، ومدير عام الاتحادات اليهودية في أمريكا الشمالية UJC. وهو حاصل على درجة الدكتوراه في الإعلام وفي العلوم السياسية.

١٣- هارولد آدم إينيس Harold Innis (١٨٩٤ – ١٩٥٢م): أستاذ كندي في علم الاقتصاد السياسي في جامعة تورونتو ومؤلف أعمال أساسية عدة في الإعلام ونظرية الاتصال والتاريخ الاقتصادي الكندي. سُميت الكلية التابعة لجامعة تورنتو «إينيس» تيمناً به. على الرغم من صعوبة وكثافة نثره، إلا أن الدارسين يعتبرونه واحدا من أكثر مفكرين كندا أصالة. ولقد ساعد في تطوير فرضية المواد الغذائية والتي تفترض أن ثقافة كندا وتاريخها السياسي والاقتصادي قد تأثروا بصورة حاسمة باستثمار وتصدير مجموعة من السلع الرئيسية مثل الفرو والسمك والخشب والقمح والمعادن المنجمية والوقود الأحفوري.

١٤- مارشال ماكلوهان Herbert Marshall McLuhan (١٩١١ – ١٩٨٠م): أستاذ وفيلسوف وكاتب كندي أحدثت نظرياته في وسائل الاتصال الجماهيري جدلاً كبيرًا، فهو يرى أن أجهزة الاتصال الإلكترونية – خاصة التلفاز – تُسيطر على حياة

الشعوب وتؤثر على أفكارها ومؤسساتها.

١٥- مجرة جوتنبرج «The Gutenberg Galaxy: The Making of Typographic Man»: هو كتاب صدر عام ١٩٦٢م للكاتب مارشال ماكلوهان، حيث يحلل المؤلف آثار وسائل الإعلام، وخاصة الصحافة المطبوعة، على الثقافة الأوروبية والوعي البشري.

١٦- مانويل كاستليس أوليفان Manuel Castells Oliván (ولد عام ١٩٤٢م): عالم اجتماع إسباني مرتبط بشكل خاص بالبحث في مجتمع المعلومات والتواصل والعولمة. في يناير/كانون الثاني عام ٢٠٢٠م، تم تعيينه وزيرًا للجامعات في حكومة سانشيز الثانية بإسبانيا.

١٧- جيمس دير دريان James Der Derian: هو مدير مركز دراسات الأمن الدولي في جامعة سيدني، حيث تولى منصبه في يناير/كانون الثاني عام ٢٠١٣م. تتركز اهتماماته البحثية والتدريسية في الأمن الدولي وتكنولوجيا المعلومات والنظرية الدولية والأفلام الوثائقية.

١٨- رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٦ – ١٦٥٠م): فيلسوف وعالم رياضي وفيزيائي فرنسي، يلقب بـ«أبو الفلسفة الحديثة»، وكثير من الأطروحات الفلسفية الغربية التي جاءت بعده هي انعكاسات لأطروحاته، والتي ما زالت تدرس حتى اليوم، خصوصًا كتاب (تأملات في الفلسفة الأولى-١٦٤١م) الذي ما زال يشكل النص القياسي لمعظم كليات الفلسفة. كما أن لديكارت

تأثير واضح في علم الرياضيات، فقد اخترع نظامًا رياضيًا سمي باسمه وهو (نظام الإحداثيات الديكارتية)، الذي شكل النواة الأولى لـ (الهندسة التحليلية)، فكان بذلك من الشخصيات الرئيسية في تاريخ الثورة العلمية.

١٩- أرجون أبادوراي Arjun Appadurai (ولد عام ١٩٤٩م): عالم أنثروبولوجيا هندي أمريكي معترف به كمنظر رئيسي في دراسات العولمة. يناقش في عمله الأنثروبولوجي أهمية حداثة الدول القومية والعولمة. وهو أستاذ سابق في الأنثروبولوجيا ولغات وحضارات جنوب آسيا في جامعة شيكاغو، وعميد العلوم الإنسانية في جامعة شيكاغو، ومدير مركز المدينة والعولمة في جامعة ييل، وأستاذ دراسات التعليم والتنمية البشرية في جامعة نيويورك شتاينهاردت.

٢٠- جيل دولوز Gilles Deleuze (١٩٢٥ - ١٩٩٥م): هو فيلسوف فرنسي كتب في الفلسفة والأدب والأفلام والفنون الجميلة من أوائل الخمسينيات حتى وفاته، وكان أكثر أعماله شعبية مجلدَين عن الرأسمالية والانفصام: مكافحة العقد النفسية عام ١٩٧٢م وألف هضبة عام ١٩٨٠م، تشارك في كتابة كليهما مع المحلل النفسي فيليكس غوتاري. يعتبر العديد من العلماء أطروحته الميتافيزيقية الفرق والتكرار (١٩٦٨م) أنها من إبداعاته العظيمة. يصنفه الفيلسوف أدريان وليام مور من بين «أعظم الفلاسفة» مستشهدًا بمعايير برنارد

ويليامـز للمفكـر العظيـم. رغـم أنـه وصـف نفسـه في المـاضي بأنـه «الميتافيزيقـي النقـي»، فـإن عملـه قـد أثـر عـلى مجموعـة متنوعـة مـن التخصصـات عـبر الفلسـفة والفـن، بمـا في ذلـك النظريـة الأدبيـة ومـا بعـد البنيويـة ومـا بعـد الحداثـة.

٢١- بيـير فيليكـس غوتـاري Felix Guattari (١٩٣٠ – ١٩٩٢م): كان طبيبـا وطبيبـا نفسـيا وفيلسـوف وسياسـيا فرنسـيا. معـروف أساسـا لتعاونـه الفكـري مـع جيـل دولـوز، وللكتـب التـي ألفهـا معـه، مثـل: مكافحـة أوديـب (Anti-Oedipus 1972) والهضـاب الألـف (A Thousand Plateaus 1980).

٢٢- يوهـان غوتنـبرغ Johannes Gutenberg (١٣٩٨ – ١٤٦٨م): مخـترع ألمـاني، قـام في سـنة ١٤٤٧م بتطويـر قوالـب الحـروف التـي توضـع بجـوار بعضهـا البعـض ثـم يوضـع فوقهـا الـورق ثـم يضغـط عليـه فتكـون المطبوعـة. مطـوراً بذلـك علـم الطباعـة الـذي اخـترع قبـل ذلـك في كوريـا في سـنة ١٢٣٤م، ويعتـبر مخـترع الطباعـة الحديثـة.

٢٣- ريتشـارد رورتي Richard Rorty (١٩٣١ – ٢٠٠٧م): فيلسـوف أمريـكي. يُعـدّ، إلى جانـب هيـلاري پوتنـام، مـن أبـرز مُمثِّـلِي العملانيـة. كان لـه مسـار طويـل في أقسـام التدريـس المتنوعـة: الآداب، والفلسـفة، والأدب المقـارن. انتمـى في البدايـة إلى تيـار الفلسـفة التحليليـة، ثـم نبـذه فيـما بعـد.

٢٤- ميشـال فوكو Michel Foucault (١٩٢٦ – ١٩٨٤م): فيلسـوف

فرنسي، يعتبر من أهم فلاسفة النصف الأخير من القرن العشرين، تأثر بالبنيويين ودرس وحلل تاريخ الجنون في كتابه «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي»، وعالج مواضيع مثل الإجرام والعقوبات والممارسات الاجتماعية في السجون. ابتكر مصطلح «أركيولوجية المعرفة». أرّخ للجنس أيضاً من «حب الغلمان عند اليونان» وصولاً إلى معالجاته الجدلية المعاصرة كما في «تاريخ الجنسانية».

٢٥- غي إرنست ديبور Guy Debord (١٩٢٨ – ١٩٩٤م): شاعر وكاتب وسينمائي فرنسي شهير، كان من أشهر كتاب فرنسا الماركسيين ومن المتأثرين بالخصوص بفكر فيورباخ، وترجمت أعماله إلى عشرات اللغات. كما أنه كان من أبرز المعارضين للحرب الفرنسية في الجزائر.

٢٦- ريتشارد ميل هاوس نيكسون Richard Nixon (١٩١٣ – ١٩٩٤م): هو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابع والثلاثون (١٩٦٩ – ١٩٧٤م) ونائب الرئيس الأمريكي السادس والثلاثون (١٩٥٣ – ١٩٦١م). اضطر للتنحي من منصبه عام ١٩٧٤م خوفًا من أن توجه إليه تهمة التستر على نشاطات غير قانونية لأعضاء حزبه في فضيحة ووترغيت تحت وطأة تهديد الكونغرس بإدانته.

٢٧- جون فيتزجيرالد «جاك» كينيدي John F. Kennedy (١٩١٧ – ١٩٦٣م): هو سياسي أمريكي تولّى منصب الرئيس الخامس

والثلاثين للولايات المتحدة من ٢٠ يناير/كانون الثاني عام ١٩٦١م حتى اغتياله في ٢٢ نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٦٣م. خدم كينيدي كرئيس في ذروة الحرب الباردة، وركز في جُلِّ فترة رئاسته على إدارة العلاقات مع الاتحاد السوفيتي.

٢٨- سوزان سونتاج Susan Sontag (١٩٣٣ – ٢٠٠٤م): ناقدة ومخرجة وروائية أمريكية، من أعمالها الروائية «Against In-terpretation» عام ١٩٦٦م، و«The benefactor» عام ١٩٦٣م، و«styles of radical will» عام ١٩٦٩م، ومن أفلامها كمخرجة «Brother carl» عام ١٩٧٤م. وصل مجموع إنتاجها الكتابي إلى ١٧ كتابا، ما بين القصص والمسرحيات وروايتين ومجموعة من الأعمال النقدية، والتي ترجمت إلى ٣٢ لغة حول العالم.

٢٩- جان بودريار Jean Baudrillard (١٩٢٩ – ٢٠٠٧م): هو فيلسوف فرنسي وعالم اجتماع وعالم اجتماع ثقافي. يُشتهر بتحليلاته المتعلقة بوسائط الاتصال والثقافة المعاصرة والاتصالات التكنولوجية، بالإضافة إلى استنباطه مبادئ مثل المحاكاة والواقع المفرط. كتب بودريار عن مواضيع متنوعة، كالنزعة الاستهلاكية والأدوار الجندرية والاقتصاد والتاريخ الاجتماعي والفن والسياسة الخارجية الغربية والثقافة الشعبية. من أكثر أعماله شهرة نجد الإغراء (١٩٨٧م) وأمريكا (١٩٨٦م) وحرب الخليج لم تحصل (١٩٩١م). غالبًا ما تُربط أعماله بفلسفة ما بعد الحداثة وتحديدًا ما بعد البنيوية.

٣٠- مايك مولن Mike Mullen (ولد عام ١٩٤٦م): ضابط أمريكي، كان رئيس هيئة الأركان المشتركة الأمريكية السابع عشر، والرئيس الثامن والعشرين للقيادة البحرية الأمريكية.

٣١- علم الحبر أو العلم المحبّر דגל הדיו: هو علم إسرائيلي مصنوع باليد، رُفع في حرب ٤٨ للإشارة إلى الاستيلاء على أم الرشراش حيث بنيت لاحقا مدينة إيلات.

٣٢- يوسي بن حنان יוסי בן חנן (ولد عام ١٩٤٥م): ضابط إسرائيلي، لواء احتياط في الجيش الإسرائيلي، حاصل على وسام الشجاعة. قضى معظم خدمته العسكرية في سلاح المدرعات.

٣٣- أرئيل (إريك) شارون אריאל (אריק) שרון (١٩٢٨ – ٢٠١٤م): كان رئيس وزراء إسرائيل، والحكومة الإسرائيلية الثلاثون. ولد في قرية كفار ملال بفلسطين أيام الانتداب البريطاني. كان اسم عائلته الأصلي شاينرمان وكان والداه من اليهود الأشكناز الذين هاجروا من شرقي أوروبا. يعدّ شارون من السياسيين والعسكريين المخضرمين على الساحة الإسرائيلية. ورئيس الوزراء الحادي عشر للحكومة الإسرائيلية.

٣٤- مناحم بيغن מנחם בגין (١٩١٣ – ١٩٩٢م): كان سياسي إسرائيلي ومؤسس حزب الليكود وسادس رؤساء وزراء إسرائيل. وقبل قيام دولة إسرائيل كان قائد المنظمة العسكرية القومية «إرجون»، ولد في روسيا البيضاء ودرس فيها حتى أنهى المرحلة الثانوية ومن ثمة سافر إلى بولندا في عام ١٩٣٨م حيث التحق

بجامعة «وارسو» لدراسة القانون. وتعرف بيغن على العمل الصهيوني من خلال منظمة «بيتار» اليهودية البولندية التي ترأسها في عام ١٩٣٩م. حصل على جائزة نوبل للسلام مناصفة مع الرئيس المصري الراحل أنور السادات.

٣٥- رونالد ريغان Ronald Reagan (١٩١١ – ٢٠٠٤م): سياسي وممثل أمريكي راحل شغل منصب الرئيس الأربعين للولايات المتحدة في الفترة من ١٩٨١م إلى ١٩٨٩م. وقبل رئاسته كان حاكم ولاية كاليفورنيا الثالث والثلاثين بين عامي ١٩٦٧ – ١٩٧٥م، بعد مسيرة كممثل في هوليوود ورئيس نقابة ممثلي الشاشة.

٣٦- دان مريدور דן מרידור (ولد عام ١٩٤٧م): هو سياسي إسرائيلي ووزير. وقد أصبح عضواً في حزب الليكود منذ أواخر التسعينات وهو من مؤسسي حزب المركز. ثم عاد إلى الليكود في أوائل العام ٢٠٠٠م، وعاد إلى الكنيست بعد انتخابات عام ٢٠٠٩م. خدم ميريدور سابقاً في الحكومة نائباً لرئيس الوزراء ووزير الاستخبارات والطاقة الذرية في الحكومة الإسرائيلية. في عام ٢٠١٤م، خلف ميريدور آفي بريمور كرئيس للمجلس الإسرائيلي للعلاقات الخارجية، وهو معهد للشؤون الدولية يعمل تحت رعاية المؤتمر اليهودي العالمي.

٣٧- دافيد بن غوريون דוד בן-גוריון (١٨٨٦ – ١٩٧٣م): كان أول رئيس وزراء ووزير دفاع لإسرائيل.

٣٨- بيل كلينتون Bill Clinton (ولد عام ١٩٤٦م): هو سياسي

أمريكي والرئيس الثاني والأربعون للولايات المتحدة خلال الفترة ما بين عامي ١٩٩٣ - ٢٠٠١م، ويعد ثالث أصغر الرؤساء في تاريخ البلاد بعد ثيودور روزفلت وجون كينيدي.

٣٩- أفراهام شالوم بن دور אברהם שלום בן-דור (١٩٢٨ - ٢٠١٤م): رئيس جهاز الأمن العام (الشاباك) في الفترة ما بين عامي ١٩٨٠ - ١٩٨٦م.

٤٠- السير لورانس فريدمان Sir Lawrence Freedman (ولد عام ١٩٤٨م): أستاذ جامعي بريطاني. أستاذ فخري في قسم الحرب بكلية الملك في لندن. وقد وصف بأنه «عميد الدراسات الاستراتيجية البريطانية».

٤١- جون أبي زيد John Abizaid (ولد عام ١٩٥١م): هو جنرال متقاعد في جيش الولايات المتحدة، وقائد سابق للقيادة المركزية الأمريكية، وعمل سابقًا كسفير للولايات المتحدة في المملكة العربية السعودية.

٤٢- جورج ويليام كيسي جونيور George W. Casey Jr. (ولد عام ١٩٤٨م): هو جنرال متقاعد من جيش الولايات المتحدة شغل منصب الرئيس السادس والثلاثون لأركان الجيش الأمريكي من ١٠ أبريل/نيسان عام ٢٠٠٧م إلى ١١ أبريل/نيسان عام ٢٠١١م.

٤٣- أفيف كوخافي אביב כוכבי (ولد عام ١٩٦٤م): هو رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي اعتبارًا من ١٥ يناير/كانون الثاني عام ٢٠١٩م. وحتى وقت قريب كان رئيسًا للقيادة الشمالية

للجيش الإسرائيلي، وعمل رئيسًا لشعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية «أمان».

٤٤- لوك بولتانسكي Luc Boltanski (ولد عام ١٩٤٠م): عالم اجتماع فرنسي، وأستاذ في مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية بباريس، ومؤسس مجموعة علم الاجتماع السياسي والأخلاقي، يعرف بالشخصية الرائدة في المدرسة «البراغماتية» الجديدة لعلم الاجتماع الفرنسي.

٤٥- ساعر رافيه סער רווה (ولد عام ١٩٦٥م): مقدم احتياط في الجيش الإسرائيلي، خدم لسنوات عديدة كقائد ومستشار تنظيمي في قسم العلوم السلوكية بالجيش الإسرائيلي وفي هيئات أمنية أخرى.

٤٦- يوسف (يوسي) كوبرفاسر יוסף (יוסי) קופרוואסר (ولد عام ١٩٥٣م): شغل منصب رئيس قسم البحوث في هيئة الاستخبارات «أمان»، برتبة عميد، ومنصب مدير عام وزارة الشؤون الاستراتيجية.

٤٧- موشيه (بوغي) يعلون משה (בוגי) יעלון (ولد عام ١٩٥٠م): سياسي إسرائيلي، وزير الدفاع الأسبق في الحكومة الإسرائيلية، وعضو في المجلس الوزاري المصغر للشؤون السياسية والأمنية، وعضو كنيست من كتلة «حزب الليكود». شغل في السابق منصب نائب رئيس الحكومة، ووزيرا للشؤون الاستراتيجية، وكذلك رئيس هيئة الأركان العامة ال ١٧ للجيش الإسرائيلي.

٤٨- غيورا آيلاند גיורה איילנד (ولد عام ١٩٥٢م): هو ضابط أمن إسرائيلي، خدم في الجيش الإسرائيلي برتبة لواء كرئيس لهيئة العمليات ورئيس لهيئة التخطيط. شغل منصب رئيس مجلس الأمن القومي في الفترة بين عامي ٢٠٠٤ - ٢٠٠٦م. وعمل لاحقا كباحث في معهد دراسات الأمن القومي.

٤٩- شاي شبتاي שי שבתאי: عقيد احتياط في الجيش الإسرائيلي ومستشار استراتيجي في شركة «كونفيداس». خبير ومحاضر ولديه خبرة عملية لأكثر من عشرين سنة في قضايا الشرق الأوسط والاستراتيجية الأمنية لإسرائيل والتخطيط الاستراتيجي والجيش.

٥٠- عميحاي (عامي) أيالون עמיחי (עמי) אילון (ولد عام ١٩٤٥م): هو سياسي إسرائيلي وعضو سابق في الكنيست عن حزب العمل وكان سابقا رئيس الشين بيت (جهاز الاستخبارات الإسرائيلية) والقائد العام للقوات المسلحة من القوات البحرية وجاء في المركز الثاني لإيهود باراك في انتخابات زعامة حزب العمل في يونيو/حزيران عام ٢٠٠٧م وعين وزيرا بلا حقيبة في سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠٧م وهو واحد من المستفيدين من أعلى وسام في إسرائيل وسام الشجاعة.

٥١- موران يارحي מורן ירחי (ولدت عام ١٩٨٠م): هي رئيسة تخصص الوعي والتأثير الرقمي في كلية الاتصالات، ورئيسة برنامج الدبلوماسية العامة، ومحاضرة كبيرة في كلية

الاتصالات، وزميلة أولى في معهد أبا إيبان للدبلوماسية الدولية، وباحثة أولى في معهد مكافحة الإرهاب بجامعة رايخمان.

٥٢- غيرشون هاكوهين גרשון הכהן (ولد عام ١٩٥٥م): هو لواء احتياط في الجيش الإسرائيلي، كان آخر منصب شغله هو قائد فيلق الأركان (٤٤٦).

٥٣- غادي أيزنكوت גדי איזנקוט (ولد عام ١٩٦٠م): ضابط إسرائيلي من أصول مغربية، شغل منصب رئيس الأركان ال ٢١ بين عامي ٢٠١٥ - ٢٠١٩م. وكان قد شغل قبل ذلك مناصب قائد لواء جولاني، والسكرتير العسكري لرئيس الوزراء إيهود باراك، وقائد فرقة «نتيف هائيش» (الباشان حاليًا)، وقائد فرقة الضفة الغربية، ورئيس هيئة العمليات، وقائد القيادة الشمالية، ونائب رئيس الأركان.

٥٤- إلداد ريغف אלדד רדב (١٩٨٠ - ٢٠٠٦م) وإيهود غولدفاسر אהוד גולדווסר (١٩٧٥ - ٢٠٠٦م): كانا جنديا احتياط في الجيش الإسرائيلي قتلا بتاريخ ١٢ يوليو/تموز عام ٢٠٠٦م، في هجوم نفذه حزب الله اللبناني، عندما كانا مجندين في قوة راقبت الحدود اللبنانية الإسرائيلية في منطقة الجليل الأعلى، قرب مستوطنتي زرعيت وشتولا المجاورتين للحدود. حيث خطفت قوة حزب الله المهاجمة جثتي غولدفاسر وريغف ورفضت منظمة حزب الله الإعلان عن مصرعهما، فاعتبرا أسيرين لمدة سنتين تقريبًا، ثم أعيدت جثتاهما إلى

إسرائيـل في صفقـة تبـادل أسرى تـم تنفيذهـا في ١٦ يوليو/تمـوز عـام ٢٠٠٨م.

٥٥- دان حالوتـس דן חלוצ (ولـد عـام ١٩٤٨م): رئيـس هيئـة الأركان العامـة الـ ١٨ للجيـش الإسرائيـلي وعمـل في هـذا المنصـب مـن يونيو/حزيـران عـام ٢٠٠٥م حتـى فبراير/شـباط عـام ٢٠٠٧م، وكان في السـابق قائـد القـوات الجويـة الإسرائيليـة ونائـب رئيـس الأركان. وكان حالوتـس رئيـس الأركان الأكـبر عمـراً للجيـش الإسرائيـلي. وقـد أشرف عـلى خطـة فـك الارتبـاط وعـلى حـرب لبنـان الثانيـة. وكان أول رئيـس أركان في إسرائيـل ابتـدأ خدمتـه العسـكرية كطيـار في سـلاح الجـو.

٥٦- حجـاي مردخـاي חגי מרדכי (ولـد عـام ١٩٦٥م): هـو عميـد احتيـاط في الجيـش الإسرائيـلي، كان آخـر منصـب يشـغله هـو رئيـس أركان ذراع البر. وقبـل ذلـك، شـغل منصـب قائـد فرقـة الضفـة الغربيـة.

٥٧- ميخـا بـيري מיכה פרי (١٩٢٣ – ١٩٩٨م): كان مـن مقاتـلي الهاغانـا وباليـام (القـوة البحريـة التابعـة للبلـماح)، ومـن قـادة البلـماح في لـواء هارئيـل ولـواء النقـب خـلال حـرب الاسـتقلال (حـرب فلسـطين ٤٨). عمـل كمهنـدس بنـاء وكمصـور. وبـيري هـو المصـور الـذي التقـط صـورة رفـع علـم الحـبر.

٥٨- مـيري ريغيـف מירי רגב (ولـدت عـام ١٩٦٥م): سياسـية إسرائيليـة وعضـو في الكنيسـت عـن حـزب الليكـود وكانـت وزيـرة

الثقافة والرياضة، كما شغلت سابقًا منصب المتحدثة باسم الجيش الإسرائيلي خلال فترة فك الارتباط وفترة حرب لبنان الثانية.

٥٩- جابي أشكنازي גבי אשכנזי (ولد عام ١٩٥٤م): سياسي وضابط إسرائيلي، كان سابقًا وزير الخارجية وعضو كنيست ورئيس لجنة الخارجية والأمن في الكنيست، كما شغل منصب رئيس الأركان التاسع عشر للجيش الإسرائيلي.

٦٠- آفي بينياهو אבי בניהו (ولد عام ١٩٥٩م): هو صحفي ورجل إعلام إسرائيلي، كان سابقًا المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي برتبة عميد، ومدير إذاعة الجيش الإسرائيلي، ومستشارا إعلاميًا لشؤون الأمن لرئيسي الوزراء إسحق رابين وشمعون بيريز، ومستشارا إعلاميًا لوزير الخارجية إسحاق مردخاي.

٦١- داليا غافريلي نوري דליה גבריאלי נורי (ولدت عام ١٩٦٣م): هي محامية إسرائيلية، وباحثة في خطاب الحرب والسلام والثقافة الإسرائيلية، وباحثة في معهد ترومان لتعزيز السلام في الجامعة العبرية، وأستاذة مشاركة في كلية هداسا الأكاديمية.

٦٢- شلومو أفينيري שלמה אבינרי (ولد عام ١٩٣٣م): هو باحث في مجال العلوم السياسية ومؤرخ للفلسفة السياسية، وخاصة الاشتراكية والصهيونية، وأستاذ فخري في العلوم السياسية في الجامعة العبرية بالقدس، وحائز على جائزة إسرائيل لأبحاث العلوم السياسية عام ١٩٩٦م، وعضو في الأكاديمية الوطنية الإسرائيلية للعلوم، والمدير العام السابق لوزارة الخارجية.

٦٣- ريتشارد غولدستون Richard J. Goldstone (ولد عام ١٩٣٨): قاضي جنوب إفريقي، والمدعي العام في محكمة العدل الدولية لجرائم الحرب. ترأس بعثة الأمم المتحدة لتقصي الحقائق في نزاع غزة.

٦٤- أليعازر (تشيني) ماروم אליעזר (צ'ייני) מרום (ولد عام ١٩٥٥م): هو لواء احتياط في الجيش الإسرائيلي، كان في منصبه الأخير قائدا لسلاح البحر الإسرائيلي بين عامي ٢٠٠٧ - ٢٠١١م.

٦٥- إيهود باراك אהוד ברק (ولد عام ١٩٤٢م): سياسي إسرائيلي، كان عاشر رئيس وزراء لإسرائيل ووزير الدفاع بين عامي ١٩٩٩ - ٢٠٠١م ثم تولى مرة أخرى وزارة الدفاع بين عامي ٢٠٠٧ - ٢٠١٣م. وقد رأس باراك حزب العمل الإسرائيلي من عام ٢٠٠٩م وحتى عام ٢٠١٣م.

٦٦- تسفي لانير צבי לניר (ولد عام ١٩٣٦م): مؤرخ إسرائيلي، هو مؤسس ورئيس شركة «فراكسيس» ومطور نظرية «المفاجأة الأساسية» وانعكاساتها على استراتيجيات التفكير والإدارة المتكاملة، ومؤلف كتاب «زمن العقل».

٦٧- أفيتال ليبوفيتش אביטל ליבוביץ' (ولدت عام ١٩٧١م): هي المديرة العامة للجنة اليهودية الأمريكية في إسرائيل، ومقدم احتياط في وحدة المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي.

٦٨- موشيه (تشيكو) تامير משה (צ'יקו) תמיר (ولد عام ١٩٦٤م): هو ضابط احتياط في الجيش الإسرائيلي برتبة عميد،

شغل منصب قائد لواء جولاني وقائد فرقة غزة.

٦٩- يوآف (بولي) مردخاي יואב (פולי) מרדכי (ولد عام ١٩٦٤م): هو لواء احتياط في الجيش الإسرائيلي، شغل مناصب منسق أعمال الحكومة في المناطق، ورئيس الإدارة المدنية، والمتحدث باسم الجيش الإسرائيلي بين عامي ٢٠١١ - ٢٠١٣م.

٧٠- ياسر عرفات (١٩٢٩ - ٢٠٠٤م): واسمه الحقيقي محمد عبد الرؤوف عرفات القدوة الحسيني. يُكنى بأبي عمار ويُلقب بالختيار. هو سياسي وعسكري فلسطيني لاجئ وأحد مؤسسي حركة فتح وجناحها المسلح (العاصفة)، ومنظمة التحرير الفلسطينية، وأول رئيس للسلطة الوطنية الفلسطينية.

٧١- ديك تشيني Dick Cheney (ولد عام ١٩٤١م): هو سياسي ورجل أعمال أمريكي كان نائب رئيس الولايات المتحدة السادس والأربعين في الفترة بين عامي ٢٠٠١ - ٢٠٠٩م ضمن فترتي حكم الرئيس جورج دبليو بوش.

٧٢- عوزي بنزيمان עוזי בנזימן (ولد عام ١٩٤١م): هو صحفي إسرائيلي، مؤسس ورئيس تحرير مجلة «العين السابعة»، وقد عمل في صحيفة «هآرتس» بين عامي ١٩٦٥ - ٢٠٠٨م، وهو عضو مجلس إدارة الصحيفة، وحائز على جائزة سوكولوف للصحافة المكتوبة عام ٢٠٠٦م.

٧٣- رام روثبيرغ רם רוטברג (ولد عام ١٩٦٤م): هو لواء (احتياط) في الجيش الإسرائيلي، كان من بين المناصب التي

شـغلها: قائـد سـلاح البحـر، وقائـد وحـدة دوفدفـان، وقائـد شـيطيت ١٣، ورئيـس شـعبة الاسـتخبارات البحريـة الإسرائيليـة، وقائـد قاعـدة حيفـا البحريـة.

٧٤- بنيامـين (بينـي) غانتـس בנימין (בני) גנץ (ولـد عـام ١٩٥٩م): هـو وزيـر الدفـاع ونائـب رئيـس الـوزراء الإسرائيـلي، مؤسـس ورئيـس حـزب «حصانـة إسرائيـل» وعضـو كنيسـت ضمـن كتلـة «أزرق – أبيـض». شـغل سـابقًا منصـب رئيـس الـوزراء البديـل، ورئيـس الكنيسـت. كـما كان رئيـس الأركان العشريـن للجيـش الإسرائيـلي.

٧٥- حانـوخ مرمـري חנוך מרמרי (ولـد عـام ١٩٤٨م): هـو صحفـي ومحـرر إسرائيـلي، كان محـررا لصحيفـة «هاعـير» المحليـة ومحـررا لصحيفـة «هآرتـس»، ومحـرر سـابق لمجلـة «العـين السـابعة» المختصـة بالنقـد الإعلامـي.

٧٦- يديديـا («ديدي») يعـاري ידידיה («דידי») יערי (ولد عام ١٩٤٧م): هـو ضابـط إسرائيـلي سـابق، شـغل منصـب قائـد سـلاح البحـر بـين عامـي ٢٠٠٠ – ٢٠٠٤م، ثـم شـغل بعـد ذلـك منصـب الرئيـس التنفيـذي لشركـة «رفائيـل» بـين عامـي ٢٠٠٤ – ٢٠١٦م.

٧٧- مؤسسـة غالـوب (Gallup, Inc.): هـي شركـة تحليـلات واستشـارات أمريكيـة تتخـذُ مـن واشـنطن العاصمـة مقـرًا لهـا. أسَّـسَ المؤسسـة جـورج غالـوب عـام ١٩٣٥م، وأصبحـت الشركـة معروفـة باسـتطلاعاتِ الـرأي العـام التـي تُجريهـا في جميـع أنحـاء

العالم. حولت «غالوب» ابتداءً من الثمانينيات أعمالها للتركيز على توفير التحليلات والاستشارات الإدارية للمؤسسات على مستوى العالم. وبالإضافة إلى التحليلات والاستشارات الإدارية واستطلاعات الرأي، تقدم الشركة أيضًا الاستشارات التعليمية وكتب الأعمال والإدارة التي تنشرها وحدة غالوب برِس التابعة لها.

٧٨- عوفر شيلح עפר שלח (ولد عام ١٩٦٠م): صحفي وسياسي ومعلق رياضي إسرائيلي. شغل في السابق منصب عضو في الكنيست عن حزب «هناك مستقبل»، ورئيس حزب تنوفا.

٧٩- تامير يدعي תמיר ידעי (ولد عام ١٩٦٩م): هو ضابط في الجيش الإسرائيلي برتبة لواء، يشغل حاليًا منصب قائد القوات البرية الإسرائيلية. وقد سبق له شغل مناصب قائد القيادة الوسطى وقائد قيادة الجبهة الداخلية وقائد فرقة الضفة الغربية ورئيس قسم العقيدة والتدريب في هيئة العمليات وقائد الفرقة ٨٠ «إيدوم» وقائد لواء جولاني.

٨٠- عيران أورتال ערן אורטל (ولد عام ١٩٧١م): هو ضابط في الجيش الإسرائيلي برتبة عميد، يشغل منصب قائد مركز دادو للدراسات العسكرية متعددة الاختصاصات.

٨١- إلياهو (إيلي) يشاي אליהו (אלי) ישי (ولد عام ١٩٦٢م): هو سياسي إسرائيلي. زعيم سابق لحزب شاس اليميني المتطرف، كان عضواً وممثلا للحزب في الكنيست بين عامي ١٩٩٦ – ٢٠١٥م. كما أنه شغل العديد من المناصب

الوزارية بما في ذلك نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية ووزير الصناعة والتجارة والعمل. في ديسمبر/كانون الأول عام ٢٠١٤م، غادر حزب شاس لإنشاء حزب يشاد.

٨٢- حاييم رامون חיים רמון (ولد عام ١٩٥٠م): هو سياسي إسرائيلي من أصل أوكراني، انتخب لعضوية الكنيست عدة مرات عن حزب العمل، وهو المبادر لقانون التأمين الصحي الحكومي في منتصف التسعينات. انتقل بعد عام ٢٠٠٥م إلى حزب كديما برئاسة أرئيل شارون. شغل منصب وزير القضاء ووزير الداخلية في ٤ مايو/أيار عام ٢٠٠٦م وأعلن استقالته من المنصب في ١٨ أغسطس/آب من نفس العام نتيجة مزاعم عن فضيحة جنسية له، وبالرغم من الحكم عليه بأنه مذنب بالتحرش الجنسي إلا أنه تم إعادة تعيينه في يوليو/تموز عام ٢٠٠٧م كنائب لرئيس الحكومة الإسرائيلية.

٨٣- موني حوريف מוני חורב: هو عميد احتياط في الجيش الإسرائيلي. سبق وتولى قيادة كل من لواء جفعاتي ومدرسة الضباط التابعة للجيش الإسرائيلي والفرقة ٥٦٠.

٨٤- يهودا بن مئير יהודה בן מאיר (ولد عام ١٩٣٩م): هو عالم نفس وأستاذ جامعي ومحامي وناشط اجتماعي وسياسي إسرائيلي، وعضو سابق في الكنيست. يعمل حاليًا كزميل باحث في معهد دراسات الأمن القومي.

٨٥- جابي سيبوني גבי סיבוני (ولد عام ١٩٥٧م): هو عقيد

احتياط في الجيش الإسرائيلي. ترأس البرامج البحثية في معهد دراسات الأمن القومي في المجالات العسكرية والاستراتيجية والأمن السيبراني، وهو حاليًا زميل باحث أول في معهد القدس للاستراتيجية والأمن. كما أنه أستاذ في جامعة فرانسيسكو دي فيتوريا بمدريد.

٨٦- شموئيل إيفن שמואל אבן: كان باحثا في معهد أبحاث الأمن القومي، ويعتبر اقتصاديا لامعا ومختصا في مجالات الأمن القومي في منطقة الشرق الأوسط، وقد أصدر سلسلة من المؤلفات التي تعنى أساسا باقتصاديات الشرق الأوسط والموازنات المالية التي تنفق لصالح المجالات الأمنية، إلى جانب اهتمامه بالنفط العالمي والاستخبارات والإرهاب. عمل مستشارا للشؤون الاستراتيجية والاقتصادية للوزارات الحكومية والشركات الخاصة العاملة في إسرائيل. حصل على شهادة الدكتوراه من معهد التخنيون وجامعة حيفا، وأنهى خدمته العسكرية في صفوف الجيش برتبة عميد متقاعد، بعد أن أمضى سنين طويلة في سلاح المخابرات.

٨٧- كوبي (يعقوب) ميخائيل קובי (יעקב) מיכאל (ولد عام ١٩٦٠م): هو باحث أول في معهد دراسات الأمن القومي، متخصص في دراسات السلام والحرب، والاستراتيجية، والأمن القومي، والعلاقات بين المستوى السياسي والمستوى العسكري، وبين الجيش والمجتمع، وحفظ السلام، والصراع الإسرائيلي الفلسطيني.

٨٨- إدوارد نيكـولاي لوتـواك Edward N. Luttwak (ولـد عـام ١٩٤٢م): هـو باحـث اسـتراتيجي عسـكري أمريـكي ومؤلـف معـروف بأعمالـه في الاسـتراتيجية الكـبرى وعلـم الاقتصـاد الجغرافي والتاريـخ العسـكري والعلاقـات الدوليـة. أشـهر مؤلفاتـه كتـاب «الانقـلاب: دليـل علمـي».

٨٩- زبينـغ فيجامرنـو זבנג וגמרנו (بضربـة واحـدة): تعبـير يدل عـلى فعـل سريـع ولمـرة واحـدة، يتـم تنفيـذه بضربـة واحدة.

٩٠- أفيغـدور ليبرمـان אביגדור ליברמן (ولـد عـام ١٩٥٨م): هـو سـياسي إسرائيـلي وزعيـم يمينـي متطرف، يشـغل منصـب وزير الماليـة ورئيـس حـزب «إسرائيـل بيتنـا». سـبق لـه شـغل المناصـب التاليـة: نائـب رئيـس الـوزراء، ووزيـر الدفـاع، ووزيـر الخارجيـة، ووزيـر الطاقـة والبنيـة التحتيـة، ووزيـر المواصـلات، ورئيـس لجنـة الخارجيـة والأمـن، ومديـر عـام مكتـب رئيـس الـوزراء.

٩١- أفرايـم عنـبر אפרים ענבר (ولـد عـام ١٩٤٧م): هـو أسـتاذ فخـري في قسـم العلـوم السياسـية بجامعـة بـار إيـلان، ورئيـس معهـد القـدس للاسـتراتيجية والأمـن (JISS). وقـد كان المديـر المؤسـس لمركـز بيغـن والسـادات للدراسـات الاسـتراتيجية.

٩٢- ديفيـد جالـولا David Galula (١٩١٩ – ١٩٦٧م): أو داود قلالـة، كان ضابطًـا عسـكريًا وباحثـا فرنسـيا، وكان لـه أثـر كبـير عـلى تطويـر نظريـة مكافحـة التمـرد وتنفيذهـا.

٩٣- ديفيـد بترايـوس David Petraeus (ولـد عـام ١٩٥٢م): هـو

ضابـط أمريـكي، شـغل منصـب رئيـس وكالـة المخابـرات المركزيـة CIA مـن ٦ سـبتمبر/أيلول عـام ٢٠١١م وحتـى ٩ نوفمبر/تشريـن الثـاني عـام ٢٠١٢م. وقبـل ذلـك كان قائـد القيـادة المركزيـة الأمريكيـة وقائـد القـوة المتعـددة الجنسـيات في العـراق وقائـد قـوات الناتـو والقـوات الأمريكيـة في أفغانسـتان.

٩٤ يانـوس أو جانـوس (باللاتينيـة: Ianus): هـو إلـه البوابـات والمداخـل والانتقـالات والطـرق والممـرات والمخـارج في الميثولوجيـا الرومانيـة، هـذا الإلـه لـه وجهـين، وجـه ينظـر للمسـتقبل ووجـه ينظـر للـماضي، وهـو الإلـه التقليـدي لشـهر ينايـر ويعتـبر أصـل اسـمه، ويعتـبر حسـب الميثولوجيـا أنـه مثـير وحاسـم النزاعـات والحـروب والسـلام.

٩٥- شـمعون نافيـه שמעון נווה (ولـد عـام ١٩٤٨م): هـو ضابط احتيـاط في الجيـش الإسرائيـلي برتبـة عميـد. أنشـأ وتـرأس مركـز دادو للدراسـات العسـكرية متعـددة الاختصاصـات التابـع للجيـش الإسرائيـلي، ويعتـبر مفكـرًا رائـدًا ومثـيرًا للجـدل في مجـال الفـن التشـغيلي للحـرب.

٩٦- سـامي كوهـين סמי כהן (ولـد عـام ١٩٤٣م): هـو باحـث ومحـاضر في معهـد الدراسـات السياسـية بباريـس، وباحث مشـارك في معهـد أبحـاث CERI.

٩٧- مـاو تـسي تونـغ (١٨٩٣ – ١٩٧٦م): هـو ثـوري شـيوعي صينـي ومؤسـس جمهوريـة الصـين الشـعبية، والتـي حكمهـا مـن خـلال

قيادته للحزب الشيوعي منذ تأسيسه عام ١٩٤٩م وحتى وفاته عام ١٩٧٦م. يُعرف أيضاً باسم الرئيس ماو. اشتهر ماو بأيديولوجيته الماركسية اللينينية واستراتيجياته العسكرية الخاصة ونظرياته وسياساته، إذ شكلت كل هذه الأفكار مجتمعة ما بات يعرف بالماوية.

٩٨ جوزيف صموئيل ناي، الابن Joseph Nye (ولد عام ١٩٣٧م): سياسي أمريكي وأستاذ العلوم السياسية وعميد سابق لمدرسة جون كينيدي الحكومية في جامعة هارفارد. أسس بالاشتراك مع روبرت كوهين، مركز الدراسات الليبرالية الجديدة في العلاقات الدولية. وتولى عدة مناصب رسمية منها مساعد وزير الدفاع للشؤون الأمنية الدولية في حكومة بل كلينتون ورئيس مجلس الاستخبارات الوطني.

٩٩- إيهود (أودي) ديكل אהוד (אודי) דקל (ولد عام ١٩٥٧م): هو ضابط احتياط في الجيش الإسرائيلي، حيث تسرح من الجيش برتبة عميد، بعد أن شغل منصب رئيس فرع التخطيط الاستراتيجي في هيئة التخطيط. وعمل مديرا لمعهد دراسات الأمن القومي.

١٠٠- إسحاق بن يسرائيل יצחק בן ישראל (ولد عام ١٩٤٩م): هو مؤلف وسياسي إسرائيلي ولواء احتياط في الجيش الإسرائيلي. نشط حزبياً في كاديما. وقد انتخب عضوا في الكنيست وانضم خلال فترته النيابية (١٣ يونيو/حزيران

٢٠٠٧م – ٢٤ فبراير/شباط ٢٠٠٩م) للكتلة البرلمانية كاديما. وهو أستاذ فخري في جامعة تل أبيب، ورئيس ورشة يوفال نئمان للعلوم والتكنولوجيا والأمن، ورئيس مركز السايبر في جامعة تل أبيب. كما شغل منصب رئيس وكالة الفضاء الإسرائيلية في وزارة العلوم والتكنولوجيا بين عامي ٢٠٠٥ – ٢٠٢٢م.

١٠١- آلفين توفلر Alvin Toffler (١٩٢٨ – ٢٠١٦م): كاتب ومفكر أمريكي وعالم في مجال المستقبليات تم ترجمة كتبه إلى عدة لغات عالمية. قام بتدريس رؤساء دول مثل ميخائيل غورباتشوف رئيس الاتحاد السوفييتي الأخير والرئيس الهندي أبو بكر زين العابدين عبد الكلام ورئيس وزراء ماليزيا السابق مهاتير محمد.